

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

SOCIÉTÉ ÉGYPTIENNE D'ÉTUDES HISTORIQUES

المجلد،
التاريخية
المصرية

١٩٦٩

المجلد السادس عشر

القاهرة
الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية
مطبعة جامعة عين شمس
١٩٦٩

المحتويات

صفحة

كلمة تأبين في ذكرى الأربعين لوفاة المرحوم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة
د. سعيد عبد الفتاح عاشور ٣

بحوث :

- ١ - شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية
د. سعيد عبد الفتاح عاشور ١٥
- ٢ - غرناطة وقصر الحمراء
د. محمد توفيق بلع ٦٧
- ٣ - سكان ليبيا عند اليعقوبي
د. عبد القادر أحمد طليمات ١٠١
- ٤ - المؤثرات السياسية للحرب العالمية الأولى على امارات الخليج العربي
د. جمال زكريا قاسم ١١٥

أبناء ومؤتمرات :

- ٥ - عرض للأبحاث والدراسات الخاصة بتاريخ ليبيا الحديث التي
قدمت الى مؤتمر ليبيا عبر العصور
د. جمال زكريا قاسم ١٧٩

نقد الكتب :

- ١ - تاريخ عمان - ونديل فيلبس ٢٠٥
- ٢ - دليل الخليج - ج. ج. لوريمر ٢١١
- ٣ - رحلة طاغور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي - بيرو طاغور . ٢١٩

الرسائل الجامعية :

- عناوين الرسائل الجامعية الجديدة ٢٢٣
- ملخصات للرسائل الجامعية الجديدة ٢٢٦

جوش

شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية

للككتور سعيد عبد الفتاح عاشور

استاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب جامعة القاهرة

من الحقائق المسلم بها في تاريخ العصور الوسطى ، أن الانتصارات الكبيرة والمكاسب الضخمة التي حققها الصليبيون في الشرق الأدنى غداة وصولهم اليه أول مرة في أواخر القرن الحادى عشر ، لم يكن مردها قوة خارقة أو شجاعة نادرة أبداهها الغزاة ، بقدر ما كان مردها ضعف القوى الإسلامية في المنطقة ، ووقوعها مع بعضها البعض في منازعات وخلافات مكنت الأعداء عندئذ من النفاذ الى صميم بلادهم والاستقرار بالشام نحو من قرنين من الزمان .

والحق ان سببا أساسيا من أسباب ضعف المسلمين في الشرق الأدنى في القرن الحادى عشر كان ازدياد الخلاف بين السنة والشيعة ، وهو الخلاف الذى خلق صداما فكريا ، وأوجد صراعا روحيا ، وولد بعثرة وفرقة سياسية بين المسلمين بعضهم وبعض - وخاصة فيما بين الفرات والنيل - ؛ وإذا بنا أمام جبهتين متعاديتين ، ربما فضلت احدهما محالفة العدو الدخيل على المسلم الخارج عن مذهبها . وقد اشتدت الفتن المذهبية بين الشيعة والسنة في العراق - وخاصة بغداد - طوال القرن الحادى عشر للميلاد ، وجاء كثير منها مصحوبا بالقتل والنهب والفوضى ، الأمر الذى زاد من خطورته انضمام بعض الأمراء وكبار رجال الدولة الى هذا الجانب أو ذاك ، من الجانبين المتنازعين^(١) . ولم تقتصر هذه المنازعات والخلافات المذهبية على العراق ، وإنما امتدت الى مصر ، التى لم تكن « تخلو من الفتن في يوم عاشوراء عند قبر كلثم وقبر نفيسة بنت الحسين ابن زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب »^(٢) .

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٣ ، ص ٣٦٧ ، ابن الجوزى : المنتظم ،

ج ٩ ، ص ٢٦٤ ، ١٥

(٢) المقرئى : انعاظ الحنفا ، ص ١٩٨

واذا كان الخلاف قد ظهر في صورة واضحة داخل الدولة العباسية السنيّة في العراق ، وداخل الدولة الفاطمية الشيعية في مصر ، فانه كان لا بد وأن يظهر بالشام في صورة صدام عنيف بين الخلافتين العباسية والفاطمية . ذلك أن بلاد الشام بحكم موقعها الجغرافي تعتبر حلقة الوصل بين مصر والعراق . وقد جاء ضعف الخلافة العباسية في بغداد مصحوبا بانحسار نفوذها عن كثير من البلاد ومن جملتها بلاد الشام ، وحدث ذلك في الوقت الذي استولى الفاطميون على مصر في القرن العاشر للميلاد ، وأخذوا يتطلعون الى بلاد الشام ، بل الى العراق نفسه لمنازعة الخلافة العباسية زعامتها على العالم الاسلامي^(١) . وصحب امتداد النفوذ الفاطمي الى الشام انتشار المذهب الشيعي ، وظهور جماعات منهم بين ربوع الشام ، مثل الحاكمة والآمية والدروز^(٢) . ولم تلبث أن غدت بلاد الشام هي الأخرى مسرحا للمنازعات بين الشيعة والسنة ، فيحكى أبو المحاسن أن الناس في دمشق تألموا عندما أذن المؤذنون فيها بحى على خير العمل ، تنفيذاً لأوامر جعفر بن فلاح ، قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ، كما هاجم القرامطة الشام سنة ٩٧١ م (٣٦٠ هـ) ، مما جعل البلاد مسرحا للقتال والفتن^(٣) .

ومهما يكن من أمر هذه الأحداث ، فالذى يهمنا هو أن هذا الانقسام جاء على حساب وحدة الجبهة الاسلامية ، وعلى حساب تماسك بناء المسلمين في الشرق الأدنى ، الأمر الذى جعل الأمور ممهدة أمام الصليبيين لغزو الشام في سهولة ، والاستقرار فيه طويلا دون صعوبة . وزاد من تسهيل مهمة الصليبيين أن الخلافة الفاطمية التى مدت نفوذها الى الشام في قوة وجراة أواخر القرن العاشر للميلاد ، هذه الخلافة لم تلبث أن تعرضت للضعف والخور في القرن الحادى عشر ، مما أعجزها عن الاحتفاظ بمكاسبها في بلاد الشام ، فأخذ نفوذها ينحسر تدريجيا عن تلك البلاد . والمتأمل في تاريخ الدولة الفاطمية يستطيع في سهولة أن يلمس ما انتابها من ضعف على عهد الخليفة المستنصر بالله (١٠٣٥ - ١٠٩٤) نتيجة لانخفاض النيل واشتداد الغلاء وانتشار الوباء ، وهو ما يعرف

(١) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطمية الخارجية ، ص ١١١ ، ١٦٣

(٢) الانصارى الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ٢٠٠

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٥٨

باسم الشدة المستنصرية العظمى ، وما صعب ذلك من اضطراب جهاز الحكم وكثرة ثورات الجند^(١) .

وفى ذلك العهد بالذات انسلخ عن الدولة الفاطمية كثير من ممتلكاتها بالشام . ففي سنة ١٠٧٠ ، أعلن قاضى صور - ابن أبى عقيل - خروجه عن طاعة الفاطميين واستقلاله بمدينة صور ، واستنجد بالسلاجقة للوقوف فى وجه محاولات أمير الجيوش بدر الدين الجمالى لاختضاعه^(٢) . ولم يتمكن الفاطميون من استرداد صور من بنى عقيل الا سنة ١٠٨٩^(٣) . أما قاضى طرابلس - الحسن ابن عمار - فقد انفصل عن الفاطميين أيضا سنة ١٠٧٠ ، وأقام امارة مستقلة فى طرابلس ، ظلت قائمة حتى استولى الصليبيون على تلك المدينة سنة ١١٠٩ . وفى سنة ١٠٧١ ، استولى أتسز بن أوق - أحد القادة الأتراك من أتباع السلطان ألب أرسلان - على الرملة وبيت المقدس وفلسطين بأكملها عدا أرسوف ؛ كما استولى سنة ١٠٧٥ على دمشق والمنطقة المحيطة بها^(٤) . وهكذا وصل الصليبيون الى الشام أواخر القرن الحادى عشر ليجدوها ميدانا لصراع حاد بين السلاجقة السنة والفاطميين الشيعة .

وثمة حقيقة هامة تواجه كل من يدرس تاريخ الحركة الصليبية فى الشرق الأدنى ، هى أن دور الدولة الفاطمية فى تلك الحركة لم يحظ حتى الآن بالقدر الكافى من عناية الباحثين . وفى رأينا أن مرجع هذه الحقيقة عدة أسباب . أولها : أن الحملة الصليبية الأولى وصلت الى الشرق الأدنى فى نهاية القرن الحادى عشر ، وقد أخذت الخلافة الفاطمية تدخل فعلا فى الدور الثانى من أدوار تاريخها ، وهو الدور المتسم بالضعف فى الداخل والخارج ، والذي سيطر فيه الوزراء العظام على شئون الخلافة . وهذا الدور بالذات يمثل صفحة قائمة لم تحظ كثيرا بعناية المؤرخين بقدر ما حظى به الدور الأول من تاريخ الدولة الفاطمية ، وهو الدور المتصف بالقوة والعظمة والثروة وامتداد النفوذ وسعة

(١) المقربرى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ١٨ - ٢٤

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٨

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٢٨ ،

ابن ميسر : اخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٢٨

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٨ - ٩٩ ،

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٨٧

السلطان . وعلى هذا فان اهمال العناية بجهود الفاطميين فى الحروب الصليبية ، انما هو فى حقيقة الأمر مظهر من مظاهر الاهمال العام الذى تعرض له تاريخهم فى دوره الأخير . وثانيها : أن الحروب الصليبية فى الشام ظلت أحداثها الكبرى الرئيسية ترتبط حتى سقوط الدولة الفاطمية بشمال الشام لا بجنوبه . وسبب ذلك أن المقاومة الأساسية التى صادفها الصليبيون فى الدور الأول من أدوار الحركة الصليبية جاءت من جانب السلاجقة فى شمال العراق والأتابكيات التابعة لنفوذهم فى الموصل وحلب ، الأمر الذى ألقى ظلا حجب وراءه النشاط الصليبي الذى نهضت به الدولة الفاطمية ، فضلا عن طمس دور الدولة الفاطمية فى مقاومة امتداد النفوذ الفاطمى فى ذلك الاتجاه . وثالثها : أن مصر فى العصر الفاطمى لم تصبح مسرحا أساسيا لنشاط الصليبيين فى القرن الثانى عشر للميلاد الا فى الأحداث التى ارتبطت بسقوط الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، الأمر الذى جعل الباحثين يعتبرون ذلك الدور من أدوار الحركة الصليبية أكثر ارتباطا بنشأة الدولة الأيوبية الوليدة منه بالدولة الفاطمية المتداعية .

هذه هى العوامل الأساسية التى نعتقد أنها حجبت عن أعين الباحثين الدور الهام الذى أسهمت به الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية . ولعله قد آن الأوان لكشف النقاب عن هذا الدور وعلاج موقف الخلافة الفاطمية من الحركة الصليبية علاجا متكاملا مترابطا منذ وصول الحملة الصليبية الأولى الى أطراف الشام فى أواخر القرن الحادى عشر ، حتى سقوط الخلافة نفسها سنة ١١٧١ .

ولفهم حقيقة هذا الدور ينبغى أن ندرك العوامل الخفية التى تحكمته فى نشاط الدولة الفاطمية تجاه الصليبيين ، ووجهت هذا النشاط ؛ وهى عوامل نستطيع أن نلخصها فيما يلى :

أولا : انشغال حكام مصر فى العصر الفاطمى الثانى بسوء الأوضاع الداخلية ، اذ بدت الدولة الفاطمية فى ذلك العصر وكأنها غرقت فى بحر لجمى من الفوضى بسبب الأزمات الاقتصادية وانتشار الأوبئة من ناحية ، والصدام بين المسلمين وطوائف المسيحيين الذين استعان بهم بعض الخلفاء من ناحية أخرى ؛ ثم بين الخلفاء الفاطميين ووزرائهم أو بين المتنافسين حول منصب الوزارة من ناحية ثالثة .

ثانياً : تحكم روح العداء بين الفاطميين فى مصر والسلاجقة بالشام - وخاصة حكام دمشق - ، وهو العداء الذى جعل الفاطميين الشيعة ينظرون دائماً الى سلاجقة الشام نظرة شك وريبة ، بل خوف وتحفز . واذا كان الفاطميون قد بذلوا جهوداً ضد الصليبيين بالشام ، فان الباحث فى تلك الجهود يلمس حقيقة هامة ، هى أن الفاطميين نظروا دائماً الى الصليبيين بعين ونظروا الى السلاجقة بالعين الأخرى . الأمر الذى لم يوفر للفاطميين شيئاً من قوة التركيز المادى والمعنوى فى مواجهتهم للصليبيين .

ثالثاً : أن الخلفاء الفاطميين أنفسهم لم يتحمسوا فى ذلك الدور لفكرة جهاد الصليبيين ، بل على العكس ربما رأى بعض أولئك الخلفاء فى الصليبيين درعاً يحميهم من خطر السلاجقة السنيين . واذا كانت حركة الافاقة واليقظة لجهاد الصليبيين قد تأججت أحياناً فى الدولة الفاطمية ، فان زعماء هذه الحركة كانوا من الوزراء وليس الخلفاء . ومن أمثلة وزراء الدولة الفاطمية الذين تزعموا هذه الحركة ، الأفضل ورضوان بن الوحشى وابن السلار .

رابعاً : اتصفت الأعمال الحربية التى قامت بها الدولة الفاطمية ضد الصليبيين فى ذلك الدور بسوء النظام والاهمال وعدم تقدير خطورة الموقف ، وهى النواحي التى ظهرت بوضوح فى الخلافات بين قادة الجيش الفاطمى ، فضلاً عن سلوك قادة الأسطول وحكام القواعد الفاطمية بالشام .

والواقع أن الخلافة الفاطمية لم تدرك طبيعة الحركة الصليبية عند وصول الحملة الصليبية الأولى الى أطراف بلاد الشام سنة ١٠٩٧ . وربما كان عدم فهم طبيعة هذه الحركة هو الذى جعل الدولة الفاطمية تتخبط فى سياستها تجاه الصليبيين فى أول الأمر ، بسبب عدم ادراكها حقيقة نواياهم . وكان صاحب السلطة الفعلية فى مصر عندئذ هو الوزير الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى ، الذى ظل يحكم البلاد طوال عهد الخليفة الفاطمى المستعلى (١٠٩٤ - ١١٠١) والعشرين سنة الأولى من عهد الخليفة الأمر ، أى حتى سنة ١١٢١ . ويبدو عدم ادراك الأفضل لحقيقة الحركة الصليبية فى أنه عندما سمع بأن الصليبيين الذين وصلوا الى الشام اشتبكوا مع الأتراك السلاجقة أعداء الدولة الفاطمية الألداء - فكر الأفضل فى أن يقيم تحالفاً بينه وبين الصليبيين ، بحيث تكون أنطاكية

للسليبيين وتكون بيت المقدس للفاطمين^(١) . وربما استند الوزير الأفضل في تفكيره هذا الى بعض السوابق التاريخية ، لأن الدولة البيزنطية أيام صحويتها في القرن العاشر لم تتعد أملاكها في بلاد الشام مدينة أنطاكية ، فظن الأفضل أن أولئك الصليبيين إنما أتوا في نهاية القرن الحادى عشر ليفعلوا في بلاد الشام مثلما فعل الامبراطور نقفور فوقاس والامبراطور حنا الشمشقيق في القرن العاشر^(٢) .

وكان أن أرسل الأفضل سفارة الى الصليبيين وصلتهم وهم أمام أنطاكية (يناير — فبراير ١٠٩٨) . ويبدو أن هذه السفارة كانت تحمل عرضا محددا ، خلاصته أن يتعاون الطرفان في القضاء على السلاجقة ، على أن تقسم الغنيمة بعد ذلك بينهما ، بحيث يكون القسم الشمالى من شمال الشام (سوريا) للصليبيين ، في حين يحتفظ الفاطميون بالقسم الجنوبى (فلسطين)^(٣) . ولعل أخبار هذا الاتصال السريع بين الفاطميين والصليبيين سنة ١٠٩٨ ، هى التى جعلت بعض المسلمين المعاصرين يظنون أن الخلافة الفاطمية هى التى أرسلت الى الصليبيين تستدعيهم الى الشام لمهاجمة السلاجقة ، أو يكونوا حاجزا فاصلا بين السلاجقة من ناحية والدولة الفاطمية من ناحية أخرى . ويعبر المؤرخ ابن الأثير عن ذلك بقوله : « وقيل ان أصحاب مصر من البلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام الى غزة ، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخول الاقيس (أتنز) الى مصر وحصرها ، خافوا ، فأرسلوا الى الفرنج يدعونهم الى الخروج الى الشام ليملكوها ويكونوا بينهم وبين المسلمين ! »^(٤) .

ومن ناحية أخرى ، فان هناك فى المراجع ما يشير الى أن الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين كان قد نصح الصليبيين عند مرورهم بالقسطنطينية فى طريقهم الى الشرق — (سنة ١٠٩٦ — ١٠٩٧) — بأن يحاولوا محالفة الفاطميين فى مصر ، ليكونوا لهم عضدا ضد السلاجقة فى الشام وشمال العراق . ومع أنه لا يوجد لدينا دليل يثبت استجابة الصليبيين لتلك النصيحة فى ذلك الوقت ،

(١) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 26.

(٢) Grousset : Hist. des Croisades, Tome I, p. 83.

(٣) Setton : A History of the Crusades, vol. 1, p. 316.

(٤) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٠ هـ . ويقصد ابن الأثير بالمسلمين فى ختام عبارته ، أهل السنة .

الا أن بعض المراجع الصليبية أشارت الى أنهم أرسلوا من نيقية سفارة الى مصر^(١) . ومهما يكن في هذه الإشارة من الواقع ، فالذى يهمنا هو أن الصليبيين لم ينسوا نصيحة الامبراطور البيزنطى ، مما جعلهم يرجعون بالسفارة التى أرسلها اليهم الأفضل فى أوائل سنة ١٠٩٨ وهم أمام أنطاكية^(٢) . ولعل هذه الأحداث كلها تعطينا فكرة واضحة عن مدى انقسام العالم الاسلامى على نفسه فى ذلك الدور ، بين سنة وشيعة ، وعرب وترك ؛ وما سببه هذا الانقسام من خسارة للمسلمين جميعا ، الأمر الذى مكن الدخلاء من تحقيق مكاسب كبيرة على حساب الجميع . وتصور لنا المصادر الصليبية المعاصرة هذا الانقسام بوضوح ، ومدى غبطة الفاطميين لما حل بالسلاجقة من كوارث على أيدي الصليبيين^(٣) .

والواقع أن الموقف السلبي الذى وقفته الخلافة الفاطمية من الحملة الصليبية الأولى عند وصولها الى شمال الشام ، أثار حيرة المؤرخين المسلمين ، فيعجب المؤرخ أبو المحاسن من موقف الفاطميين ، وعدم مشاركتهم القوى الاسلامية التى نهضت للدفاع عن أنطاكية ضد الصليبيين ، ويقول فى ذلك : « ولم ينهض الأفضل باخراج عساكر مصر ، وما أدري ما كان السبب فى عدم اخراجه مع قدرته على المال والرجال ... ! » . ثم يسترسل أبو المحاسن فيشرح كيف خرجت عساكر المسلمين فى العراق والشام لصد زحف الصليبيين « كل ذلك وعساكر مصر لم تنهيا للخروج ... »^(٤) على أن الاجابة على هذا التساؤل واضحة ، هى أنه اذا كان الأفضل قد قرر أن يعمل ، فإن القرار الذى اتخذه بالعمل كان موجها ضد السلاجقة لا ضد الصليبيين . فلا أقل من أن ينتهز الأفضل فرصة انشغال السلاجقة بالتيار الصليبي الذى دهم شمال الشام ليسترد البلاد والمراكز التى كانت فى وقت ما تحت سيطرة الخلافة الفاطمية . وعلى هذا الأساس اختار الوزير الأفضل أن يعمل فورا . وكان الأفضل قد استولى على مدينة صور « بالسيف » فى ربيع سنة ١٠٩٧ من الأراتقة ، ولكنه لم يحاول أن يهاجم بيت المقدس عندئذ ،

Runciman : Hist. of the Crusades, I, p. 230 & (١)

Michaud : Hist. des Croisades, I ; p. 362.

Riant : Inventaire des Lettres des Craisades, I, p. 162. (٢)

Guillaume de Tyr ; I, p.p. 191 - 192. (٣)

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٤٧ - ١٤٨

وترك ذلك للوقت المناسب^(١) . ولم يلبث أن حان ذلك الوقت المناسب في صيف سنة ١٠٩٨ — والصليبيون ما زالوا في منطقة أنطاكية — فخرج الأفضل على رأس جيوشه واستطاع أن يسترد بيت المقدس من سكمان (سقمان) الأرتقي ، وأخيه ايلغازي في أغسطس ١٠٩٨^(٢) . وبذلك عادت سيادة الدولة الفاطمية مرة أخرى على فلسطين ، بحيث لم تكد تنتهي سنة ١٠٩٨ ، الا وكانت حدود تلك الدولة قد امتدت الى نهر الكلب شمالا ومجرى الأردن شرقا^(٣) .

وقد صح حساب الأفضل في أول الأمر ، لأن الأتراك كانوا مشغولين بالغزو الصليبي واقامة جبهة في الشمال ضد الفرنجة الغزاة ، فلم يتمكنوا من ارسال نجدة لأقربائهم في بيت المقدس ترد عادية الفاطميين . وفي الوقت نفسه استفاد الصليبيون فائدة كبرى من تلك الخطوة التي اتخذها الفاطميون ، لأن تهديد الأفضل لفلسطين وبيت المقدس سبب ارتباكاً للأتراك السلاجقة في أشد الأوقات حرجاً^(٤) . هذا فضلا عن أن السفارة التي أرسلها الفاطميون الى الصليبيين عند أنطاكية ، أكسبت أولئك الآخرين وضعاً سياسياً معترفاً به في ركن هام من أركان العالم الاسلامي . وهكذا أخذ الصليبيون يلعبون دورهم في مهارة فائقة ، فلم يكتفوا ببيت شعور الطمأنينة في نفوس الفاطميين ، واعطائهم صورة غير حقيقية عن مشروعاتهم في بلاد الشام ، وانما حاولوا أيضاً أن يسدلوا غشاوة على أبصار سلاجقة دمشق ، فأرسلوا اليهم يطمأنونهم الى أنهم لا يطمعون الا في استرداد الأماكن والبلدان التي كانت تابعة للبيزنطيين فيما مضى ، أى الرها وأنطاكية واللاذقية !!^(٥) .

على أن الحقيقة لم تلبث أن تكشفت ، ورأى الفاطميون أن الغزاة الصليبيين لم يقفوا عند حد الاستيلاء على أنطاكية وغيرها من المراكز في شمال الشام ، وانما أخذوا يوغلون في جنوب الشام صوب فلسطين ، وعندئذ أرسل الفاطميون الى الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين يسألونه عما اذا كانت تلك الحركة

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ، حوادث سنة ٤٩٠

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ ،

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥

(٣) Setton : op. cit. ; I ; p. 316.

(٤) Grousset : op. cit., I ; p.p. 84-85.

(٥) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩١ هـ .

تعمل لحسابه ، فأنكر الامبراطور علاقته بها^(١) . وعندما أدرك الأفضل أن بيت المقدس هو الهدف الأساسي للصليبيين ، أرسل اليهم سفارة وصلتهم قرب طرابلس ، تحمل الهدايا النفيسة والأموال الضخمة لكل واحد من زعماء الصليبيين ، كما تحمل لهم عرضا من الخليفة الفاطمي ، خلاصته السماح لحجاج الصليبيين بالحج وزيارة كنيسة القيامة في بيت المقدس ، على شكل مجموعات من مائتي أو ثلاثمائة حاج ، بشرط ألا يكونوا مسلحين^(٢) . ولكن الصليبيين ردوا على السفارة الفاطمية بأنهم سيتمكنون من الحج فعلا ، ولكن باذن الله وليس باذن الخليفة الفاطمي^(٣) !! وكان معنى ذلك بداية الصدام المسلح بين الفاطميين والصليبيين من أجل بيت المقدس .

وهنا نلاحظ أنه اذا كان الفاطميون قد بسطوا سيادتهم على فلسطين وساحل الشام جنوبى نهر الكلب ، الا أنهم - فيما يبدو - لم يتركوا قوات كافية لتدعيم نفوذهم والمحافظة على مكاسبهم في تلك الجهات ، وذلك باستثناء حامية بيت المقدس من ناحية وبعض المراكز الساحلية التى ظل الأسطول الفاطمي قادرا على امدادها بالرجال والزاد من ناحية أخرى^(٤) . وكانت هذه المراكز الأخيرة أول ما تعرض لهجوم الصليبيين بحكم مرورهم بها بعد أن غادروا طرابلس في طريقهم الى بيت المقدس . وعندما وصل الصليبيون الى الرملة ، وجدوها خالية ، بعد أن هجرها أهلها ، فعقدوا فيها مجلسا للحرب في أوائل سنة ١٠٩٩ ، ناقشوا فيه عدة مسائل ، أهمها الرأى القائل بأن يبدأ الصليبيون بمهاجمة الفاطميين في مصر ، على أساس أن مفاتيح بيت المقدس موجودة فعلا في القاهرة ، وأنه اذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة مستقرة في بيت المقدس ، فعليهم أن يؤمنوا ظهرهم بالاستيلاء على الدلتا^(٥) . ولكن اذا كان الصليبيون قد استطاعوا أن يضعوا هذه الفكرة موضع التنفيذ في القرنين الثاني عشر والثالث

(١) Runciman : op. cit. ; I, p. 272.

ويلاحظ أن سوء التفاهم بين الامبراطورية البيزنطية والصليبيين تحول الى عداء بعد استيلاء الصليبيين على أنطاكية ، مما جعل الامبراطور البيزنطي يحرض المسلمين أحيانا ضد الصليبيين .

(٢) Michaud : op. cit., I, p.p. 362-363

(٣) Guillaume de Tyr ; I, p.p. 305-306.

(٤) Runciman : op. cit. I, p. 275.

(٥) Raymond d'Agiles, p. 299.

عشر ، فانهم كانوا في أواخر القرن الحادى عشر — وقبل الاستيلاء على مدينة بيت المقدس بالذات — في موقف لا يمكنهم من الاقدام على غزو مصر .

ولم يلبث أن زحف الصليبيون على بيت المقدس ، في الوقت الذى كان حاكم المدينة من قبل الوزير الأفضل — وهو افتخار الدولة ^(١) — قد اتخذ كافة الاستعدادات لمواجهة الصليبيين ، فسمم الآبار وقطع موارد الماء وأخفى المواشى ^(٢) ، فضلا عن اهتمامه بتقوية التحصينات والتأكد من سلامة الأسوار ، معتمدا في الدفاع عن بيت المقدس على حامية كبيرة من الجند المصريين والسودان ^(٣) . ومع ذلك فقد سقطت بيت المقدس في أيدي الصليبيين في منتصف يوليو ١٠٩٩ ، وكان افتخار الدولة — حاكم المدينة الفاطمى — من جملة القلائل الذين « بذل لهم الفرنج الأمان » وسمحوا لهم بالخروج الى عسقلان ^(٤) .

والواقع ان الخلافة الفاطمية لم تتخاذل أمام الصليبيين عندما علمت بنواياهم للهجوم على بيت المقدس . وكان أن جمع الوزير الأفضل رجاله وخرج من مصر ليحول دون استيلاء الصليبيين على أولى القبلتين وثانى الحرمين ، ولكنه وصل عسقلان في أوائل أغسطس « وقد فات الأمر » ؛ أى بعد أن استولى عليه الصليبيون بعشرين يوما ^(٥) . وهكذا أصيب الأفضل بخيبة أمل كبيرة بعد أن كان يعتقد في وقت ما أن الصليبيين سيقنعون بالاستيلاء على شمال الشام ، ويحرصون على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفائهم الطبيعيين ضد الأتراك السلاجقة . ولم يسع الأفضل عند وصوله الى عسقلان سوى أن يرسل « رسولا الى الفرنج يوبخهم على ما فعلوه !! » ^(٦) .

ويبدو أن الوزير الأفضل لم يكن قديرا في ميدان الحرب بقدر ما هو معروف عنه من مهارة في ميادين السياسة والادارة ، اذ يروى صاحب مرآة الزمان أنه بعد وصوله الى عسقلان أضع وقتا ثمينا « ينتظر الأسطول في البحر

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٤٩٢ هـ ، ابو المحاسن : النجوم ، ج ٥

ص ١٤٨

(٢) Gesta Francorum, p. 199 & Raymond d'Agiles, p.p. 293 - 294.

(٣) Foucher de Chartres (Hist. Occid, III) p. 359.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧

(٦) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٤٣٦ . (Rec. Hist. Orient. III)

والعرب^(١) . وفي الوقت الذي كان الأفضل منتظرا في عسقلان ، اكتشف الصليبيون أمره ، فبادروا بالهجوم لأنه خير وسائل الدفاع^(٢) . وما كاد يجتمع شمل القوى الصليبية قرب الرملة في عاشر أغسطس ، حتى أخذوا يزحفون جنوبا في اتجاه عسقلان حيث باغتوا القوات الفاطمية ، على قول ابن الأثير^(٣) . وفي المعركة التي دارت بين الطرفين في ١٢ أغسطس سنة ١٠٩٩ حلت الهزيمة بالفاطميين ، وتشتت شملهم بعد قليل ، حتى أن بعضهم لم يجد مفرا سوى البحر فألقوا بأنفسهم في اليم حيث غرقوا ، في حين احتفى البعض الآخر « بشجر الجميز ، وكان هناك كثيرا ، فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من كان فيه » . أما الوزير الأفضل فقد هرب الى عسقلان ومعه بعض رجاله ، ومنها ركبوا سفينة في البحر قاصدين مصر^(٤) .

ومن الواضح أن النصر المعنوي والأدبي الذي حققه الصليبيون في عسقلان فاق بكثير الغنائم المادية التي غنموها^(٥) . ذلك أن انتصارهم في عسقلان قضى على هبة الفاطميين في الشام ، فقبعوا في مصر يشاهدون مدن فلسطين وهي تتساقط واحدة بعد أخرى في قبضة الغزاة^(٦) . وأكبر مثل على استكانة الفاطميين في ذلك الدور موقفهم في الدفاع عن أرسوف . ذلك أن الأمير جودفري دى بوايون أخذ يشن من الرملة غارات عدوانية على ضواحي أرسوف لاجبار أهلها على الاستسلام . وقد استطاع الصليبيون أن يظفروا في فبراير سنة ١١٠٠ ببعض أهالي أرسوف الذين خرجوا لمباشرة نشاطهم السلمى في مزارعهم القريبة ، فاتقم الصليبيون من أسرى المسلمين انتقاما وحشيا بأن قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم^(٧) . ولما كانت أرسوف تابعة للدولة الفاطمية فإن أهلها أرسلوا سفارة عاجلة الى الوزير الأفضل لطلب المعونة ، وعندئذ اكتفى الأفضل بأن بعث اليهم قوة صغيرة من ثلثمائة جندي . ولم تلبث هذه القوة الفاطمية أن وقعت في كمين

(١) ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ص ٥٢٠ . (Rec. Hist. Orient. III)

(٢) Stevenson : op. cit., p. 35.

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ ، ابن ميسر : تاريخ مصر

ص ٦٤

(٥) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 297.

(٦) Grousset : op. cit. I, p. 175.

(٧) Idem ; p. 182.

نصبه الصليبيون في مارس سنة ١١٠٠ ، مما جعل أهل أرسوف يؤمنون بعدم جدوى الحماية الفاطمية ، فدخلوا في تبعية الصليبيين^(١) . كذلك تأكد حكام عسقلان وقيساريه وعكا من عجز الدولة الفاطمية عن حمايتهم ، فأعلنوا تبعيتهم للصليبيين ، وتعهدوا بدفع جزية كبيرة لهم رمزا لهذه التبعية^(٢) . وفي عام ١١٠١ استولى بلدوين الأول ملك مملكة بيت المقدس على أرسوف ثم على قيسارية^(٣) .

على أن استكانة الفاطميين ، والجمود الذي اتقاهم عقب سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين لم يستمر طويلا ، فقام الوزير الأفضل بارسال ثلاث حملات كبيرة الى فلسطين سنة ١١٠١ وسنة ١١٠٢ وسنة ١١٠٥ . أما الحملة الفاطمية الأولى سنة ١١٠١ فكانت بقيادة المملوك سعد الدولة القواس . وقد تجمعت هذه الحملة في عسقلان التي صارت بمثابة مركز انطلاق لجميع الحملات التي خرجت من مصر ضد الصليبيين في تلك المرحلة . على أن تلك الحملة أضاعت كثيرا من الوقت في عسقلان ، ففضى الجيش الفاطمي عدة أشهر بلا عمل ، ربما في انتظار امدادات جديدة تأتيه من مصر ، مما أتاح فرصة كافية لبلدوين استعداد فيها وجمع قواته ووضع خطته^(٤) . وأخيرا تحركت الجيوش الفاطمية في أوائل سبتمبر بعد أن وصلتها الامدادات المطلوبة ، فاتجهت الى منطقة الرملة حيث تستطيع تهديد كل من يافا وبيت المقدس . وفي الموقعة التي دارت بين الفاطميين والصليبيين في السهل الواقع الى الجنوب الغربي من مدينة الرملة ، انتصر الصليبيون بفضل تماسكهم ووحدتهم صفهم واحكام خطتهم ، وقتل من المسلمين عدد كبير من بينهم قائد الحملة الفاطمية سعد الدولة القواس ، في حين فر بقية الجيش الفاطمي مندحرا الى عسقلان^(٥) .

ولم يستطع الوزير الأفضل صبرا على الهزيمة التي حلت بجيوشه على أيدي الصليبيين ، فأسرع الى اعداد حملة أخرى كبيرة من العرب والسودان ،

(١) Albert d'Aix, p.p. 513 - 514.

(٢) Idem ; p. 515.

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٩ ، أبو المحاسن : النجوم ،

ج ٥ ص ١٦٧

(٤) Stevenson : op. cit. p.p. 44 - 45.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٦ هـ ، Albert d'Aix, p. 553.

واجتمعت هذه الحملة التي بلغت عشرين ألف رجل في عسقلان في منتصف مايو ١١٠٢ تحت قيادة شرف المعالي ابن الوزير الأفضل^(١) . وقد اتبعت هذه الحملة نفس الطريق الذي سلكته الحملة السابقة ، فاتجه الجيش الفاطمي من عسقلان الى الرملة واللد ويازور ، ومن هناك اتجهوا من جديد لتهديد يافا وبيت المقدس . وكان الملك بلدوين الأول قد اتخذ اهبتة ، فحشد في يافا بضعة آلاف من الصليبيين ، ولكن يبدو أنه اغتر باتتصاره السابق ، واستخف بأمر الفاطميين ، فخرج من بيت المقدس في ١٧ مايو في قلة من الفرسان تبلغ مائتي فارس ، قاصدا الرملة^(٢) . وكان بلدوين يسير على رأس رجاله في غير نظام فيما بين يازور والرملة ، عندما تعرضوا لهجوم مباغت من جانب المسلمين . وربما ظن المسلمون أن تلك الشزيمة من الصليبيين ليست الا مقدمة لجيش صليبي كبير آت في أعقاب الملك ، فاختاروا أن يباغتوا الملك ورجاله فورا قبل أن يلحق به بقية جيشه . ولم يكن في استطاعة بلدوين وفرسانه الثبات أمام الجموع الاسلامية « فانهزم الفرنج وقتل منهم مقتله عظيمة »^(٣) . وفر بعضهم الى يافا ، في حين لجأت البقية الباقية — ومن ضمنهم الملك بلدوين نفسه — الى الرملة^(٤) . على أن الرملة كانت مدينة صغيرة ضعيفة التحصين . ولو أسرع الفاطميون لاستولوا عليها ودخلوها في غير عناء ليقبضوا على غريمهم ملك بيت المقدس الصليبي ، ولكن غروب الشمس وانتشار الظلام جعلهم يؤجلون ذلك حتى الصباح التالي^(٥) . على أن بلدوين استطاع الفرار من الرملة ليلا ، وبذلك أفلت من قبضة الفاطميين الذين أخذوا يطاردونه في سرعة ، بعد أن استولوا على الرملة وأسررو وقتلوا من فيها من الصليبيين^(٦) . ولم تلبث أن حاصرت الجيوش الفاطمية يافا ، في الوقت الذي كانت مطاردة بلدوين تجري على قدم وساق . وعندما سمع بلدوين — وهو في طريقه الى يافا — خبر تعرض يافا لحصار المسلمين ، اتجه نحو أرسوف — شمالي يافا — في ١٩ مايو سنة ١١٠٢^(٧) .

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(٢) Grousset : op. cit. ; I, p. 230.

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(٤) Albert d'Aix, p. 593.

(٥) Setton : op. cit. vol. I ; p. 365.

(٦) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ & Foucher de Chartres ; p. 402

(٧) Albert d'Aix, p. 595.

وسرعان ما بدأت عملية تجميع الجيوش الصليبية لمواجهة الفاطميين ، في حين استطاع بلدوين أن يدخل يافا عن طريق البحر ، ولحقت به كثير من الامدادات الصليبية^(١) . وشاءت الصدفة أن تصل الى ميناء يافا في أواخر شهر مايو مائتي سفينة ، تحمل عددا كبيرا من الجند والحجاج الانجليز ، وشقت هذه السفن طريقها الى الميناء مختربة حصار الأسطول الفاطمي ، وبذلك حصل بلدوين في يافا على ما كان يلزمه من معونة عاجلة . وفي ٢٧ مايو سنة ١١٠٢ خرج بلدوين من يافا على رأس قواته لمهاجمة القوات الفاطمية المحاصرة للمدينة ؛ وما هي الا بضعة ساعات حتى نجح الصليبيون - بفضل تنظيمهم - في انزال الهزيمة بالجموع الفاطمية التي ولت الأدبار نحو عسقلان^(٢) .

ويروى ابن الأثير أنه عندما سمع الوزير الأفضل بهزيمة ابنه شرف المعالي أسرع بارسال حملتين ، احدهما برية تألفت من أربعة آلاف فارس تحت قيادة الملوك تاج العجم ، والأخرى بحرية برئاسة القاضي ابن قادوس^(٣) . ولكن الشيء الذي كان يفتقده الفاطميون عندئذ لم يكن كثرة الرجال وانما روح النظام والتعاون واحكام الخطط الحربية ؛ اذ رفض تاج العجم معاونة ابن قادوس ، وقال له : « ما يمكنني أن أنزل اليك الا بأمر الأفضل . ولم يحضر عنده ولا أعانه . فأرسل القادوس الى قاضي عسقلان وشهودها وأعيانها وأخذ خطوطهم بأنه أقام على يافا عشرين يوما ، واستدعى تاج العجم فلم يأت ، ولا أرسل رجلا »^(٤) . وهكذا آثرت الجيوش الفاطمية عقب هزيمتها أمام يافا الانسحاب ، وخاصة بعد أن وصلت الى الصليبيين نجدات قوية . وفي وسط تلك المحنة ، طلب الأفضل من شمس الملوك دقاق صاحب دمشق المساعدة ضد الصليبيين ، ولكن دقاق « اعتذر عن ذلك ولم يحضر »^(٥) . وفي هذا ما يعطينا فكرة عن مدى ما كان بين حكام دمشق وحكام مصر عندئذ بسبب الخلاف المذهبي .

(١) Michaud : op. cit: II, p. 30.

(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

(٣) Foucher de Chartres, p.p. 404-405 & Guillaume de Tyr, p. 435.

(٤) المرجع السابق .

(٥) ابن ميسر : تاريخ مصر ، حوادث ٤٩٦ هـ . (Rec. Hist. Or. p. 464)

ولا شك في أن هذه الاشتباكات كشفت للصليبيين عن حقيقة أمر الدولة الفاطمية ومدى انحلالها في ذلك الوقت ، الأمر الذي جعل الصليبيين يطمعون في الاستيلاء على بقية موانئ فلسطين العربية — مثل عسقلان وعكا وصور وصيدا ويبروت — وكلها كانت تابعة للفاطمين^(١) . حقيقة أن سيطرة الفاطميين على هذه الموانئ صارت شكلية ؛ ولكن من يدري ، فربما صارت سيطرتهم فعلية في المستقبل القريب ، وعندئذ يمكن أن يستغلها الفاطميون في طعن مملكة بيت المقدس في الصميم عن طريق قطع الشريان الذي يربطها بالغرب الأوربي . ومثال ذلك ما حدث في شتاء سنة ١١٠٢ عندما جنحت على شاطئ الشام بعض سفن تحمل حجاجا عائدين الى الغرب الأوربي ، فأسرت السلطات الفاطمية في صيدا وعكا وعسقلان من بها من حجاج ، وبيع معظمهم في أسواق الرقيق بالقاهرة^(٢) ، لذلك شرع الملك بلدوين الأول يحاصر عكا في ربيع سنة ١١٠٣ « وضيق عليها وكاد يأخذها » . ولكن عكا — كما هو معروف عنها في جميع عصور التاريخ — من أحصن موانئ الشام . ولم تلبث أن وصلت « النجيدات من سائر السواحل » ؛ وجاءت اليها السفن الفاطمية من صور وصيدا ، الأمر الذي جعل الملك بلدوين يرفع الحصار عن عكا لافتقاره الى القوة البحرية . وفي ربيع سنة ١١٠٤ وصلت الى الشام عمارة جنوية تتألف من عدد كبير من السفن ، فاستعان بها الملك بلدوين في مهاجمة عكا في أواخر مايو سنة ١١٠٤ . وقد دافع عن عكا حاكمها الفاطمي — زهر الدولة الجيوشي^(٣) — الذي تقول عنه المراجع أنه « قاتل حتى عجز » . ولكنه لم يقو على مقاومة الحصار المحكم الذي فرضه الصليبيون على عكا من ناحيتي البر والبحر ، فاضطر الى التسليم « وملك الفرنج البلد بالسيف قهرا »^(٤) .

وبسقوط عكا حرم الأسطول الفاطمي من أهم قواعده بالشام ، وصارت للصليبيين السيادة على شواطئ فلسطين . ولا شك في أن خسارة المسلمين كانت فادحة بضيايع عكا . ويبدو ذلك فيما أظهره المؤرخون المسلمون من أسف

(١) Grousset : op. cit. I, p. 239.

(٢) Albert d'Aix ; p.p. 600 - 601.

(٣) اسمه بنا ، ويلقب بالجيوشي نسبة الى ملك الجيوش الافضل .

(٤) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٧ هـ ؛ قارن رواية ابن الأثير بما

ذكره أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٨٨

غميق لعجز الفاطميين عن حماية موانئ الشام التي أخذت تتساقط واحدة بعد أخرى في أيدي الصليبيين . من ذلك ما يقوله أبو المحاسن عن الخليفة الأمر الفاطمي أنه كان « يتناهى في العظمة ويتقاعد عن الجهاد ... وكان فيه تهاون في أمر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها في أيامه ... ولم ينهض لقتال الفرنج البتة ؛ وإن كان أرسل مع الأسطول عسكر فهو كلاً شيء^(١) » .

أما عن الوزير الأفضل فيبدو أنه لم يتخل عن فكرة إرسال حملة كبيرة من مصر لطرد الصليبيين من الشام . وكان أن قام بمحاولة أخيرة في هذا الصدد ، فجمع في صيف سنة ١١٠٥ بعسقلان جيشا كبيرا بلغ خمسة آلاف جندي من المصريين والسودان فضلا عن الفرسان العرب ؛ ووضع ذلك الجيش تحت إمرة أحد أبنائه وهو سناء الملك حسين^(٢) . وفي الوقت نفسه استعد الأسطول الفاطمي لمساندة الجيش من ناحية البحر . ولم يتردد الوزير الأفضل في طلب المساعدة من سلاجقة دمشق السنيين ، على الرغم من الخصومة المذهبية بينهم وبين الفاطميين الشيعة ، فعرض على طغتكين - الذي آلت إليه السلطة في دمشق بعد وفاة دقاق بن تاج الدين تنش في صيف ١١٠٤ - أن يساعده في قتال العدو المشترك . وفعلا استجاب طغتكين لنداء الفاطميين ، فأرسل إليهم أحد رجاله - واسمه أصبهب صباوا - ومعه ألف وثلاثمائة فارس . وربما كانت هذه أول محاولة عملية يشترك فيها المسلمون في مصر والشام ضد الصليبيين^(٣) .

ولكن حدث في المعركة التي دارت بين الصليبيين والمسلمين في أواخر أغسطس سنة ١١٠٥ أن أظهر الصليبيون تفوقهم مرة أخرى ، فانهت المعركة بتزيق القوات الفاطمية شر ممزق وفرار الدماشقة الذين أرسلهم طغتكين . أما الأسطول الفاطمي فقد قفل راجعا الى صور وصيدا وطرابلس ، ولكنه تعرض بعد ذلك - أثناء عودته الى مصر - لعاصفة هوجاء قذفت نحو عشرين سفينة من سفنه على الموانئ الصليبية ، فأسرها الصليبيون^(٤) .

(١) أبو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ، ص ١٧٨

(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٨ هـ .

(٣) المرجع السابق ؛ حوادث سنة ٤٩٩ هـ .

(٤) Foucher de Chartres ; p. 414.

والواقع ان حملة الفاطميين سنة ١١٠٥ كانت آخر محاولة كبرى قاموا بها ضد الصليبيين في ذلك الدور . هذا وان ظل الفاطميون يهددون الصليبيين بين حين وآخر ، ولكن في نطاق محدود . وكانت الهجمات الفاطمية تنبعث دائما من مدينة عسقلان ، ومن هذا المركز أغارت القوات الفاطمية سنة ١١٠٦ على قافلة من الحجاج الصليبيين بين يافا وأرسوف ، كما أغارت سنة ١١٠٧ على الخليل . بل ان الفاطميين وصلوا سنة ١١١٠ الى أسوار بيت المقدس ذاتها^(١) .

وفي تلك الأثناء لم يتخل بلدوين ملك بيت المقدس عن فكرة الاستيلاء على بقية المدن الساحلية التي ما زالت بأيدي الفاطميين ، وهي عسقلان في الجنوب وصورا وصيدا وبيروت في الشمال . وقد بدأ بلدوين بمهاجمة صيدا سنة ١١٠٦ ، ثم انصرف عنها بعد قليل عندما تعهد له حاكمها بدفع مبلغ كبير من المال^(٢) . ولم تكد تمض سنتان حتى وصل الى شاطئ فلسطين في أغسطس سنة ١١٠٨ - عدد كبير من السفن الوافدة من ايطاليا ، فأراد بلدوين الأول أن يستغل تلك القوة في الاستيلاء على صيدا من الفاطميين ، وشرع فعلا في حصارها برا وبحرا . ولكن الأسطول الفاطمي أسرع الى مياه صيدا ، واستطاع أن ينزل الهزيمة بالسفن الايطالية^(٣) . وكان ذلك في الوقت الذي طلب حاكم صيدا من طغتكين امداده بقوة برية تساعده على دفع الصليبيين مقابل تعهده بدفع مبلغ كبير من المال ، فلبى طغتكين النداء ، وأرسل له نجدة كبيرة قدرها المؤرخون بخمسة عشر ألف مقاتل ، وعندئذ انسحب بلدوين الى عكا . ولم يكد بلدوين يسحب قواته حتى امتنع أهل صيدا عن دفع المبلغ الذي تعهدوا بدفعه لحاكم دمشق ، بل لقد رفضوا أن يسمحوا للدماشقة بدخول المدينة خوفا من أن تكون هناك مؤامرة من جانب طغتكين للاستيلاء على صيدا . وعندئذ هدد سلاجقة دمشق باستدعاء بلدوين لمهاجمة صيدا ، فرضخ صاحبها ، ودفع مبلغا يقرب من ثلث الثمن المتفق عليه^(٤) .

وفي تلك الأثناء شاعت الظروف أن تلعب الدولة الفاطمية دورا في تاريخ مدينة طرابلس ، وان كانت الأحداث قد أثبتت أن الفاطميين كانوا أضعف من

(١) Runciman : op. cit., II ; p.p. 90-91.

(٢) Albert d'Aix, p.p. 632-634.

(٣) Grousset : op. cit. ; I, p. 253.

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٢ & ٦٥٥-٦٥٤ Albert d'Aix ;

النهوض بمهمة الجهاد وحماية مصالح المسلمين في فلسطين . ذلك أنه عندما اشتد حصار الصليبيين على طرابلس اضطر صاحبها فخر الملك بن عمار الى السفر في ربيع سنة ١١٠٨ الى بغداد لطلب النجدة من الخليفة العباسي وسلطان السلاجقة^(١) . ولكن أهل طرابلس -عندما ضاق بهم الحال في غياب ابن عمار- أرسلوا الى الوزير الأفضل الجمالي بالقاهرة يطلبون حماية الدولة الفاطمية لهم ، ويعرضون عليه تسليم المدينة له ، ليتولى الفاطميون الدفاع عنها . وكان أن استجاب الأفضل لتلك الدعوة ، فأرسل اليهم شرف الدولة ابن أبي الطيب واليا سنة ١١٠٨ « ومعه الغلة وغيرها مما يحتاجون اليه أهل البلاد في الحصار . فلما سار فيها قبض على جماعة من أهل ابن عمار وأصحابه ، وأخذ ما وجده من آلاته وذخائره وغير ذلك ، وحمل الجميع الى مصر في البحر » . وبذلك خرجت طرابلس من قبضة بني عمار وعادت الى الفاطميين مرة أخرى^(٢) .

ولكن الفاطميين كانوا في حقيقة الأمر أضعف من أن يستطيعوا الدفاع عن طرابلس ، وخاصة بعد أن أتت امدادات برية وبحرية من الغرب مكنت الصليبيين من احكام حصارهم عليها . ولو كانت الحكومة الفاطمية قد اتخذت عندئذ اجراء سريعا لتموين طرابلس وتزويدها بالرجال والسلاح ، لأمكن للمدينة أن تقاوم ؛ ولكن الأسطول الذي أعدته القاهرة لنجدة طرابلس ظل منتظرا في موانئ الدلتا بسبب الخلاف بين قادته ، فلما أزمع الحركة صادفته رياح مضادة عرقلت سيره . وفي تلك الأثناء ساءت أحوال أهل طرابلس « وسقط في أيديهم ، وذلت نفوسهم ، وزادهم ضعفا تأخر الأسطول المصري عليهم بالنجدة والميرة »^(٣) . وأخيرا أبحرت العمارة الفاطمية قاصدة طرابلس بعد فوات الأوان ؛ ولم تكد تصل الى مياه طرابلس ذاتها « حتى وجدوا البلد قد أخذت ، فعادوا كما هم !! »^(٤) وهنا يقف المؤرخ أبو المحاسن وقفة قصيرة ليلقى على الفاطميين تبعة سقوط طرابلس ، ويلومهم لعدم اكترائهم بمحاربة الصليبيين ؛ ثم يحدد مظاهر عدم الاكتراث بالدفاع عن طرابلس بثلاثة أمور : أولها : تقاعدهم عن المسير تلك المدة الطويلة . وثانيها : ضعف العسكر الذي أرسلوه مع أسطول

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٥

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (p. 536)

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

(٤) المرجع السابق .

مصر ، ولو كان لعسكر الأسطول قوة ، لدفع الفرنج من البحر عن البلد . وثالثها : عدم خروج الوزير الأفضل بنفسه على رأس العساكر المصرية . « هذا مع قوتهم (الفاطميين) في العساكر والأموال والأسلحة » ^(١) . ومهما يكن من أمر ، فإن الصليبيين دخلوا طرابلس في ١٢ يوليو سنة ١١٠٩ ، وسمحوا للقائد الفاطمي بالخروج سالما مع فريق من رجاله ^(٢) .

وزاد من وقع سقوط طرابلس ، أن بلدوين الأول أخذ يهاجم بيروت سنة ١١١٠ . وقد استمر حصار بيروت بضعة أشهر ، حاول الفاطميون خلالها إرسال نجدات إليها عن طريق البحر ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل . وعندما يس صاحب بيروت من وصول مساعدات إليه ، فر في سفينة ليلا إلى جزيرة قبرص ، وعندئذ اضطر أهل بيروت إلى الاستسلام للصليبيين الذين أحدثوا مذبحة رهية بين المسلمين داخل بيروت ^(٣) . وبعد قليل وصلت إلى عكا قوة من الصليبيين النرويجيين ، فاستغل بلدوين تلك القوة في القيام بمحاولة جديدة للاستيلاء على صيدا . وعندما اشتد حصار الصليبيين على صيدا من ناحيتي البر والبحر ، أدرك قاضيها وشيوخها أنه لا أمل في النجاة إلا بالتسليم ، فسلموا المدينة للملك بلدوين في ديسمبر سنة ١١١٠ ^(٤) .

ولم تلبث مدينة عسقلان هي الأخرى — وهي القاعدة الحربية الرئيسية للفاطميين في فلسطين — أن أوشكت أن تدخل تحت حماية الصليبيين . ذلك أن حاكم عسقلان — شمس الخلافة — أرسل إلى بلدوين الأول « مالا وعروضا » طالبا عقد اتفاقية دفاعية بين الطرفين ، مع استعداده لدفع الجزية للصليبيين ^(٥) . وكان أن انزعج الوزير الأفضل لتلك الأخبار ، لأن عسقلان بالذات كانت بالنسبة للدولة الفاطمية مفتاح فلسطين وبالنسبة للصليبيين مفتاح مصر ، لذلك أرسل الأفضل حملة تحت ستار محاربة الصليبيين ، وأعطى تعليمات سرية لقائد الحملة بعزل شمس الخلافة ويتولى هو حكم المدينة بدله ^(٦) . على أن شمس الخلافة

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٧٩

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٧ — ١٦٨

Foucher de Charters, p. 421.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ . & Guillaume de Tyr, p. 478.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٤ هـ .

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٢ . & Albert d'Aix, p.p. 679—680.

أوجس خيفة من تلك الحملة ، فرفض أن يفتح لها أبواب عسقلان ، كما رفض أن يخرج لمقابلة قائد الحملة ، فعادت أدراجها الى القاهرة . ويروى ابن الأثير أن شمس الخلافة أخذ يتشكك فيمن حوله من العرب « فأحضر جماعة من الأرمن واتخذهم جندا » ، الأمر الذى أساء الى شعور أهل عسقلان ، فثاروا على شمس الخلافة وقتلوه ونهبوا داره سنة ١١١١ ؛ وفي الحال أرسلت القاهرة حامية قوية أعادت الأمور الى نصابها في عسقلان^(١) . وعندما سمع الملك بلدوين بخبر تلك الثورة ضد شمس الخلافة ، أسرع الى عسقلان ، ولكنه وصلها وقد انتهى كل شيء ، فعاد بخفي حنين « وبذلك قدر لعسقلان أن تظل أربعين سنة أخرى شوكة في حلق الصليبيين »^(٢) .

أما مدينة صور ، فكانت — مثل عسقلان — من المدن التى استعصت على بلدوين الأول لأنها اعتمدت دائما على الخلافة الفاطمية وتلقت منها الامدادات . ولكن أهل صور لم يلبثوا أن أحسوا بحرج موقفهم أمام الاغارات الصليبية المتكررة من ناحية ، وعجز الدولة الفاطمية عن مساعدتهم في كثير من الحالات من ناحية أخرى ؛ ولذلك اتجهوا نحو طغتكين أتاكبك دمشق طالبين حمايته بوصفه اكبر قوة اسلامية قريبة منهم . ويشير ابن القلانسي الى أن الوزير الأفضل الفاطمي كان مشغولا عندئذ بوباء خطير ألم بمصر^(٣) . وكان أن استجاب طغتكين الى ما طلبوا ، فأمد أهل صور ببضع مئتين من الدماشقة وعين عليهم واليا — اسمه مسعود — وفرق عليهم المؤن والأموال « فطابت نفوس أهل البلد »^(٤) .

ويبدو أن الحصار الذى فرضه بلدوين الأول على صور في نوفمبر ١١١١ لم يكن تاما لعدم وجود أسطول صيلبي قوى يجلس المدينة من ناحية البحر ، مثلما كان الحال في حصار بيروت وصيدا . حقيقة ان بعض السفن البيزنطية وصلت أمام صور ، ولكن هذه السفن كانت على درجة من القلة والضعف حالت دون قيامها بعمل حاسم . وفي نفس الوقت لم يتقاعس الوزير الأفضل الفاطمي في شحن صور بالذخيرة والميرة ، مما مكن أهلها من الثبات داخلها ، في الوقت الذى

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٤ هـ .

(٢) Runciman : op. cit., II, p. 95.

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨١

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

كان طغتكين يساعدهم خارجها^(١) . وهكذا اضطر بلدوين الأول الى رفع الحصار والعودة من حيث أتى في ابريل سنة ١١١٢ . ولما طلب أهل صور من طغتكين الاشتراك في حكمهم وحمايتهم ، ذهب اليهم وتسلم البلد ، وقال لهم « أنا ما فعلت ما فعلت الا لله تعالى ، لا رغبة في حصن ومال ؛ ومتى دهمكم عدو جئتمكم بنفسى ورجالى » . ثم استقر الرأى بين الأفضل الفاطمى وطغتكين على أن تقوم حامية دمشق في صور الى جانب الحامية الفاطمية ، ويتولى القيادة العامة للقوات المشتركة قائد من قبل طغتكين ، في حين تظل الخطبة والسكة للفاطمين^(٢) .

والواقع ان ما حدث في صور من ناحية وفي عسقلان من ناحية أخرى ، انما يدل على بداية صحوة اسلامية في جنوب بلاد الشام ، هى في حقيقة الأمر جزء من حركة الافاقة الشاملة التى أخذ العالم الاسلامى يمر بها في النصف الأول من القرن الثانى عشر . ولم تلبث أن امتدت هذه الصحوة الى الدولة الفاطمية ذاتها ، فتقدم جيش فاطمى من عسقلان سنة ١١١٣ لمهاجمة بيت المقدس ، ووصل الفاطميون الى أسوار المدينة فعلا ، ثم عادوا من حيث أتوا لاهتمام الصليبيين بتحصين المدينة^(٣) . كذلك خرجت قوة فاطمية من عسقلان سنة ١١١٥ لمهاجمة الصليبيين في يافا ، ولكنها عادت دون أن تحقق شيئا^(٤) . أما في مصر ، فقد أدت سياسة الملك بلدوين الأول الى تحريك شعور المصريين وتبنيهم الى الخطر الذى يتهددهم في بلادهم من جانب الصليبيين . ذلك أن بلدوين الأول عمل على حماية مملكة بيت المقدس من ناحية الجنوب الشرقى ، وذلك عن طريق السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبى البحر الميت حتى خليج العقبة ، وهى المنطقة المعروفة باسم وادى عربة . ومن الواضح أنه مع ما لهذا المشروع من أهمية دفاعية ، فانه يمكن الصليبيين أيضا من عزل مصر عن بقية العالم الاسلامى فى الشرق ، وقطع الطريق البرى بينها وبين الشام والعراق والحجاز^(٥) .

وقد بدأ بلدوين الأول بالسيطرة على وادى عربة جنوبى البحر الميت ، ثم شيد سنة ١١١٥ حصن الشوبك ليكون مركزا يمكن الصليبيين من السيطرة على

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ١٢ مجلد ٣ ص ٢٦٨

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨١ — ١٨٢

(٣) Foucher de Chartes ; p.p. 426—427.

(٤) Guillaume de Tyr ; p.p. 494—495.

(٥) Grousset : L'Empire du Levant ; p. 213.

وادی عربية بأجمعه^(١). وفي العام التالي - ١١١٦ - خرج بلدوين في حملة أخرى ، ومضى حتى أيله علي ساحل خليج العقبة ، حيث فر الأهالي من وجهه . وقد بنى بلدوين في أيله قلعة حصينة للتحكم في الطريق البري للقوافل بين مصر والشام^(٢) ؛ كما شيد قلعة أخرى في جزيرة فرعون الواقعة قبالة أيله في خليج العقبة . وبذلك تمكن الصليبيون من الاشراف على شبه جزيرة سيناء الواسعة ، ولم يبق أمام بلدوين سوى أن يهاجم الفاطميين في عقر دارهم ليشعرهم بقوة . وفي مارس سنة ١١١٨ خرج بلدوين على رأس قوات غير كبيرة ، وعبر الصحراء من غزه الى العريش حتى وصل الى الفرما واستولى عليها وأحرق جامعها ومساجدها^(٣) . ويروي المؤرخ ابن الأثير أن الملك بلدوين وصل الى مدينة تنيس جنوبى بحيرة المنزلة ، كما يشير بعض المؤرخين الصليبيين الى أنه وصل الى مصب نهر النيل فعلا ؛ ولكنه لم يستطع أن يوغل في الأراضي المصرية أكثر من ذلك لصغر قوته ثم لمرضه المفاجئ . وسواء جاء ذلك المرض لأنه سبح في النيل عند تنيس « فانتفض جرح كان به » على قول ابن الأثير ؛ أو أنه مرض بسبب أكله سمك من بحيرة المنزلة - على قول أبى المحاسن - ؛ فالتفك عليه هو أن أصحابه شقوا بطنه ، وصبروه - أى حنطوه - ورموا أحشائه في المكان الذي نسب اليه وما زال يعرف حتى اليوم باسم سبخة البردويل - قرب بور سعيد الحالية - وهو المكان الذي اعتاد الناس أن يرموه حتى أيام أبى المحاسن في عصر المماليك^(٤) .

ويبدو أن جرأة الصليبيين في مهاجمة مصر ، كان لها أثرها في إيقاف الدولة الفاطمية من سباتها وجعلها أكثر احساسا بالخطر المباشر الذي يتهدها ، فشرع الوزير الأفضل في القيام بمحاولة جديدة يردبها على العدوان الصليبي ، وبادر بإرسال جيوشه الى عسقلان وأسطوله الى صور . وفي ذلك الدور تمت بصورة أوضح المعجزة الكبرى ، وهى تحالف الدماشقة السنيين مع الفاطميين الشيعة ضد الصليبيين ؛ فتم الاتصال بين الوزير الأفضل في مصر وطغتكين في دمشق على القيام بعمل مشترك ضد العدو المشترك ، ووافق الأفضل على أن يضع

(١) Runciman : op. cit. ; I, p.p. 97-98.

(٢) Setton : op. cit. ; I, p. 406.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٧١

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٢ هـ ، ٥٥٨ ، p. 508. Guillaume de Tyr ;

جيوشه في عسقلان تحت قيادة طغتكين^(١) . ولم يلبث أن حضر طغتكين بنفسه الى عسقلان وعندئذ أخبره قائد الجيش الفاطمي بأن لديه تعليمات « بالوقوف عند رأى طغتكين والتصرف على ما يحكم به »^(٢) . وكان أن أحس الملك بلدوين الثاني — ملك بيت المقدس الجديد (١١١٨ — ١١٣١) — بخطورة الموقف ، فحاول عزل طغتكين عن الأفضل ، وعرض على الأول عقد هدنة ، ولكن طغتكين رفض عرضه . على أن الموقف لم يؤد الى صدام بين الطرفين ، اذ رابط كل من الصليبيين والمسلمين مدة شهرين أو ثلاثة ، ثم انصرف كل فريق من حيث أتى^(٣) .

ويلمس المتتبع لتاريخ الدولة الفاطمية في ذلك الدور فتورا ملحوظا في مواجهة الصليبيين ومقاتلتهم . ويبدو خلال ذلك اتجاه قوى في المعسكر الفاطمي لمهادنة الصليبيين ، وعدم الجد في محاولة طردهم من مواقعهم في جنوب بلاد الشام . وظهر هذا الاتجاه قويا بين المتطرفين من شيعة البيت الفاطمي ، وهم الذين رأوا في بقاء الصليبيين ضمانا لحماية ملك الفاطميين من أطماع السلاجقة^(٤) . وزاد من سلبية الدولة الفاطمية في ذلك الدور أن الوزير الأفضل أخذ يقترب من نهايته . والحق ان الوزير الأفضل — مع كونه أرمنى الأصل — الا أنه لم يأل جهدا في مقاتلة الصليبيين ، كما احتضن أنصار حركة الجهاد وقربهم منه^(٥) . وسواء ابتغى الأفضل من سياسته هذه الجهاد لذاته ، أو اتخذ تلك السياسة أداة للحد من نشاط ونفوذ الخليفة الأمر الفاطمي (١١٠١ — ١١٣٠) — وهو الخليفة الطموح الذي أراد الحد من نفوذ الوزراء العظام — فالذى يعيننا هو أن الوزير الأفضل اغتيل في أواخر سنة ١١٢١ ، وأن هذا الاغتيال مرتبط بسياسته السابقة . ويقال في سبب مقتل الوزير الأفضل أنه سمح لطغتكين — وهو أتابك دمشق السني — بارسال قوة للمشاركة في الدفاع عن صور ، الأمر الذي أثار غلاة

(١) القرينى : المواعظ ، ج ١ ، ص ٣٤٢

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٢ هـ .

(٣) Foucher de Chartres ; p.p. 617—619.

(٤) القرينى : المواعظ ، ج ٢ ، ص ٣١٠

جمال الدين بن طاهر : أخبار الدول المنقطعة ، ورقة ٧٤ ب

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٧٩ ، أبو المحاسن : النجوم

ج ٥ ص ٢٣١ — ٢٣٢

الشيعة في مصر ، مما أدى الى مقتل الأفضل بيد بعض الباطنية الذين كانوا « يكرهون الأفضل لأسباب منها تضييقه على امامهم (الخليفة الفاطمي) » ^(١) .

على أن الخليفة الأمر الفاطمي كان لا يستطيع أن يكشف عن سياسته تجاه الصليبيين بعد مقتل الأفضل مباشرة ، حرصا على مكائنه في العالم الاسلامي ، ولذلك رأى أن يسترضى الرأي العام فأنفذ حملة كبيرة من عسقلان لحصار يافا برا سنة ١١٢٣ ، في الوقت الذي خرج الاسطول الفاطمي لمهاجمتها من ناحية البحر ^(٢) . وكانت الحامية في يافا صغيرة ، مما جعلها توشك على الاستسلام ، ولكن وصول تجدة صليبية جعل الفاطميين يفكرون في الانسحاب الى يينا ، على الطريق بين يافا وعسقلان . وفي المعركة التي دارت بين الفاطميين والصليبيين عند يينا في أواخر مايو سنة ١١٢٣ ، انهزم الفاطميون وولوا الأدبار ، واقتفى الصليبيون أثرهم ، يقتلون ويأسرون وينهبون ما يصل الى أيديهم ^(٣) .

ولم تلبث أن انكشفت بعد قليل سياسة الخليفة الأمر الفاطمي في مسألة الصليبيين ، فتخلص الفاطميون من القوات الدمشقية السنية التي كانت تشترك معهم في الدفاع عن صور ، كما تخلصوا من مندوب طغتكين في تلك المدينة . ذلك أن الخليفة الأمر أرسل أسطولا الى صور سنة ١١٢٢ لعزل الحاكم الدمشقي مسعود ، فقبض عليه وأحضر الى القاهرة . وقد انتقد المؤرخ أبو المحاسن هذا التصرف من جانب الفاطميين ، لأنه حرم صور من الرجل القوي الذي « فعل ما فعل مع الفرنج من قتالهم وحفظ سور المدينة هذه المدة الطويلة » ^(٤) . وهكذا ساءت أحوال صور وتعرضت للإهمال من جانب الفاطميين . ويتضح من المقارنة بين ما ذكره المقرئزي عن كمية الميرة التي كانت تصل سنويا الى صور أيام الوزير الأفضل ، وبين ما ذكره ابن ميسر عن الكمية التي كانت تصلها على أيام الوزير ابن البطائحي خليفة الأفضل ، أن الدولة الفاطمية بعد مقتل الأفضل انقصت المعونة التي كانت ترسلها الى صور الى الخمس ^(٥) .

(١) ابن الأثير: الكامل ؛ حوادث سنة ٥١٥ هـ .

(٢) Setton : op. cit. ; I, p. 421.

(٣) Foucher de Chartres ; p.p. 450—451.

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٨٢

(٥) المقرئزي : المواعظ ، ج ٢ ص ٣٤٤ ، ابن ميسر : تاريخ مصر ، ج ٢

ومهما يكن من أمر ، فإن تلك الأوضاع أتاحت فرصة طيبة للصليبيين ليستغلوا الموقف السيء الذى أمست فيه صور من ناحية ، والشقاق بين دمشق والقاهرة من ناحية أخرى « فتحرك طمعهم فيها ، وحدثوا نفوسهم بتملكها ، وشرعوا فى الجمع والتأهب للنزول عليها والمضايقة لها »^(١) . ولما أحس أهل صور بشدة وطأة الصليبيين عليهم ، أرسلوا الى الخليفة الأمر يشكون اليه ، فأحس الخليفة بعجزه ، واضطر مرة أخرى الى أن يحيلهم الى طغتكين ، اذ رد عليهم قائلاً « قد رددنا أمرها الى ظهير الدين طغتكين ليتولى حمايتها والذب عنها »^(٢) . ومرة أخرى عاد طغتكين صاحب دمشق يعزز حامية صور « ويرتب بها من الجند وغيرهم ما ظن أن فيه الكفاية »^(٣) .

على أن هذه الجهود لم تفلح فى انقاذ صور . ذلك أن البندقية كانت قد أعدت حملة صليبية ضخمة من ثلثمائة سفينة تحمل خمسة عشر ألف جندى لمساعدة الصليبيين بالشام^(٤) . وكان أن وصل الأسطول البندقى الى الشام فى مايو سنة ١١٢٣ ، فاتجه الى عسقلان حيث دمر الأسطول الفاطمى هناك ، ثم أغار البنادقة على الشاطئ الجنوبى لفلسطين حتى العريش ، وفى طريق عودتهم الى عكا أسروا اسطولا تجاريا اسلاميا من عشر سفن محملة بالبضائع^(٥) . ولاشك فى أن تدمير الأسطول الفاطمى فى مياه فلسطين أعطى الصليبيين حرية العمل ضد المعاقل والموانئ الفاطمية القليلة التى ما زالت باقية على ساحل الشام ، وأهمها صور وعسقلان . ولم تفلح جهود القوى الاسلامية ، المتباينة فى الدفاع عن صور^(٦) ، ولم تستطع صور نفسها الصمود طويلا رغم حصانتها القوية^(٧) .

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥١٨ هـ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥١٨ هـ .

(٤) Heyd : Hist. du Commerce, I, p.p. 142-143.

(٥) Foucher de Chartres ; p.p. 452-453.

(٦) عن هذه الجهود انظر : ابن العديم : زبدة الحلب (Rec. Hist. Or. III, p. 642)

(٧) وصف الرحالة ابن جبير صور فى عصر الحروب الصليبية بأنها « مدينة يضرب بها المثل فى الحصانة ، لا تلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة » . (رحلة ابن جبير ص ٢٧٧ - طبعة بيروت) .

وأخيرا اضطرت صور الى التسليم في أوائل يوليو سنة ١١٢٤ « بعد أن أشرف أهلها على الهلاك^(١) » .

ومرة أخرى ارتفع صوت خافت من مضر يتهم الخليفة الأمر الفاطمي بأنه فرط في صور ، ويطالب الخلافة الفاطمية باتخاذ سياسة ايجابية في جهاد الصليبيين بالشام . وزاد من الانقسام الداخلي في الدولة الفاطمية أن الخليفة الأمر الفاطمي قبض على وزيره ابن البطائحي سنة ١١٢٥ ثم صلبه . ولم يتخذ الخليفة الأمر بعد ابن البطائحي «وزير سيف بل استبد بأموره وبارها بنفسه^(٢)» ، واستعان بالمشيرين من غير المسلمين ، فولاهم مناصب الدولة ، وظهر منهم بهرام الأرمني الذي « صادر عامة من بالديار المصرية ، من كاتب وحاكم وجندى وعامل وتاجر ، وامتدت يده الى الناس على اختلاف طبقاتهم^(٣) » . وكان من الطبيعي أن يجنح مستشارو الدولة الفاطمية من المسيحيين الى مسالة الصليبيين بالشام . وزاد هذا الاتجاه قوة بعد اغتيال الخليفة الأمر في خريف سنة ١١٣٠ وقيام ابن عمه الحافظ محله في الخلافة ، لأن الحافظ هذا كان من أشد المتحمسين لمسالة الصليبيين ، وقيل أنه أشار بقتل الوزير الأفضل^(٤) .

ولم يرض المتحمسون للجهاد عن ذلك الوضع ، فجمعوا صفوفهم بزعامة رضوان بن الوحشى ، وأطلقوا سراح أحمد ابن الوزير الأفضل وعينوه وزيرا في حفل كبير ، أظهروا فيه حقهم على البيت الفاطمي وسياسته^(٥) . وقد ظهرت استجابة الوزير الجديد لسياسة الجهاد في خروج الجيوش الفاطمية من عسقلان واغارتها على الصليبيين في اقليم يافا ، حتى وصلوا الى مشارف أرسوف^(٦) . على أن الوزير أحمد بن الأفضل لم يعيش طويلا ليواصل سياسته ، وإنما اغتيل سنة ١١٣١ بيد يانس ، وهو أمير من أصل أرمني . ولم يلبث أن دب الخلاف بين يانس هذا الذى تولى الوزارة والخليفة الحافظ الفاطمي ، وهو خلاف تطور

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٥١٨ هـ ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٨ هـ .

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ج ٢ ، ص ٧٣

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٩

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٠٤

(٥) تاريخ ابن الفرات ، ج ٣ ، ص ١٨ ، ابن ميسر : تاريخ مصر ، ج ٢

الى صراع دموى أفاضت المصادر فى شرحه ، و انتهى بموت يافس مسموما قبل أن يمر عام على توليه منصب الوزارة^(١) . وفى خلال الحرب الأهلية التى شهدتها الدولة الفاطمية فى العامين التاليين ، برز الأمير بهرام الأرمنى ، فولاه الخليفة الحافظ الفاطمى الوزارة رغم أنه كان يدين بالنصرانية . ولم يدخر الوزير بهرام جهدا فى فتح أبواب مصر أمام بنى جنسه من الأرمن ، فضلا عن أنه شجع سياسة المعايضة السلمية مع الصليبيين بالشام وقاوم أنصار حركة الجهاد^(٢) . وأثار هذا الوضع المسلمين داخل مصر وخارجها ، فقامت ثورة بزعامة رضوان بن الوحشى الذى خطب فى الناس خطبة بليغة « حرض الناس فيها على الجهاد » . وكان أن فر بهرام فى حين ولى رضوان بن الوحشى الوزارة سنة ١١٣٧^(٣) .

والحق ان الوزير رضوان بن الوحشى كان من أشد المتحمسين لحركة الجهاد ضد الصليبيين ، فما كان يتولى الوزارة حتى أنشأ ديوانا جديدا أطلق عليه اسم « ديوان الجهاد »^(٤) . وفى الوقت نفسه أخذ يطارد الأرمن ويقصيهم عن مناصب الدولة ، حتى بلغ به الأمر حد التنديد بالخليفة الحافظ الفاطمى وسياسة الاستكانة التى اتبعها تجاه الصليبيين بالشام . وعندما وجد رضوان بن الوحشى أن الخليفة الحافظ يعمل سرا لتمكين الأرمن من استعادة نفوذهم فى الدولة ، فضلا عن جهود الخليفة فى استئثاره عداء بعض طوائف الجيش الفاطمى ضد الوزير ، الأمر الذى يؤثر تأثيرا خطيرا على حركة الجهاد التى عزم رضوان بن الوحشى المضى فيها ، فر ابن الوحشى نحو الشمال ليستعين ببطل كبير من أبطال الجهاد وعلم من أعلام الوحدة الاسلامية فى القرن الثانى عشر للميلاد ، هو عماد الدين زنكى .

وكان السلطان محمود السلجوقى قد عين زنكى أتابكا على الموصل سنة ١١٢٧ ، فنظم أمورها ، وشرع يضع أساس خطة متكاملة لجهاد الصليبيين . وقد أدرك زنكى بثاقب بصره أن مثل هذه الخطة لا يمكن أن تنجح الا اذا تم توحيد

(١) المقرئى : المواعظ ، ج ٢ ص ٢٦ ، ابن ميسر : تاريخ مصر ، ج ٢ ص ٧٥ - ٧٦

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ج ٢ ص ٧٩ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٣ ص ٦٠

(٣) العينى : عقد الجمان ، ج ١٦ ق ١ ص ٥٧ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٣ ص ١٨

(٤) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ج ٢ ص ٨٢

القوى الاسلامية في الشرق الأدنى ؛ فضم حلب سنة ١١٢٨ ، وبذلك جمع بين الموصل وحلب ، وهما اكبر مركزين للمسلمين في شمال العراق والشام^(١) . وفي الوقت الذي كان زنكى يسعى جاهدا لضم مدينة دمشق ، حتى تمتد الجبهة الاسلامية المتحدة الى أواسط الشام ؛ أرسل اليه الوزير الفاطمى رضوان بن الوحشى طالبا التضامن معه في جهاد الصليبيين ، والاستعانة به ضد الخلافة الفاطمية الشيعية المتقاعسة عن الجهاد .

ويحكى لنا أسامة بن منقذ — وهو شاهد عيان ساهم بنفسه في أحداث تلك الفترة — ما كان من أمر الوزير رضوان ، فيقول أنه اتجه الى صلخد (صرخد) في الوقت الذي كان زنكى يحاصر بعلبك . وعندما تم الاتفاق بين زنكى والوزير الفاطمى على اللقاء عند بعلبك ، دحر معين الدين أنر صاحب النفوذ في دمشق ، واستدعى أسامة بن منقذ وقال له « هذا الرجل (رضوان) ان انضاف الى أتاكب (زنكى) دخل علينا منه ضرر كبير !! »^(٢) وكان أن قصد أسامة بن منقذ الوزير رضوان بن الوحشى ، ومازال يثنيه عن عزمه حتى عدل ابن الوحشى عن مقابلة زنكى ، واكتفى بأن جهز جيشا كبيرا عاد به الى مصر في سبتمبر سنة ١١٣٩ ليحارب جند الخليفة الفاطمى قرب باب الفتوح . غير أنه لم يلبث أن أرغم على المسير الى الوجه القبلى ، حيث طارده الأمير أبو الفضل بن مصال ، وانتهى الأمر بحبسه في القصر ثم قتله بعد ذلك^(٣) . وهكذا باء بالفشل مشروع التعاون بين زنكى وابن الوحشى للقضاء على الدولة الفاطمية أولا ثم مواصلة الجهاد ضد الصليبيين بعد ذلك ، فدخلت الدولة الفاطمية مرة أخرى دور ركود واضح .

والواقع ان حركة الوحدة في العالم الاسلامى تمهيدا للجهاد كان اتجاهاها في ذلك الدور من الشمال لا من الجنوب ، فاستولى زنكى على الرها سنة ١١٤٤ ، ثم خلفه ابنه نور الدين محمود ليستأنف سياسته ويستولى على دمشق سنة ١١٥٤ ، وبذلك جاء دور مصر لتمتد الجبهة الاسلامية المتحدة من الفرات الى

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٣٤ — ٤٠ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٣٧ — ٣٨

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ٣٠ — ٣٢

(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٧٨ (الطبعة الثانية) .

النيل^(١) . وفي تلك الأثناء لم يغفل الصليبيون أمر مصر بعد أن ظهر للعيان مدى ضعف الخلافة الفاطمية وعجزها عن الاحتفاظ بكيانها . وهنا نلاحظ أن الاتجاه الطبيعي لتوسع الصليبيين في الربع الأول من القرن الثاني عشر كان في الشمال الشرقي ، حيث لم توجد قوة اسلامية كبيرة عند أطراف الفرات تحول دون ذلك التوسع . ولكن ظهور قوة الزنكيين في شمال العراق والشام ، جعلت حركة التوسع الصليبي تتخذ منذ منتصف ذلك القرن اتجاها آخر ، هو الاتجاه الجنوبي الغربي ، أي على حساب مصر والفاطميين^(٢) .

على أن غزو مصر — وهي السياسة التي اتخذت طابعا عمليا واسع النطاق على يد عموري الأول فيما بعد — كان لابد من التمهيد له بالاستيلاء على عسقلان وهي القاعدة الوحيدة التي بقيت للفاطميين في فلسطين . وهذا ما قام به الملك بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، بعد أن تم تنويعه وأخذ يفكر في القيام بعمل حربي هام يضيف عليه وعلى حكمه هالة من المجد والأهمية في نظر معاصريه^(٣) .

وقد مهد بلدوين الثالث لغزو عسقلان بعدة ترتيبات هامة ، حربية وسياسية . ففي الجانب الحربي بدأ في أواخر سنة ١١٤٩ وأوائل سنة ١١٥٠ بإعادة تحصين غزة ، فهدم أسوارها القديمة ، وبنى لها سورا جديدا ، كما شيد بها قلعة قوية عهد بحراستها الى الداوية^(٤) . وفي الجانب السياسي كان لابد لبلدوين الثالث قبل أن يشرع في مهاجمة عسقلان من أن يؤمن ظهر مملكة بيت المقدس من جانب دمشق . ولم يكن التحالف بين دمشق وبيت المقدس أمراً صعب الحدوث في ذلك الدور ضد العدو المشترك نور الدين محمود ، الذي أخذ يسعى لتحقيق الجبهة الاسلامية المتحدة ويهاجم دمشق مرة بعد أخرى لضمها الى تلك الجبهة . وفي ذلك يقول ابن القلانسي ان الدماشقة « عاهدوا الافرنج أن يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم من المسلمين » . في حين يقول أبو شامة ان حكام دمشق « راسلوا الفرنج بخبره (نور الدين) وقرروا معهم الانجاد عليه »^(٥) . وهكذا

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٦٦٤

(٢) Michaud : op. cit. ; II ; p. 217.

(٣) Setton : op. cit. ; I, p. 536.

(٤) Guillaume de Tyr, p. 778.

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٩ ، أبو شامة : كتاب

الروستين ، ص ٧٠

مكنك الأوضاع السائدة في العالم الاسلامي بلدوين الثالث ملك بيت المقدس من أن يوجه جهوده ضد الفاطميين في عسقلان ، وهو آمن من جانب أتابكة دمشق ^(١) .

والواقع ان الخلافة الفاطمية كانت تحتضر فعلا عند منتصف القرن الثاني عشر. وعندما توفي الخليفة الحافظ سنة ١١٤٩، خلفه ابنه الظاهر (١١٤٩ - ١١٥٤) الذي استبد بالسلطة في عهده الوزير العادل بن السلار . وفي الوقت الذي كان الخليفة الفاطمي يكد لابن السلار ويدبر المؤامرات للتخلص منه بسبب اعتناق ابن السلار للمذهب السني ^(٢) ؛ اذا باين السلار يضع مشروعا لمقاتلة الصليبيين في غزة وعسقلان ، ويسعى للاتفاق مع نور الدين محمود لتنفيذ هذا المشروع . وكان أسامة بن منقذ في مصر عندئذ ، فاستدعاه الوزير الفاطمي ابن السلار ، وعهد اليه بمهمة الاتصال بنور الدين ، وقال له « تأخذ معك مالا وتمضي اليه ينازل طبرية ، ويشغل الفرنج عنا لنخرج من هاهنا نخرب غزة » ^(٣) . وربما سمع الوزير ابن السلار بنية ملك بيت المقدس الصليبي في الاستيلاء على عسقلان وغزو مصر ، فأراد بهذا المشروع أن يصرفه عن قصده . ومهما يكن من أمر فان أسامة بن منقذ سافر من مصر مزودا بستة آلاف دينار مصرية ، عدا الثياب وغيرها ، واتجه الى الشام حيث التقى مع أسد الدين شيركوه في بصرى ، ومنها صجبه الى دمشق . ولكن نور الدين محمود أبى الاستجابة لمشروع ابن السلار ، وقال لأسامة « يافلان ، أهل دمشق أعداء ، والافرنج أعداء . ما آمن منهما اذا دخلت بينهما !! » ^(٤) ومعنى هذا أن نور الدين محمود أبى أن يغامر بحرب ضد مملكة بيت المقدس الصليبية في ذلك الدور الذي لم تكتمل فيه الجبهة الاسلامية المتحدة ، والذي كان حكام دمشق فيه ينصabونه العداء ، مما يوقعه بين نارين . ومع ذلك فان نور الدين محمود سمح لأسامة أن يستأجر بالمال الذي زوده به الوزير الفاطمي ابن السلار جندا يحارب بهم الصليبيين ، فجمع أسامة ثمانمائة وستين فارسا ، وزوده نور الدين بثلاثين فارسا من أصحابه ، حتى يكون الاسم له فيما قد يحققه من انتصارات على الصليبيين ^(٥) .

(١) Grousset : Hist. des Croisades, Tome 2, p.p. 342—351.

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١٨٤

(٣) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٠

(٤) المرجع السابق ، ص ١٤

(٥) المرجع السابق .

وكان أن نازل أسامة بن منقذ — بما توافر له من قوة — الصليبيين في عسقلان وبيت جبريل وبيننا ، ولكنه لم يستطع أن يحقق أى نجاح حربى ملحوظ في تلك العمليات الحربية ، لصغر قواته من ناحية ، وعدم تمسكها بروح النظام والطاعة من ناحية أخرى . وعندئذ استدعاه الوزير الفاطمى ابن السلار الى القاهرة ، فحضر تاركا أخاه عز الدولة أبو الحسن على في عسقلان ليواصل مقاتلة الصليبيين في غزه ؛ ولكن أبا الحسن لم يلبث أن استشهد في تلك العمليات^(١) .

ومهما يكن من أمر ، فاننا نخرج من هذه الأحداث بعدة معان : أولاها استمرار تمسك وزراء الدولة الفاطمية — وهم أصحاب النفوذ الفعلى فيها — بفكرة الجهاد . وثانيها اتجاه هؤلاء الوزراء الى زكى ثم الى ابنه نور الدين محمود طالبين محالفتهم والاستعانة بهم في تنفيذ مشاريعهم ضد الصليبيين ، وذلك بعد أن يؤس الوزراء من أمر الخلفاء الفاطميين أنفسهم ؛ وثالثها اضطراب أحوال الدولة الفاطمية وضعفها ، وعجزها عن القيام بعمل حربى منفرد ضد الصليبيين بالشام .

وهكذا وجد بلدوين الثالث ملك بيت المقدس في أوضاع القوى الاسلامية في مصر والشام خير مشجع له على القيام بمشروعه الكبير الخاص بالاستيلاء على عسقلان — تمهيدا لمد نفوذه الى مصر نفسها — ؛ فشرع في حصار عسقلان في أواخر يناير ١١٥٣ ، منتهزا فرصة الاضطرابات الداخلية في مصر « واشتغالهم (الفاطميون) عن عسقلان »^(٢) . وقد استمر الحصار بضعة أشهر ، حاول الفاطميون خلالها أن يمدوا أهل عسقلان بالمعونة عن طريق البحر ، فأرسلوا أسطولا كبير من سبعين سفينة محملة بالسلاح والمؤن ، ونجح ذلك الاسطول في اختراق الحصار الذى فرضته الأساطيل الصليبية على عسقلان من ناحية البحر^(٣) . وكان وصول هذه النجدة الى حامية عسقلان حافزا لها على مواصلة المقاومة في صبر وشجاعة . ولكن الحصار طال ، وازداد هجوم الصليبيين عنفا ، فلم تجد حامية عسقلان بدا من طلب الأمان ، ودخل الصليبيون المدينة في ١٩ أغسطس سنة ١١٥٣ ليحولوا جامعها الكبير الى كنيسة تحمل اسم القديس بولس . ومع ذلك فقد امتدح ابن القلانسى سلوك الصليبيين تجاه أهل عسقلان ، اذ سمحوا

(١) المرجع السابق ، ص ١٤ — ١٦

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٨ هـ .

(٣) Guillaume de Tyr ; p. 801.

لهم بالخروج سالمين » فخرج منها من أمكنة الخروج في البر والبحر الى ناحية مصر وغيرها « (١) .

وباستيلاء الصليبيين على عسقلان ، يكونوا قد أتموا بسط سيطرتهم على ساحل الشام وفلسطين بأجمعه من اسكندرونه في الشمال حتى غزة في الجنوب ، الأمر الذي حرم الفاطميين من قاعدة بحرية طالما استخدموها في مهاجمة الممتلكات الصليبية في فلسطين . على أننا لا نميل الى المبالغة في أهمية استيلاء الصليبيين على عسقلان بالنسبة لحماية وجودهم في فلسطين بالذات . حقيقة ان سقوط عسقلان كان آخر نصر حربي كبير أحرزه ملوك بيت المقدس ، وحقيقة ان عسقلان ظلت أمدا طويلا - قبل استيلاء الصليبيين عليها - قاعدة تخرج منها الجيوش الفاطمية لغزو المواقع الصليبية القريبة في جنوب فلسطين ؛ ولكننا يجب أن نتذكر أن الدولة الفاطمية في الوقت الذي فقدت عسقلان لم تبق لها ممتلكات ذات أهمية في فلسطين ، ولم تعد مصدر خطر كبير أو صغير على الصليبيين ، بعد أن أمست في درجة من الضعف والانحلال حال بينها وبين القيام بأي عمل حربي ضد الصليبيين (٢) .

أما مظاهر ضعف الدولة الفاطمية وانحلالها فكثيرة ومتعددة ، أهمها عدم التعاون بين الخلفاء والوزراء ، وهو الأمر الذي بلغ في معظم الحالات حد العداء والصدام بين الطرفين . ثم التنافس بين الطموحين من رجال الدولة على الفوز بمنصب الوزارة ، وهو التنافس الذي تحول في بعض مراحله الى تطاحن دموي عنيف ، لم يتردد خلاله كل طرف من الأطراف المتنازعة في الاستعانة بقوى خارجية في سبيل تحقيق غرضه والتغلب على خصمه . ولا أدل على عدم الاستقرار الذي تعرضت له الدولة الفاطمية - وبخاصة منذ منتصف القرن الثاني عشر - من أنه صار من الأمور الشائعة أن ينتهي أمر كثير من الخلفاء والوزراء بالقتل . من ذلك أن الوزير ابن السلار قتل وهو نائم في فراشه في ابريل سنة ١١٥٣ ، أي قبيل استيلاء الصليبيين على عسقلان بأشهر قليلة . وربما كان مقتل ابن

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢١

أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ص ٩٠

(٢) Runciman : op. cit. ; II ; p. 340.

السلار في ذلك الدور مما سهل على الصليبيين الاستيلاء على عسقلان لأنها تركت بلا حامية بعد مقتل ابن السلار^(١) .

وقام بقتل ابن السلار نصر حفيد زوجته ، فقطع رأسه « وحمله الى (الخليفة) الظافر » ؛ وعندئذ تملك الخليفة الفاطمي الفرح لمقتل وزيره ابن السلار ، ووضع رأس القتييل في بيت المال ، ونفح قاتله بعشرين صينية من الفضة فيها عشرون ألف دينار . ولم يكذب يتم مقتل ابن السلار حتى تولى الوزارة عباس — والد نصر — « فخلع عليه الظافر ، وفوض اليه الأمر » . ولكن لم يلبث أن أراد الخليفة الظافر بوزيره عباس سوءاً ، فأخذ يحرض ابنه نصر على قتله مثلما قتل ابن السلار من قبل^(٢) .

ويحدثنا أسامة بن منقذ — وهو شاهد عيان ، كان يعيش عندئذ بمصر ، وعلى صلة وثيقة بنصر قاتل ابن السلار — كيف حرص الخليفة الظافر الفاطمي على مواصلة ارسال الهدايا الضخمة من « الكسوات من كل نوع ما لا رأيت مثله مجتمعاً قبله » ؛ فضلاً عن المال الوفير والبغال والجمال ... وغيرها ، الى نصر قاتل ابن السلار لتحريضه على قتل والده عباس . ولكن أسامة نصحه بالألا يفعل ذلك وقال له « لا يستترك الشيطان وتنخدع لمن يعزك ، فما قتل والدك مثل قتل العادل (ابن السلار) ، فلا تفعل شيئاً تلعن عليه الى يوم القيامة » . وكان أن أعرض نصر عن قتل والده ، بل لقد اتفق مع والده عباس على قتل الخليفة ؛ وفعلاً انتهى الأمر بقتل الظافر الفاطمي ثم قتل اخوة الخليفة نفسه . وحاول القتلة الاجهاز على أسرة الخليفة كلها « فكان ذلك من أشد الأيام التي مرت بى لما جرى فيه من البغى القبيح الذى ينكره الله تعالى وجميع الخلق »^(٣) . وعندما ثار الأهالى في القاهرة ضد هذه الأوضاع ، فر الوزير عباس من القاهرة ومعه ابنه نصر ، ولكن اخوة الخليفة الظافر حرضوا بعض الصليبيين على قتله فقتلوه سنة ١١٥٤ ، في حين قبض على نصر حيث صلب حياً على باب زويله ، وترك معلقاً هناك شهوراً كثيرة ، ثم أحرقت جثته سنة ١١٥٦^(٤) . وهكذا صار الوضع

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٨٦

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٨

(٣) المرجع السابق ، ص ٢١

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٥٠٠

في الدولة الفاطمية عندئذ ، أن « مذهب القوم ضربهم بعض الناس ببعض حتى يفنؤهم ^(١) » .

وقد ترك الخليفة الظافر الفاطمي طفلا في الرابعة من عمره ، دعى له بالخلافة وتلقب بالفائز . ولما كان هذا الطفل لا يستطيع النهوض بأعباء الحكم ، فقد أرسل نساء القصر الفاطمي الى الأمير طلائع بن رزيك والى الأشمونين يستدعينه لتولى الوزارة . وعرف ابن رزيك بقوة البأس ، فتلقب بالملك الصالح ، وبذل جهدا كبيرا في اقرار الأمن وإعادة الأمور الى مجراها الطبيعي ^(٢) . ولم يلبث أن توفي الخليفة الفائز وهو في الحادية عشر من عمره — سنة ١١٦٠ — فأقام ابن رزيك في الخلافة العاضد ، الذي كان « مراهقا قارب البلوغ » ، وزوجه الوزير طلائع بن رزيك ابنته مما مكن الوزير من احكام سيطرته على الخليفة ^(٣) . وهكذا استمر طلائع بن رزيك يلهو بالخلفاء الصغار الذين صاروا أداة طيعة في يده . ويتضح ذلك من العبارة التي قالها عندما هلك أهل القاهرة للخليفة الجديد ، اذ قال « كآنى بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا ، وما علموا أننى منذ ساعة استعرضهم استعراض الغنم ^(٤) » .

وأخيرا أحس الخليفة العاضد والأمراء بثقل ذلك الكابوس ، فدبروا مؤامرة لقتل ابن رزيك ، وتمت المؤامرة بنجاح في سبتمبر سنة ١١٦١ ^(٥) . وكان أن خلف ابن رزيك في الوزارة ابنه العادل ، الذى لقب بمجد الاسلام ، ولكنه لم يظل في الوزارة سوى خمسة أشهر ، قتله بعدها شاور حاكم الصعيد ، وتولى بدله الوزارة في يناير سنة ١١٦٣ ^(٦) . على أن شاور « عامل (الخليفة) العاضد بأفعال قبيحة ، وأساء السيرة في الرعية ، وأخذ أمر مصر في وزارته في ادبار » . لذلك خرج عليه أبو الأشبال ضرغام بن عامر ، الذى استطاع أن ينتصر على شاور ويطرده من مصر سنة ١١٦٣ ^(٧) . ولم يلبث ضرغام أن بغى بدوره وارتركب

(١) اسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٩

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٩٤ ، ابن خلكان : وفيات ، ج ١ ص ٤٩٨

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٩ هـ . Wiet : L'Egypte Arabe, p. 289.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٦ هـ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) عمارة اليمنى : كتاب النكت العصرية ، ص ٨٨

(٧) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٦

كثيرا من المظالم وأعمال الاضطهاد » وقتل كثيرا من أمراء المصريين لتخلو له البلاد من منازع»^(١) . وكان أن عم الاستياء والخوف الناس جميعا في مصر ، وذلك في الوقت الذي أخذ عمورى الأول ملك بيت المقدس (١١٦٢ - ١١٧٤) يفكر في غزوها .

وقد ذكر بعض المؤرخين الصليبيين - مثل وليم الصورى وميخائيل السريانى - أن بلدوين الثالث ملك بيت المقدس (١١٤٤ - ١١٦٢) كان قد هدد بغزو مصر سنة ١١٦٠ منتهزا فرصة الفوضى التى عمتها عقب مقتل الخليفة الفائز ، ولكن الحكومة الفاطمية استطاعت أن تشيه عن محاولته مقابل تعهدها بدفع جزية ، سنوية قدرها مائة وستين ألف دينار^(٢) . ومع أننا لم نعر في المراجع العربية على ما يؤيد هذه الحقيقة ، الا أننا نستبعد صحتها ، حيث أن أحوال الدولة الفاطمية في ذلك الدور خير شاهد على ضعفها . وإذا كانت الدولة الفاطمية أضعف من أن تدفع خطر أعدائها بالقوة ، فلا أقل من أن تشتري مسالمتهم بالمال . وهذا - دون شك - موقف معيب يتطلب التستر عليه بحيث يصل خبره الى الرعية فيستشيرهم ، والى كافة المسلمين فيؤذى شعورهم ويسئ الى الخلافة الفاطمية نفسها . وربما كان هذا هو السر فى عدم وصوله الى المؤرخين المسلمين وبالتالي عدم اشارتهم اليه .

ومهما يكن من أمر ، فإن الملك عمورى الأول تحجج بعدم وفاء الحكومة الفاطمية بوعدها ، فغزى الدلتا فى سبتمبر سنة ١١٦٣ حتى وصل الى بليس وحاصرها ؛ ولكن ضرغام استغل فرصة فيضان النيل وسيحان المياه فى الأراضى ، ليحجر عمورى الأول على الانسحاب الى فلسطين^(٣) . ومع أن عمورى الأول قد عاد الى فلسطين فاشلا ، فإن تلك الحملة الاستطلاعية لم تخل من فائدة بالنسبة له وللصليبيين . ويكفى أنها أطلعتهم عمليا على مدى ضعف مصر وعظم ثروتها ، وسهولة الاستيلاء عليها ، مما جعل عمورى يستعد لغزوة كبرى تمكنه من وضع يده على مصر^(٤) . ومن ناحية أخرى فإن جرأة عمورى فى مهاجمة مصر أثارت

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٣٠ ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث

٥٨٨ هـ .

(٢) Michel Le Syrien, III, p. 317 & Guillaume de Tyr, p. 890.

(٣) Schlunberger : Campagnes du Roi Amaury de Jreusalem en Egypte, p.p. 38-4.

(٤) Setton : op. cit. ; I ; p.p. 550-551.

مخاوف نور الدين محمود الذى كان قد استولى على دمشق سنة ١١٥٤ ، وأخذ يتطلع الى الاستيلاء على مصر لتمام الجبهة الاسلامية المتحدة من ناحية وأحكام حصار مملكة بيت المقدس الصليبية من ناحيتى الشمال والجنوب من ناحية أخرى. وكان شاور قد هرب الى نور الدين فرارا من خصمه ضرغام ، وهناك فى دمشق أخذ شاور يستنجد به « وأطعمه فى الديار المصرية ، وقال له : اكون نائبك بها ، وأقنع بما تعين لى من الضياع والباقي لك »^(١) . كذلك تعهد شاور لنور الدين — اذا ساعده الأخير فى العودة الى الوزارة بمصر — أن يدفع له ثلث دخل البلاد « ويتصرف على أمره ونهيه واختياره »^(٢) .

ويبدو أن نور الدين محمود تردد كثيرا عندئذ فى ارسال حملة الى مصر ، خوفا من أن يتورط فى ذلك المشروع وهو لا يزال أمام أعداء أقوياء فى الشام . وبعد أن استخار نور الدين القرآن ، أرسل حملة صحبة شاور الى مصر سنة ١١٦٤ بقيادة أسد الدين شيركوه ، ورافق شيركوه فى تلك الحملة ابن أخيه صلاح الدين الذى كان عندئذ فى السابعة والعشرين من عمره . وكان أن استنجد ضرغام بالصليبيين ، وتعهد لعمورى — مقابل مساعدته — أن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين^(٣) . على أن مهارة القائد الكردي شيركوه ، واسراعه فى قطع الصحراء — رغم تقدم سنه — جعلته يكسب قصب السبق ، فوصل الدلتا قبل الصليبيين ، وانتصر عند تل بسطا على جيش أرسله ضرغام ، بحيث لم يكد يحل أول مايو سنة ١١٦٤ ، الا وكان شيركوه — ومعه شاور — قد بلغا أسوار القاهرة . ولم يلبث أن تخلى الجيش والخليفة وعامة الناس عن ضرغام ، فقتل أثناء محاولته الفرار ، وتولى شاور الوزارة^(٤) .

وقد وصف المؤرخ أبو المحاسن شاور بأنه كان « خبيثا سفاكا للدماء » ؛ فأساء معاملة الناس ، ونسى وعوده المعسولة لنور الدين ، بل سرعان ما « ظهر منه أمارات الغدر بأسد الدين شيركوه » ؛ فرفض أن يدفع لشيركوه المال المتفق عليه ، وطلب منه الخروج من مصر^(٥) . ولكن شيركوه رد على موقف شاور

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٦

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٠

(٣) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 294.

(٤) عمارة اليمنى : النكت العصرية ، ص ٧٣

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٧

باحتلال بلييس والشرقية ، مما جعل شاور يفعل مثل سلفه ضرغام ، فاستنجد بالصليبيين^(١) .

وكان أن عاد عمورى الأول على رأس جيش الى مصر مرة أخرى ، بعد أن وعده شاور بمبلغ كبير من المال^(٢) . وعندما وصل ملك بيت المقدس الى فاقوس ، لم يشأ شيركوه أن يتجه نحو القاهرة ، وإنما اختار أن يقوى مركزه في بلييس حيث حصل على مساعدات من عرب كنانة . وحدث ذلك في الوقت الذى حضر شاور من القاهرة على رأس جيشه واشترك مع عمورى في حصار شيركوه في بلييس ، حتى تم الاتفاق أخيرا على أن يغادر شيركوه وعمورى الأول مصر ، واتفق على ذلك في أواخر سنة ١١٦٤ بعد أن تعهد شاور بأن يدفع لشيركوه ثلاثين ألف دينار أخرى^(٣) . وربما كان عمورى الأول أكثر تلهفا على تلك الاتفاقية ، حيث أن هجمات نور الدين اشتدت على الصليبيين في غيابه ، مما تطلب عودته الى بلاد الشام على وجه السرعة^(٤) .

والواقع أن نور الدين والصليبيين خرجوا جميعا من تجربتهم العملية في أرض مصر بفكرة واضحة عن مدى ثروة البلاد وضعفها الشديد ، حتى بدا لهم أن الاستيلاء عليها يمثل الهناء دون عناء ، لولا تربص كل طرف للآخر ، وحرص كل جانب على أن ينفرد بالغنيمة كاملة دون خصمه . ويذكر أبو المحاسن أن شيركوه غادر مصر « وهو في غاية من القهر »^(٥) ؛ كما يذكر ابن الأثير أن شيركوه لم يستطع عقب عودته الى بلاد الشام أن ينسى مصر ، فظل « بعد عوده منها لا يزال يتحدث بها وبقصدها ، وكان عنده من الحرص على ذلك كثير »^(٦) ولو ترك الأمر لشيركوه لعاد الى مصر سنة ١١٦٥ أو سنة ١١٦٦ ، ولكن يبدو أن نور الدين محمود خشى أن يقوم بمحاولة جديدة ضد مصر في هاتين السنتين

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٩ هـ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٣١ . Schlumberger : op. cit. ; p. 58.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث ٥٥٩ هـ ، أبو شامة ، كتاب

الروضتين ، ص ١٣٢

(٤) Grousset : op. cit., II, p. 458.

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٨

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ .

خوفا من تشتت جهوده وتقسيم قواته ، في الوقت الذي كان الموقف في بلاد الشام يستدعى شيئا من اليقظة والانتباه^(١) .

على أنه يلاحظ أن الطمع في ثروة مصر ، والخوف من أن يستفيد منها الصليبيون حربيا وماديا ، لم تكن الدوافع الوحيدة لاهتمام نور الدين في ذلك الدور بأمر مصر ؛ وإنما كان هناك — بالإضافة الى ماسبق — دافع آخر مذهبي له أهميته في توحيد الجبهة الاسلامية . ذلك أن الخلافة الفاطمية بوضعها في مصر كانت مصدرا من مصادر الفرقة في العالم الاسلامي ، لأن قيامها في القاهرة كان كفيلا ببقاء المذهب الشيعي حيا — على الأقل في مصر — في حين ساد المذهب السني بلاد الشام وغالبية العراق . ويحتمل أن تكون قد دارت مباحثات واتصالات قوية بين نور الدين وقائده شيركوه من ناحية والخليفة العباسي من ناحية أخرى ، وذلك قبل أن يعهد نور الدين الى شيركوه بمهمة غزو مصر سنة ١١٦٧^(٢) .

وثمة أسباب أخرى ذكرها المؤرخ أبو المحاسن ، جعلت نور الدين يرسل شيركوه مرة ثانية الى مصر ، أهمها أن الخليفة العاضد الفاطمي عندما رأى استبداد شاور وأنه غلب عليه ، أرسل الى نور الدين يستنجد به ، ويعلمه أن شاور « قد استبد بالأمر وظلم وسفك الدم » هذا الى أنه كان « في قلب نور الدين من شاور حزاة لكونه غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد عليه بالفرنج »^(٣) .

وكان أن غادرت الحملة النورية الثانية دمشق في يناير ١١٦٧ قاصدة مصر تحت قيادة شيركوه ، وبصحبه أيضا ابن أخيه صلاح الدين^(٤) . وعندما أدرك شيركوه الدلتا عمل حسابا لاستنجد شاور بالصليبيين ، فوجد أنه ليس من الحكمة مهاجمة القاهرة ، واختار أن يعبر النيل عند أطيح الى الجزيرة حيث عسكر في مواجهة الفسطاط على الضفة الغربية للنيل^(٥) . وقد صح ما توقعه شيركوه ، اذ استنجد شاور بعموري الأول ملك بيت المقدس ، الذي أسرع

(١) Schlumberger : op. cit. ; p.p. 101—102.

(٢) Grousset : op. cit. ; II ; p.p. 478—479.

(٣) أبو المحاسن : النجوم ، ج ٥ ص ٣٤٨

(٤) ابن شداد : النور السلطانية ، ص ٦٥

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ص ١٤٢ . Wiet : op. cit. p. 295.

في نهاية يناير ١١٦٧ ليغزو مصر بجيوشه للمرة الثالثة . ويبدو أن ظروف الصليبيين في بلاد الشام كانت تستدعي بقاء عموري عندئذ ، ولكنه اضطر الى قبول دعوة شاور طمعا في ملك مصر « وخوفا من أن يملكها أسد الدين ، فلا يبقى لهم (للصليبيين) في بلادهم مقام معه ومع نور الدين » وهكذا خرج الصليبيون الى مصر « الرجاء يقودهم والخوف يسوقهم » ، وفق تعبير ابن الأثير^(١) ، فساروا في الطريق المألوف من غزة الى العريش ، ثم اخترقوا الصحراء الى بليس ، حيث خف شاور للقاء حلفائه وقادهم الى حيث عسكروا على الضفة الشرقية للنيل ، في حين كان شيركوه لا يزال مرابطا على الضفة الغربية^(٢) .

وقد أراد الصليبيون أن يعقدوا اتفاقية مع الفاطميين تضمن لهم أجرهم قبل أن يقوموا بمحاربة شيركوه ، فتعهد لهم شاور بدفع أربعمئة ألف دينار في حالة بقائهم ، حتى طرد شيركوه من مصر ، بشرط أن يدفع نصف هذا المبلغ فورا^(٣) . وكان أن رحب الصليبيون بتلك الاتفاقية التي تجعل منهم حماة مصر والخلافة الفاطمية . ولدعم هذه الاتفاقية واعطاها صبغة رسمية ، أرسل عموري الأول سفارة الى الخليفة الفاطمي زارته في قصره الفخم حيث تم ابرام الاتفاق في صورته النهائية ، وعاد رسل الصليبيين ، ولا حديث لهم الا عظمة البلاط الفاطمي^(٤) .

وعندما استعد الفاطميون والصليبيون لمهاجمة شيركوه ، وجدوا أنه لا بد لهم من عبور النيل الى الضفة الغربية ، فأخذوا يعبرون الى جزيرة الروضة ، وعندئذ أدرك شيركوه حرج موقفه ، فاتجه الى الصعيد وفي أثره عموري الأول وشاور^(٥) . وقرب الأشمونين في المنيا دارت معركة البابين في مارس سنة ١١٦٧ واشترك فيها صلاح الدين . وقد هزم الصليبيون في تلك المعركة ، وان كان انتصار شيركوه غير حاسم « وكان هذا من أعجب ما يؤرخ به أن ألقى فارس

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) Schlumberger : op. cit. ; p. 116.

(٤) Guillaume de Tyr ; p.p. 909—913.

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٤٢

يهزم عسكر مصر وفرنج الساحل » . أما عمورى فقد قفل راجعا ومعه بقية جيشه ، حيث عسكر قرب القسطة على الضفة الشرقية للنيل^(١) . وكان من الممكن أن يستولى شيركوه على القاهرة « لو ساق خلفهم »^(٢) ، ولكنه اختار أن يتجه شمالا على الضفة الغربية للنيل ليحتل الاسكندرية ، فى الوقت الذى ظل الصليبيون قابعين أمام القسطة . واذا كان عسف شاور وجوره لم يمكن أهل القاهرة من التعبير عن استيائهم لتحالف حكاهم مع الصليبيين ، فانه كان من الصعب أن يقبل أهل الاسكندرية - مع ماهو معروف عنهم دائما من نخوة وشهامة - ذلك الوضع ، فضلا عن أن بعدهم عن العاصمة وملاستهم الخطر الصليبي عن طريق البحر جعلهم أكثر احساسا بذلك الخطر وأكثر حرية فى التعبير عن شعورهم . لذلك لم يكن شيركوه يقرب من الاسكندرية حتى « تلقاه أهلها طائعين » ، وفتحوا له أبواب مدينتهم بغير قتال . على أنه يبدو أن شيركوه خشى أن يحصره الصليبيون ومعه جميع قواته داخل الاسكندرية ، فقال « أنا لا يمكننى أن أحصر نفسى » . لذلك ترك ابن أخيه صلاح الدين نائبا عنه فى الاسكندرية ، واتجه هو على رأس الجزء الأكبر من قواته عائدا الى الصعيد « فاستولى عليه وأقام يجمع أمواله »^(٣) .

وفى الوقت الذى أوغل شيركوه فى الصعيد حتى قوص وحاصرها ، ساء موقف صلاح الدين وأهل الاسكندرية ، بعد أن أسرع عمورى لحصار صلاح الدين ، الذى لم يكن معه داخل المدينة سوى ألف جندى . وكان أن اشتد الحصار وقل الطعام داخل الاسكندرية ، ومع ذلك فقد « صبر أهلها على ذلك »^(٤) . وعندما رأى صلاح الدين اصرار الصليبيين على حصار الاسكندرية ، وخشى عاقبة ذلك الحصار ان طال ، أرسل الى عمه يطلب النجدة العاجلة ، فاضطر شيركوه الى العودة شمالا فى صيف سنة ١١٦٧ . ويبدو أن شيركوه أدرك فى تلك المرحلة صعوبة الاستلاء على مصر ، فأرسل الى الصليبيين يطلب

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٣ ، الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٩

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٤٥ ، أبو المحاسن : النجوم

الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٤٩

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ .

عقد الصلح . وتم الاتفاق — كما في المرة السابقة — على تبادل الأسرى ، وعلى أن يترك الجانبان مصر لينعم بها شاور من جديد^(١) . وهنا نلاحظ أن ميول شاور ظلت مع الصليبيين ، فاتفق معهم عند انسحابهم من مصر على أن يقوموا بحمايته مقابل تعهده بدفع مائة ألف دينار سنويا ، ورضى أن يترك الصليبيون له حامية منهم تحرس أبواب القاهرة ، فضلا عن مندوب — أو شحنة — عن الملك عمورى يشارك في شئون الحكم^(٢) .

والواقع أنه اذا كان عمورى الأول قد غادر مصر مضطرا سنة ١١٦٧ نظرا لصعوبة موقف الصليبيين بالشام تحت وطأة ضربات نور الدين محمود ، فليس معنى ذلك أن عمورى عدل عن فكرة الاستيلاء على مصر . ويذكر أبو المحاسن أن الصليبيين عندما حضروا الى مصر في المرات السابقة « اطلعوا على عوارتها وطعموا فيها »^(٣) وهكذا لم يعد في وسع الصليبيين أن يتخلوا عن فكرة الاستيلاء على مصر طمعا في ثروتها وحماية لكيانهم بالشام . ولكن عمورى أدرك أنه في حاجة الى قوة خارجية تمكنه من تحقيق حلمه الكبير في الاستيلاء على مصر ، ولذلك فكر في تقوية الرابطة مع الأباطورية البيزنطية ، ولم يحجم عن الزواج سنة ١١٦٧ من الأميرة ماري كومنين قريبة الأباطور البيزنطى مانويل الأول كومنين^(٤) . ومن الثابت أن أباطرة القسطنطينية لم يكونوا في غفلة عما جرى في مصر طوال السنوات الأخيرة من انحلال الخلافة الفاطمية ، وتنافس نور الدين محمود وعمورى الأول حول الفوز بوادى النيل . ولم يلبث الامبراطور أن أرسل مبعوثين سنة ١١٦٨ الى بيت المقدس للاتفاق على عمل مشترك ، فتقوم القوات البيزنطية الصليبية بفتح مصر^(٥) . وكان الثمن الذى اتفق على أن يتقاضاه الامبراطور لقاء مساعدته الصليبيين هو جزء من مصر ، فضلا عن أنطاكية^(٦) . وقد وافق عمورى الأول على تلك الشروط ، وأرسل مبعوثا — هو المؤرخ الشهير وليم الصورى — الى القسطنطينية حيث تم

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٦٦ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٤٣

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٧

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٥٠

(٤) Grousset : op. cit. ; II ; p. 504.

(٥) Guillaume de Tyr ; p. 947.

(٦) Schlumberger : op. cit. ; p. 185.

عقد اتفاقية بين الطرفين في سبتمبر سنة ١١٦٨ تنص على تقسيم مصر بين البيزنطيين والصليبيين^(١).

على أنه لم يقدر للاتفاقية السابقة بين البيزنطيين والصليبيين أن تنفذ ، اذ لم يشأ الملك عمورى أن ينتظر فراغ الامبراطور من مشاغله في البلقان ، وانفرد — دون شركائه البيزنطيين — بالهجوم على مصر . وقد يبدو لأول وهلة أن السبب في ذلك التحول إنما يرجع الى عدم رغبة عمورى في أن يشاركه البيزنطيون في اقتسام مصر حتى ينفرد وحده بالصيد ، لاسيما وأن روح العداء بين البيزنطيين الشرقيين والصليبيين الغربيين كانت هي الروح السائدة طوال أدوار الحركة الصليبية . ولكن الواقع هو أن عمورى الأول وجد نفسه مضطرا الى الاسراع في العمل نتيجة لانقلاب سياسة شاور ضد الصليبيين^(٢) .

ذلك أن شاور أخذ يتخوف من المساعدة الصليبية التي تحولت الى حماية ، بل الى نوع من الوصاية على الدولة الفاطمية . فوجود مندوب أو شحنة عن ملك بيت المقدس الصليبي في القاهرة يشاركه في شؤون الحكم ، ووجود حامية من الصليبيين تحرس أبواب القاهرة ، كل ذلك أزعج الفكر الاسلامي^(٣) . وفي الوقت الذي كان الشعور الديني في العالم الاسلامي معبأ ضد الصليبيين ، والدعوة الى الجهاد يتردد صداها في مشارق العالم الاسلامي ومغاربة ، اذا بالمسؤولين في الدولة الفاطمية يستعينون بالصليبيين ويطلبون حمايتهم ضد قوة اسلامية شقيقة مجاورة . وقد ذكر ابن الأثير أن أولئك الصليبيين الذين استعان بهم شاور أساءوا معاملة أهل البلاد « وحكموا على المسلمين حكما جائرا وركبوهم بالاذى^(٤) ! » هذا الى أن الاتاة السنوية التي فرضها عمورى على شاور — وهى مائة ألف دينار — أثقلت كاهل ميزانية الدولة الفاطمية ، في الوقت الذي ضعفت تلك الدولة ونضبت مواردها . وهكذا لم يجد شاور مفرأ — أمام ضغط الرأي العام وشعوره بالاستياء — من أن يقلب سياسته

(١) Guillaume de Tyr ; p. 947.

(٢) Chalendon : Comnenes, II, p.p. 537—538.

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٧

(٤) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٦٢ هـ .

رأساً على عقب ، فاتصل بنور الدين محمود طالبا مساعدته في التخلص من الحماية الصليبية !!^(١) . ويذكر أبو شامة أن شاور أرسل ابنه -الكامل شجاع- الى نور الدين محمود « ينهى محبته وولاءه ويسأله الدخول في طاعته ، » مما ترتب عليه عقد اتفاقية بين الطرفين . كذلك حاول شاور تأكيد هذه الرابطة الجديدة عن طريق المصاهرة ، فعرض أن يتزوج ابنه الكامل شجاع أخت صلاح الدين أو يتزوج صلاح الدين ابنة شاور^(٢) .

على أنه يبدو أن تدخل عمورى مرة أخرى في شئون مصر لم يكن مرجعه تبدل سياسة شاور فحسب ، وإنما تعرض ملك بيت المقدس لضغط من جانب فرسانه وأمراءه الذين وجدوا في مصر لقمة سائغة ، فظلوا يدفعون ملكها دفعا للاستيلاء عليها . ويروى ابن الأثير أن رجال الحماية الصليبية في مصر أرسلوا الى عمورى « يستدعونه ليملكها وأعلموه خلوها من الموانع وهونوا أمرها عليه » ولكن عمورى تردد كثيرا قبل القيام بتلك الخطوة ، إذ أدرك أنه لن يتعرض لمقاومة الحكام فحسب ، وإنما لمقاومة الأهالى أنفسهم ، وأن المسألة ليست مسألة الخليفة العاضد أو الوزير شاور ، وإنما هى مسألة شعب بأسره سيقف في وجهه . لذلك قال عمورى لأصحابه أنه لو أقدم على تلك الخطوة فإن « صاحب مصر وعساكره وعامة بلاده وفلاحها لا يسلمونها لنا ويقاثلوننا دونها ! »^(٣) ولعله مما يشرف مصر وتاريخها أن الملك عمورى والصليبيين عملوا حسابا لعامة أهل مصر وفلاحها في الوقت الذى كانوا يعلمون جيدا مدى انحلال حكام مصر وضعف حكومتها ! وهكذا دب الخلاف بين الصليبيين سنة ١١٦٨ حول السياسة الواجب اتباعها تجاه المسألة المصرية ، فرأى الملك عمورى الأول الاكتفاء بسياسة الحماية التى تتبعها الصليبيون ، فى حين نادى جمهرة أمراء الصليبيين بأنه لا بد من غزو مصر واخضاعها للصليبيين « وقالوا ان مصر لا مانع لها ولا حافظ »^(٤) . وكان أن انتصر الرأى الأخير ، فأعد عمورى جيشا كبيرا أسهم فيه فرسان الاستبارية مساهمة فعالة^(٥) .

(١) عمارة اليمنى : النكت العصرية ص ٨١ ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص ٦٧ - ٦٨

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٠

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٧

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤

(٥) King : The Knights Hospitallars in the Holy Land, p. 94.

وفى أواخر أكتوبر سنة ١١٦٨ غادر عمورى الأول عسقلان متجها نحو دلتا النيل لغزو مصر للمرة الرابعة ، فوصل بليس فى أول نوفمبر سنة ١١٦٨ ولكن عمورى لاحظ تغييرا فى موقف المصريين منه عندئذ بدليل أن بليس أغلقت أبوابها فى وجهه تلك المرة . وعندما طلب عمورى من طى بن شاور — الذى كان بالمدينة — أن يسمح له ولجنده من الصليبيين أن يعسكروا داخل بليس ، أجابه طى « على أسنة الرماح ... أتخشب أن بليس جنة تأكلها ؟! » فرد عليه عمورى « نعم هى جنة والقاهرة زبدة !! »^(١) . ومن الواضح أنه اذا كان عمورى قد غزا مصر قبل ذلك بناء على طلب من بعض القوى المتنازعة داخل البلاد ، مما أوجد له سنداً يستند اليه ، فانه هذه المرة أتى الى مصر دون أن يستدعيه أحد أو يكون له حليف داخل البلاد ، مما زاد من صعوبة موقفه . وكان أن اضطر عمورى الى محاصرة بليس ومهاجمتها للاستيلاء عليها عنوة فى أوائل نوفمبر سنة ١١٦٨ . وعند دخول الصليبيين بليس ارتكبوا حماقة كبرى ؛ اذ « قتل (عمورى) من أهلها خلقا عظيما وضرب اكثرها وأحرق جل دورها » ؛ مما ترك أسوأ الأثر فى نفوس الأهالى^(٢) .

ولم يلبث أن اقترب عمورى الأول من القاهرة فى ١٣ نوفمبر سنة ١١٦٨ حيث عسكر عند بركة الجيش جنوبى الفسطاط . وهنا يذكر ابن الأثير أن أهل القاهرة عزموا على المقاومة حتى لا يتعرضوا للمصير السىء الذى تعرض له أهل بليس ، كما يؤكد أنه « لو كان الفرنج أحسنوا السيرة فى بليس لملكوا مصر والقاهرة »^(٣) . أما شاور فقد أحس فى ذلك الوقت بخرج موقفه واستياء الناس منه ، فأشعل النار فى الفسطاط وأحرقها أولا عن آخر ، بعد أن « أنذر أهلها فخرج الناس منها على وجوههم » ؛ وعندئذ نقل عمورى معسكره أمام القاهرة قرب باب البرقية^(٤) . ولكن القاهرة التى امتلأت باللاجئين من الفسطاط عازمت على المقاومة ، فى الوقت الذى وصل الاسطول الصليبي الى بحيرة المنزلة وتيسر ولكنه لم يستطع التقدم فى النيل جنوبا صوب القاهرة ، بسبب العقبات التى

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٠

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٧٠ & Guillaume de Tyr, p. 951

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧١

وضعها المصريون في مجرى النيل^(١) . ولم يلبث أن أخذ عمورى يتراجع عن القاهرة ، بعد أن أعطاه شاور مائة ألف دينار ثمنا لانسحابه^(٢) ، فاتجه الى سرياقوس عن طريق المطرية ، وهناك سمع بأن شيركوه اقترب من مصر على رأس جيش كبير ، فأمر عمورى الاسطول الصليبي بالعودة الى عكا^(٣) .

وكان الخليفة العاضد الفاطمي عندما رأى الخطر المحدق ببلاده قد أرسل الى نور الدين يعرض عليه « ثلث بلاد مصر اذا هو أنقذه من الصليبيين^(٤) » . والواقع ان نور الدين محمود كان لا يمكن أن يترك الصليبيين يحتلون مصر ، فلم يكذب يسمع بعودة الملك عمورى والصليبيين الى مصر ، حتى « أسرع بتجهيز العساكر خوفا على مصر » . كذلك يروى أبو شامة أن نور الدين أخذ يتخوف عندئذ من تردد الصليبيين على مصر بين حين وآخر ، وأدرك « أن شاور يلعب بهم تارة وبالفرنج أخرى » . لذلك قرأه على أن يتخذ موقفا حازما من المسألة المصرية^(٥) .

وفي الوقت الذى اقتربت جيوش نور الدين من حدود مصر الشرقية ، اتخذ عمورى خطة تستهدف الاتجاه من سرياقوس الى بليس ، حيث ترك هناك قوة تحمى الطريق المؤدى الى القاهرة ، ثم التقدّم نحو فاقوس لمباغطة قوات شيركوه وهى قادمة متعبة عبر الصحراء الشرقية ، والقضاء عليها قبل أن يلتف حولها المصريون (ديسمبر ١١٦٨)^(٦) . ولكن هذه الخطة التى وصفها عمورى الأول أنهارت من أساسها عندما علم أن شيركوه اخترق الصحراء الى القاهرة ، وأنه ادرك عاصمة مصر فعلا حيث التف حوله الأهالى بوصفه المدافع عنهم وعن دين الاسلام ؛ فى حين لم يستطع شاور نفسه — الذى كان الدعامة التى اعتمد عليها عمورى فى المرتين السابقتين — أن يفعل شيئا . وهكذا لم يبق أمام عمورى الأول سوى أن يسحب حاميته التى تركها فى بليس ، وينسحب ومعه رجاله فورا (يناير ١١٦٩) « عائدين الى بلادهم بخفى حنين ، خائبين مما أملوه »^(٧) .

(١) Guillaume de Tyr, p. 953.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٥٠ .

(٣) Schlumberger : op. cit. ; p.p. 208—209.

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ .

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ص ١٥٧ .

(٦) Guillaume de Tyr, p. 955.

(٧) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٣٨ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ص ١٧١ .

أما شيركوه ، فقد « فرح به أهل مصر » ، واستقبل استقبال البطل المخلص عند وصوله الى القاهرة . وقد عسكرت قواته عند باب اللوق على باب القاهرة ، فأستدعاه الخليفة العاضد الفاطمى الى القصر ، وخلع عليه خلع الوزارة ولقبه بالمنصور ، وأخذ أرباب الدولة يترددون الى خدمته فى كل يوم^(١) . وكان من الطبيعى أن يحقد شاور على شيركوه ، وخاصة بعد أن ظهر تأييد الخليفة العاضد لشيركوه وميله اليه ، فأرسل شاور مرة أخرى الى الصليبيين يستدعيهم لنجدته ، ويقول لهم « يكون مجيئكم فى دمياط فى البحر والبر »^(٢) . بل ان شاور دبر مؤامرة للقبض على شيركوه وأمرائه أثناء وليمة يدعوهم اليها ، ولما عارضه ابنه الكامل فى ذلك ، رد شاور على ابنه قائلا « لئن لم تفعل هذا لنقتلن كلنا » . وكان شاور قد تعهد بدفع ثلث أموال البلاد لشيركوه ، فلما أرسل الأخير يطلب منه الوفاء بوعده ، أخذ يماطل فى انتظار وصول الصليبيين لنجدته . وأخيرا أدرك « أعيان الدولة بمصر » خطر سياسة شاور وسوء نيته ، فاجتمعوا عند شيركوه ، وقالوا له « شاور فساد العباد والبلاد ، وقد كاتب الفرنج ، وهو يكون سبب هلاك الاسلام » ؛ وطالبوا بقتله^(٣) .

وهكذا انتهى الأمر بقتل شاور وولده الكامل فى يناير سنة ١١٦٩ وقيل ان الخليفة العاضد الفاطمى شارك فى المؤامرة التى عصفت بشاور . وبعد ذلك دخل شيركوه - ومعه صلاح الدين - القاهرة دخول الظافرين ، حيث أباحوا للأهالى نهب قصر شاور^(٤) .

على أن شيركوه لم يلبث أن توفى بعد شهرين (مارس ١١٦٩) ، فخلفه فى الوزارة ابن أخيه صلاح الدين . ويقال ان الخليفة العاضد الفاطمى أصر على اختيار صلاح الدين بالذات للوزارة -دون غيره من أمراء جيش نور الدين بمصر- لأنه ظن أن صغر سنه وعدم خبرته ستجعله أداة سهلة طيعة فى يد الخليفة^(٥) .

(١) اختلفت الأقوال فى أن الخليفة العاضد الفاطمى خلع على شيركوه بخلعة الوزارة قبل مقتل شاور أو بعده ، ونرجح صحة الرأى الأخير الذى قال به ابن شداد (سيرة صلاح الدين ، ص ٦٨) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٥١

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦٢ - ١٦٣

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ ، التاريخ الباهر ، ص ١٤٢

ولكن صلاح الدين ما كاد يتولى الوزارة حتى خيب ظن الخليفة الفاطمي وكبار أعوانه ، اذ شرع في استمالة قلوب الناس اليه « فمال الناس اليه وأحبوه ... وضعف أمر العاضد » . ثم انه استطاع أن يكتسب ولاء الجند بعد أن « أحسن لجميع العسكر الشامي والمصرى فأحبوه وأطاعوه »^(١) . وكان ذلك في الوقت الذي أمدّه نور الدين بقوة جديدة من العسكر ، استعان بها صلاح الدين في القضاء على شوكة الجند السودان الذين كانوا آخر سلاح اعتمد عليه العاضد الفاطمي لاستعادة نفوذه^(٢) . وهنا يظهر اسم الصليبيين مرة أخرى في صفحة الأحداث المعاصرة . ذلك أن رئيس بلاط قصر الخليفة — وهو نوبى خصى اسمه مؤتمن الخلافة — استاء من صلاح الدين عندما « ثقلت وطأته على أهل القصر » ؛ فدبر مؤامرة للخلاص من صلاح الدين ، وحاول أن يتبع أساليب ضرغام وشاور ، فيتصل بعمورى والصليبيين « ليتقوى بهم على صلاح الدين » . ولكن رسالة مؤتمن الخلافة الى عمورى وقعت في يد صلاح الدين ، الذى رأى أن يستأصل الشر من جذورة ، فقتل مؤتمن الخلافة فى أغسطس سنة ١١٦٩ ، ثم قضى فى حزم على ثورة الجند السودان التى اندلعت بعد ذلك^(٣) .

ومن الواضح أن صلاح الدين قام فى تلك المرحلة بدور مزدوج بوصفه وزير الخليفة العاضد الفاطمي من ناحية وقائد جيش نور الدين فى مصر من ناحية أخرى . ولكن الصليبيين كانوا لا يمكن أن يرضوا عن ذلك الوضع الجديد الذى نجم عن سيطرة قوات نور الدين على مصر ، والذى ترتب عليه احاطة جيوش نور الدين بمملكة بيت المقدس الصليبية من ناحيتى الشمال والجنوب . ويقول ابن واصل « ولما ملك صلاح الدين الديار المصرية ... أيقن الفرنج بالهلاك » . فى حين يقول ابن الأثير « كان افرنج الساحل لما ملك أسد الدين (شيركوه) مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك ... وأنهم خائفون على بيت المقدس »^(٤) .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٥٥

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٧٤

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ ، أبو شامة : كتاب

الروشتين ، ج ١ ص ١٧٨

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٧٩ ، ابن الأثير : التاريخ

الباهر ، ص ١٤٣

ولم يلبث الشعور بالفرح والقلق على المستقبل أن دفع عموري الأول ملك بيت المقدس الى ارسال سفارة الى الغرب الأوربي لتطلب من امبراطور ألمانيا (فردريك بربروسا) وملك فرنسا (لويس السابع) وملك انجلترا (هنرى الثانى) وملك صقلية (وليم الثانى) بالاسراع بالقيام بحملة صليبية جديدة لانقاذ اخوانهم الصليبيين بالشرق من الوقوع بين فكى الكماشة^(١) . غير أن الأوضاع السياسية فى غرب أوربا عندئذ ، لا سيما فيما يتعلق منها بالنزاع بين البابوية والامبراطورية ، حالت دون تحقيق أمنية عموري الأول وشركاه^(٢) . وبذلك لم يبق أمام الصليبيين بالشام سوى الاتجاه الى الدولة البيزنطية ، وطرق أبواب القسطنطينية طالين مساعدتها .

والواقع ان الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين لم يكن أقل انزعاجا لاتحاد مصر والشام تحت زعامة نور الدين محمود ، فرحب فوراً بتجديد اتفاقية سنة ١١٦٨ بينه وبين الصليبيين حول الاشتراك فى مهاجمة مصر واقتسامها^(٣) . وكان أن أعد الامبراطور أسطولاً كبيراً غادر مياه الدردنيل فى ١٠ يوليو سنة ١١٦٩ متجها الى قبرس ، حيث انضمت اليه بعض الوحدات الاضافية ، ثم اتجهت العمارة البيزنطية نحو صور ، ومنها الى عكا لرسم الخطة اللازمة لغزو مصر بالاشتراك مع الصليبيين^(٤) . ولكن يغرى الملك عمورى فرسان الاستتارية على مساندته فى مشروعه الكبير ، أصدر مرسوماً هاماً فى ١١ اكتوبر سنة ١١٦٩ يقضى بمنح الاستتارية جزءاً هاماً من ايراد مصر ، ونسبة ضخمة من دخل أهم المدن المصرية ، مثل القسطايط وتينيس ودمياط والمحلة والاسكندرية وقوص واطفيح واسوان والفيوم ... ؛ مما يدل على عزم عمورى على الاستيلاء على مصر من ناحية ، وعلى اعتقاده فى امكان تحقيق ذلك من ناحية أخرى^(٥) .

Guillaume de Tyr ; p. 959. (١)

(٢) وافقت تلك الفترة الدور الثانى من ادوار النزاع بين البابوية والامبراطورية ؛ انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٣٨٢ - ٣٩٢

Guillaume de Tyr ; p. 961. (٣)

Schlumberger : op. cit. ; p. 260. (٤)

King : op. cit. ; p.p. 100-101. (٥)

وفي الوقت الذي أقلع الأسطول البيزنطي صوب دمياط ، زحف الصليبيون برا في ١٦ أكتوبر سنة ١١٦٩ من عسقلان الى الفرما ومنها الى دمياط « ومعهم المنجنيقات والدبابات وآلات الحصار وغير ذلك ^(١) » . ولكن اذا كان الصليبيون قد نصبوا معسكرهم أمام دمياط ، فان الاسطول البيزنطي لم يستطع دخول الميناء بسبب المآصر ، وهى السلاسل الحديدية الممتدة بعرض الميناء لتمنع دخول سفن الأعداء ^(٢) .

أما صلاح الدين فقد أسرع — عندما علم بهجوم الصليبيين — الى تحصين بلييس والقاهرة والاسكندرية ؛ فلما اتجهت الحملة الى دمياط وجد صلاح الدين نفسه في موقف حرج ، لا سيما وأنه ظل يخشى باستمرار خطر مؤامرة أو ثورة ضده في الداخل ، بتحريض من الخليفة الفاطمي ورجاله . ومع ذلك فان صلاح الدين لم ييأس ولم يستسلم ، فأرسل يطلب النجدة من نور الدين « فسير نور الدين العساكر اليه أرسالا يتلو بعضها بعضها ^(٣) » . وفي الوقت نفسه كان تقى الدين عمر — ابن أخى صلاح الدين — ، وشهاب الدين — خاله — ، قد دخلا دمياط؛ فواصل صلاح الدين ارسال الامدادات والنجادات اليهما عن طريق النيل ، « وأمدهما بالسلاح والمال والذخائر ^(٤) » . وهكذا كان حصار الصليبيين للمدينة غير تام . وتشير المراجع الصليبية الى أن أهل دمياط استغلوا ظاهرة جريان تيار نهر النيل من الجنوب الى الشمال وأطلقوا على سطح الماء أوانى فخارية بها مواد مشتعلة أترلت بالاسطول البيزنطي أبلغ الضرر ، مما اضطره الى الابتعاد عن لسان النيل وعن المدينة ^(٥) . ولم تلبث القوات البيزنطية أن أحست بالجوع بعد أن نفذ تموينها ، فاقترح القائد البيزنطي على عمورى الأول القيام بهجوم شامل

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ، ص ١٨٠

(٢) Guillaume de Tyr : op. cit. p. 965.

(٣) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٦٥ هـ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٨٠ — ١٨١

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨١

(٥) Guillaume de Tyr ; p. 986.

على دمياط ، ولكن الملك الصليبي عارض ، بعد أن أحس بازدياد قوات صلاح الدين داخلها ، وأنه « حشر فيها كل من عنده ، وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر ^(١) » .

ولا يخفى علينا أن النوايا لم تكن خالصة بين البيزنطيين والصليبيين ، فظل الصليبيون يتشككون دائماً في حلفائهم ، وانتشرت شائعة بين رجال عمورى بأن البيزنطيين إنما ينوون أن يستأثروا بدمياط لأنفسهم عند سقوطها ، الأمر الذى أضعف قوة المهاجمين ^(٢) . وأخيراً وجد الصليبيون أن انتظارهم طال أمام دمياط دون جدوى ، فى الوقت الذى هاجم نور الدين ممتلكاتهم وبلادهم فى الشام ، والذى كانوا يحسبون فيه حساباً دائماً لهجوم صلاح الدين عليهم من ناحية الجنوب . لذلك قرروا رفع الحصار عن دمياط ، وعادوا الى عسقلان خائبين ، ليجدوا نور الدين قد عبث ببلادهم ونهبها ، حتى شبههم ابن الأثير بالنعامة التى خرجت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين !! ^(٣) . أما السفن البيزنطية فقد انسحبت هى الأخرى ، ولم يستطع بحارتها السيطرة عليها والتحكم فيها بسبب ما كانوا يعانونه من جوع وارهاق ، فغرق كثير من السفن ، وظلت الأمواج تقذف جثث بحارتها على الشاطئ طوال عدة أيام تالية ^(٤) .

ولاشك فى أن فشل تلك الحملة الصليبية البيزنطية ، أدى الى تدعيم مركز صلاح الدين فى مصر ، وجعل الخلافة الفاطمية تفقد الأمل الأخير فى التخلص من قبضته القوية . وكان أن أرسل الخليفة العاضد الفاطمى الى نور الدين — عقب انسحاب الصليبيين — يرجوه سحب جنده الأتراك من القاهرة ، لأنهم بثوا الرعب فيها ، مع السماح ببقاء صلاح الدين وأعوانه ؛ فرد نور الدين على الخليفة الفاطمى « يمدح الأتراك ويعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم الا لعلمه بأن قنطاريات الفرنج ليس لها الاسهام الأتراك ، فان الفرنج لا يربعون الا منهم ^(٥) » .

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٦٥ هـ .

(٢) Runciman : op. cit. ; II, p. 387.

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ؛ ص ١٤٤

(٤) Guillaume de Tyr ; p. 971.

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٨١

وفي الوقت الذي كان العاضد آخر الخلفاء الفاطميين قابعا في قصره بالقاهرة لاحول له ولا قوة ، أخذ وزيره صلاح الدين يوجه من مصر ضرباته ضد الصليبيين . ففي أوائل سنة ١١٧٠ خرج صلاح الدين من مصر لمهاجمة قلاع الصليبيين على شواطئ فلسطين ، فبدأ حصار قلعة الداروم (الدارون) جنوبى غزة ، ثم حاول الاستيلاء على غزة نفسها ، ولكنه لم يستطع ذلك بسبب المساعدة العاجلة التى قدمها عمورى الأول ملك بيت المقدس ، الذى أتى بنفسه على رأس قواته لنجدة هذين الموضعين^(١) . ولم يلبث صلاح الدين أن انسحب عائدا الى مصر ليستعد لضربة أخرى يوجهها ضد الصليبيين فى ميناء ايلة على خليج العقبة . ذلك أن صلاح الدين بنى عددا كبيرا من السفن وحمل أجزاءها مفككة على الجمال عبر سيناء حتى خليج العقبة ، وهناك ركبت السفن ، وأخذ صلاح الدين يهاجم أيله برا وبحرا فى نهاية ديسمبر سنة ١١٧٠ ، حتى سقطت المدينة فى يده ، واقتيد رجال حاميتها الصليبية أسرى الى القاهرة^(٢) .

وهكذا أخذ الصليبيون يشعرون يوما بعد يوم بازدياد تضيق المسلمين عليهم . ومرة أخرى أدرك الملك عمورى أنه لا أمل فى الحصول على مساعدة سريعة من غرب أوروبا ، فاتجه الى الدولة البيزنطية بوصفها القوة المسيحية الكبرى فى الشرق الأدنى . وفى مارس سنة ١١٧١ أبحر عمورى نفسه — ومعه جماعة من أمرائه — من عكا قاصدين القسطنطينية ، حيث اتفق الملك الصليبي مع الامبراطور مانويل كومنين على ارسال حملة مشتركة ضد مصر لاحتلالها وطرد صلاح الدين منها^(٣) . على أنه حدث قبل أن يتخذ الطرفان الخطوات العملية لتنفيذ ذلك الاتفاق ، أن تم الانقلاب الخطير فى تاريخ الشرق الأدنى ، وأعنى به سقوط الخلافة الفاطمية . ذلك أن صلاح الدين أمر بالدعاء للخليفة العباسى فى القاهرة فى سبتمبر سنة ١١٧١ ، فكان ذلك ايذانا بسقوط الخلافة

(١) Guillaume de Tyr ; I, p.p. 973—975

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٦ هـ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ، ص ١٩٩

(٣) Guillaume de Tyr ; p. 980.

الفاطمية بعد حياة استمرت نحواً من قرنين من الزمان . ولم يلبث أن مات الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين (١٣ سبتمبر سنة ١١٧١) ، ثم مات نور الدين محمود في دمشق في مايو سنة ١١٧٤ ، مما مهد لقيام الدولة الأيوبية ^(١) .

وإذا كنا نعتبر سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية أهم النتائج السياسية الكبرى التي تمخضت عنها الحركة الصليبية في الشرق الأدنى ، فإن هذه الحركة ذاتها دخلت دوراً نشطاً حافلاً بالأحداث بقيام دولة بنى أيوب في حكم مصر والشام .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٩ هـ .

غرناطة وقصر الحمراء

مقدمة فى تاريخ المدينة والأهمية المعمارية للقصر

للدكتور محمد نرفيس بلبيع

مدرس الحضارة الإسلامية بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية

تعتبر مدينة غرناطة من أهم وأشهر مدن الأندلس نظرا لتاريخها الحافل وما تحتويه من الآثار الإسلامية، على رأسها « قصر الحمراء » (La Al-Hambra) الذى يعد بدوره من أعظم وأشهر المباني التى خلفها المسلمون فى الشرق والغرب على السواء ، فهو بجانب ما يمثله من ضخامة الأسوار وكثرة الأبراج وقوة البناء وتعدد القاعات والابهاء وروعة الزخارف وتنوعها ، بجانب ذلك كله يمكن اعتباره سجلا تاريخيا لفترة من أزهى فترات التاريخ الإسلامى بالأندلس .

يطلق اسم غرناطة - فى الوقت الحاضر - على الاقليم وعاصمته ، وقد جاءت هذه التسمية القديمة - فى أغلب الظن - من الكلمة اللاتينية جراناتوم (Granatum) وتعنى « ثمرة الرمان » نظرا لكثرة مزارعه فى هذه المنطقة ^(١) .

يقع هذا الاقليم الذى كان يعرف من قبل باسم « كورة البيرة » فى الجزء الجنوبى الشرقى من شبه جزيرة ايبيريا ، على الجانب الأيسر من الحوض الخصيب لنهر الوادى الكبير (Guadalquivir) ويخترقه نهر « شانيل » (Genil) أحد راوفده الهامة .

لم تكن هذه المدينة الإسلامية العظيمة قبل الفتح العربى لاسبانيا سوى قرية صغيرة قائمه الى الجنوب الشرقى من مدينة « البيرة » (Elvira) عاصمة

(١) يذكر صاحب معجم البلدان أن التسمية الصحيحة هى « اغرناطة »
وانها اخذت هذا الاسم لحسنها . ياقوت الحموى - معجم البلدان ج ٣ ص ٧٨٨ ،
انظر أيضا : ابن الخطيب - الاحاطة ص ٩٩ ؛ نفح الطيب للمقرئ ج ١ ص ١٤١

الاقليم ، وكان ينزلها مع أهلها المسيحيين طائفه كبيرة من اليهود حتى عرفت عند بعض المؤرخين العرب باسم « اغرناطة اليهود » ^(١) .

أما تاريخ المدينة الاسلامى فيبدأ حوالى سنة ٩٥٥ هـ (٧١٤ م) اذ يرجع فتح هذا الاقليم وساحل اسبانيا الشرقى الى جهود عبد العزيز بن موسى ^(٢) الذى ولى أمر الأندلس بعد رحيل والده موسى بن نصير وطارق بن زياد - اللذان تمت على أيديهما أول وأهم مراحل فتح الأندلس - الى المشرق بناء على أمر الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك .

وقد نزل ولاية « كورة البيرة » بعد الفتح الاسلامى لاسبانيا مدينة البيرة باعتبارها عاصمة لهذا الاقليم منذ زمن القوط ، واستمر الحال كذلك مدة طويلة من عصر الامارة حتى بنيت العاصمة « قسطلة » Castella بالقرب من البيرة قبل وقت قصير من وصول الأمير عبد الرحمن الأول (الداخل) مؤسس ملك الأمويين بالأندلس فى سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦ م) ^(٣) فأصبحت الحاضرة الجديدة للكونورة ^(٤) ، ولكنها لم تستمر طويلا اذ أخذ اسم « قسطلة » يختفى تدريجيا وحل محله اسم « غرناطة » ^(٥) ، وظلت غرناطة حتى نهاية القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) بمثابة « قرية كبيرة محصنة بسور قوى » ينزلها مع سكانها المسلمين مجموعة كبيرة من اليهود وأخرى من النصارى أقل عددا من سابقتها ^(٦) وكان يواجه هذه القرية الكبيرة المسورة على الجانب الأيسر من وادى « حدره » (Darro) قلعة صغيرة قديمة شيدت على مرتفع من الأرض تشرف منه على

(١) عبد المنعم الحميرى - الروض العطار ص ٢٣

(٢) دكتور حسين مؤنس - فجر الأندلس ص ٧٧ ، ص ١١٢ ؛ دكتور السيد عبد العزيز - تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١١٠ - بينما نلاحظ ان كلا من صاحب اخبار مجموعة وابن عذارى قد نسب فتح غرناطة والمناطق الشرقية من الأندلس الى جيوش طارق بن زياد . اخبار مجموعة ص ١٢ والبيان ج ٢ ص ١٦

(٣) Levi — Provençal, Historia de Espana T. IV Espana Musulmana, Trad de E. Garcia Gomez, pp. 220—221.

(٤) ابن حيان - المقتبس - نشر الأدب ملشور - ص ٥٥

(٥) دكتور السيد عبد العزيز - تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس

ص ٣٦٥

(٦) Levi — Provençal, Historia de Espana, T. IV, Espana Musulmana, Trad de E. Garcia Gomez, p. 221.

الوادي عرفت « بالحمراء » نظرا للون الملاط واللبن القرمزي الذي استعمل في بناء جدرانها ؛ وكانت هذه « القرية » وقلعتها « الحمراء » من أعمال كورة البيرة ، احدى كور الأندلس الواحدة والعشرين التي كانت تنقسم اليها البلاد من الناحية الادارية خلال حكم الأمويين ^(١) وقد لعبت « قلعة غرناطة » في عصر أبو محمد عبد الله بن محمد سابع الأمراء الأمويين بالأندلس (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ = ٨٨٨ — ٩١٢ م) دورا هاما في أحداث الفتنة التي نشبت بين العرب بزعامة سوار بن حمدون القيسي وبين أعدائهم من المولدين والعجم في كورة البيرة ، اذ اتخذها سوار قاعدة وحصنا وملأها له ولرجالها بعد أن انضم اليه عرب المناطق المجاورة ، فكانت قواتهم تخرج من غرناطة للقاء جموع المولدين والعجم ومهاجمة معقلهم ، وبذلك استطاع العرب كسر شوكتهم وتشتيت شملهم أكثر من مرة ، وفي احدى المعارك الكبيرة التي وقعت بين الفريقين وعرفت عند المؤرخين باسم « وقعة المدينة » تمكن العرب من وضع السيف في رقاب المولدين وقتلوا منهم اثني عشر ألفا ^(٢) ، وقد أشار الى هذا النصر الساحق سعيد بن جودي السعدي-صديق سوار والذي تولى رئاسة العرب من بعده - في قصيدة طويلة جاء فيها ^(٣) :

لقد سَلَ سَوَّارٌ عليكم مهندا
يَجْذُثُّ به الهامات جذ المفاصلِ
به قتل الله الذين تحزَّبوا
علينا وكانوا أهل افك وباطلِ

(١) Levi — Provençal, Historia de Espana, T. V, Espana Musulmana, Trad. E. Garcia Gomez, p. 27.

(٢) ابن حيان — المقتبس ص ٥٦ — ٥٧ ؛ ابن الأبار — الحلة السرياء ج ١ ص ١٤٩ — ١٥٠ ، وقد أشار الى قوة سوار واشتداد سطوته فقال : « وغلظ أمره فاستبق حينئذ الى حصن غرناطة بالقرب من مدينة البيرة وصعد اليه فتبواه دارا اجتمعت اليه فيه عرب كورة البيرة وكاتبته عرب النواحي الى حدود « قلعة رباح » وغيرها .. » .

أما ابن عذارى فقد ذكر أن قتلى المولدين في هذه الموقعة قد بلغوا أحد عشر ألفا فقط — البيان ج ٢ ص ٢٠٢ .

(٣) انظر هذه القصيدة الطويلة في المقتبس لابن حيان ص ٥٧ — ٥٩ ؛ ابن الأبار — الحلة السرياء ج ١ ص ١٥٠ وما بعدها .

سما لبني الحمراء اذ حان حينهم
بجمع كمثل الطود أرعن رافل
أدرتم رحى حرب فدارت عليكم
لحفت قد أفناكم به الله عاجل
لقيتم لنا ملمومة مستجيرة
تجيد ضراب الهام تحت العوامل
بها من بنى عدنان فتيان غارة
ومن آل قحطان كمثل الأجادل
يقودهم ليث هزبر "ضبارم"
محش حروب ماجد غير خامل

وقد أشار الشاعر في البيت الثالث من القصيدة الى قوات العرب التي كانت تتجمع في قلعة غرناطة وتتخذها قاعدة لها فأطلق عليهم « بنى الأحمر » نسبة الى قلعتها الحمراء اللون .

وفي الفترة التالية — خلال حكم الخلفاء الأمويين — أخذت مدينة غرناطة تنمو وتتسع حتى أصبحت من بين مدن الأندلس الهامة .

وقد بلغت المدينة أولى مراحل مجدها وعظمتها ، باعتبارها مركزا وعاصمة للاقليم الذى تقع فيه ، فى عهد بنى زيرى — وهم من قبائل البربر التى تسبب الى صنهاجة — الذين وفدوا الى عدوة الأندلس ونزلوا فى هذه المنطقة وأقاموا فيها « مملكة غرناطة » التى لعبت دورا رئيسيا على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية فى عصر ملوك الطوائف — فكانت ندا قويا لمملكة بنى عباد فى أشبيلية وبنى ذى النون أصحاب طليطلة وبنى هود حكام الثغر الأعلى فى سرقسطة وبنى حمود الخلفاء فى مالقة والجزيرة ، وغيرهم من حكام الممالك التى قامت فى الأندلس بعد انقراط عقد الخلافة الأموية على أثر خلع هشام بن محمد المعتد بالله آخر خلفائهم فى قرطبة فى أواخر سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م)^(١) .

Levi — Provençal, Historia de Espana, T. IV, Espana Musulmana, Trad. de E. (١)
Garcia Gomez, pp. 485—486.

وقد عبر بنو زيري المضيق الى الأندلس على أثر نشوب نار الفتنة بين حماد بن بلكين بن زيري صاحب القلعة المنسوبة اليه بالمغرب الأوسط وبين أعمامه من بنى زيري - مما أدى بحماد الى قتل عمه ماكسن بن زيري وولديه محسن وباديس سنة ٣٩١ هـ (١٠٠١ م) وعندئذ خشي عمه الآخر - زاوى - على نفسه وفر الى الأندلس مع أسرته وقد صحبه ابنا ماكسن الآخراں جباسة وجبوس - ونزل هؤلاء البربر الفارين من افريقية على الحاجب المظفر عبد الملك ابن المنصور بن أبى عامر الذى استقبلهم استقبالا حافلا ، فأكرم وفادتهم واتهز فرصة اضطراب الأمور والأحداث السائدة واصطنعهم لنفسه فاتخذهم بطانة لدولته وقوة يستند اليها فى تثبيت مركزه وتنفيذ سياسته ^(١) .

ولما اشتعلت نار الفتنة فى قرطبة سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) بعد مقتل عبد الرحمن شنجول شقيق عبد الملك انضمت جموع البربر بزعامة زاوى بن زيري ، الى جانب سليمان المستعين بالله ، وأخذوا له البيعة فى المسجد الجامع بقرطبة فى ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ (نوفمبر سنة ١٠٠٩ م) ^(٢) . وظل زعيم صنهاجة على موقفه مؤيدا لسليمان ضد منافسه محمد بن عبد الجبار الملقب بالمهدى الذى قام ينافسه على الخلافة - فلما انتهى الأمر الى سليمان منح نصيره ومؤيده زاوى كورة البيرة ، فاستقر زعيم البربر مع رجاله بمدينة غرناطة « وأقام بها ملكا وأئل بها سلطانا لذويه فهو أول من مدن غرناطة وبنائها وزادها تشييدا ومنعة » ^(٣) .

= انظر أيضا : دكتور السيد عبد العزيز - تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٦٣ وعن ملوك الطوائف انظر :

A. Prieto y vives, Los Reyes de Taifas, Madrid, 1926, pp. 21-76.

وكذلك : يوسف أشباح - تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين - الترجمة العربية ص ٢٦ - ٦١

(١) ابن الخطيب - الاحاطة ص ٤٤٠ ، ص ٥٢١ ؛ ابن عذارى - البيان ج ١ ص ٣٦١

(٢) Levi - Provençal, Un texte arabe inédit sur L'histoire de L'Espagne Musulman dans la second moitié du XIeme siecle, Al-Andalus Vol. III, Fasc. 2, p. 240.

انظر أيضا : ابن خلدون - كتاب العبر ج ٦ ص ١٧٩

(٣) ابن الخطيب - الاحاطة ص ٥٢٢ ، انظر أيضا : ابن خلدون - كتاب العبر - ج ٦ ص ١٨٠

والى هذه الأسرة المغربية الأصل البربرية الجنس يرجع الفضل في تمصير غرناطة واتساع رقعتها ، فقد بدأ زعيمها زاوى بن زيرى عملية البناء والتعمير في موطنه الجديد مع مطلع القرن الخامس الهجرى تقريبا (الحادى عشر الميلادى) وقد شاركه في ذلك رجاله وجنوده مع من انضم اليهم من قبائل البربر الأخرى التى كانت تنزل الأندلس خاصة بعد أن وصلت إليها أعداد كبيرة من سكان مدينة البيرة القديمة التى حاق بها الخراب والدمار في سنة ٤٠١ هـ (١٠١٠ م) بسبب الحروب والفتن التى اجتاحت البلاد ^(١) الا أن مقام الأمير زيرى لم يطل في امارته الجديدة ، فبعد سبع سنوات تقريبا راوده الحنين الى وطنه الأصلي لا سيما وأنه كان يخشى على نفسه من ازدياد أمر الفتنة وعدم استقرار الأحوال بالأندلس — فعبّر البحر عائدا الى افريقية في سنة ٤١٦ هـ (١٠٢٥ م) فلقبه ابن عمه المعز بن باديس صاحب القيروان « بأحسن أحوال البر والتجلة وأنزله أرفع المنازل من الدولة وقدمه على الأعمام والقراة وأسكنه بقصره ^(٢) » وكان زاوى قبل رحيله عن غرناطة قد استخلف على ملكه ابن أخيه حبوس بن ماكسن — وظل بنو زيرى منذ ذلك التاريخ يتوارثون حكم الاقليم حتى ظهور المرابطين في المغرب وعبور يوسف بن تاشفين الى الأندلس واستيلائه على غرناطة في سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ^(٣) — ثم قبض على آخر ملوكها عبد الله بن بلكين

L. T. Balbas, Esquema demografico de la ciudad de Granada, Al-Andalus, (١)
Vol. XXI, Fasc. 1, p. 131.

(٢) ابن خلدون — العبر ج ٦ ص ١٨٠ ، انظر أيضا : ابن الخطيب —
الإحاطة ص ٥٢٥

Levi — Provençal, Un texte arabe inédit., Al-Andalus, Vol. III, Fasc. 2, p. 243.

(٣) دكتور السيد عبد العزيز — المغرب الكبير — العصر الإسلامى ص ٦٤٩ ،

ابن الخطيب — الإحاطة — مخطوط مكتبة الاسكوريال الذى نشره ليفى يروفنسال
في مجلة :

Al-Andalus, Vol. IV Fasc. 1, p. 126.

ونلاحظ أن المؤرخين العرب قد اختلفوا في كيفية استيلاء يوسف بن تاشفين أمير المرابطين على غرناطة — فذكر بعضهم أن جيوشه وصلت الى مشارف المدينة بعد أن علم أن أميرها عبد الله بن بلكين قد تحالف سرا مع الفونس السادس ملك قشتالة وخصص له مبلغا من المال يدفعه للملك المسيحي كل سنة — فتقدمت جيوش المرابطين لوضع نهاية لهذا الحلف — فلما علم ملك غرناطة خشي قوة المرابطين فخرج مع والدته للقاء يوسف والترحيب به وصحبه الى المدينة فدخلتها جيوش الأمير المرابطى واستولت عليها دون قتال .

وقد ذكر ذلك ابن الخطيب في الإحاطة كما رواها ليفى يروفنسال في مجلة :
Al-Andalus, Vol. IV, Fasc I, p. 126.

الملقب بالمظفر بالله والناصر لدين الله وأخذه أسيرا الى اغمات في بلاد المغرب .
وعلى هذه الصورة انتهى ملك بنى زيرى من غرناطة وأصبحت المدينة منذ ذلك
التاريخ مع اقليمها تكون جزءا هاما من أملاك المرابطين في الأندلس شأنها شأن
غيرها من مناطق اسبانيا الجنوبية .

ويرجع بناء السور الكبير الذى يدور حول مدينة غرناطة وقصبتها الى
جهود كل من الأميرين حبوس بن ماكسن (٤١٦ - ٤٢٩ هـ = ١٠٢٥ -
١٠٣٨ م) وابنه وخليفته باديس المظفر (٤٢٩ - ٤٦٧ هـ = ١٠٣٨ - ١٠٧٥ م)^(١)
وعلى ذلك أصبحت غرناطة منذ القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)
كبقية مدن الأندلس الاسلامية الهامة تضم داخل أسوارها القوية القسبة المنيعه
والمناطق السكنية الأخرى .

استمرت مدينة غرناطة بعد ذلك تكبر ويزداد عمرانها حتى أصبحت فى عهد
المرابطين والموحدين من بعدهم - (من أواخر القرن الخامس الى بداية القرن
السابع الهجرى = الحادى عشر - الثالث عشر الميلادى) - من أهم وأكبر
مدن الأندلس ، حتى لقد اتخذها الأمير أبو الطاهر تميم بن يوسف والى البلاد
زمن شقيقه الأمير على بن يوسف مقرا له . ولعبت غرناطة فى هذه الفترة دورا
هاما خلال الغارة المسلحة التى بدأها الفونسو الأول المحارب ضد أملاك
المسلمين فى سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) واستمرت مدة خمسة عشر شهرا استطاع
خلالها ملك أراجون بمعاونة المستعربين لاسيما نزلاء غرناطة منهم أن ينشر الذعر
والخراب فى أملاك المسلمين ، كما تمكن من مهاجمة غرناطة وضرب الحصار عليها
وكاد يقتحمها لولا قوة تحصيناتها وشجاعة المدافعين عنها والممدد الذى وصلهم
من المغرب ، مما اضطر المهاجرين الى رفع الحصار ومتابعة الحملة فى المناطق الأخرى
الجنوبية ، حتى وصلت جيوشهم الى مدينة « أرينسول » Arnisol جنوبى

= انظر أيضا الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ١٤٢ - ١٤٣

- كذلك ذكر مثل هذه الرواية : يوسف أشباخ فى تاريخ الأندلس فى عهد

المرابطين والموحدين - الترجمة العربية ص ٩٣

- بينما ذكر ابن خلدون أن يوسف استنزل صاحب غرناطة بعد أن علم

بتحالفه مع الملك المسيحي ضده وبذلك فتحت المدينة عنوة - العبر ج ٦ ص ١٨٧

انظر أيضا : السلاوى - الاستقصا ج ٢ ص ٤٨

L. T. Balbas, Al-Andalus, Vol. XXI, Fasc. 1, p. 131. (١)

غرناطة وعندها نشبت معركة كبيرة بين قوات ألفونسو وجيوش الأمير تيمم التي كانت تتبعه وتتحين الفرصة للانقضاض عليه ، الا أن ملك أراجون استطاع أن ينتزع النصر في النهاية من أعدائه الذين ألتهم الغنائم بعد تفوقهم في الضربة الأولى (صفر سنة ٥٢٠ = مارس سنة ١١٢٦) . وبعد هذا الانتصار واصلت الجيوش المسيحية تقدمها حتى ساحل البحر المتوسط قرب مدينة مالقه ومن هناك استدار الملك المنتصر وعاد الى مملكته في الشمال دون أن يحقق شيئاً اللهم الا تخريب المدن واحراق المزروعات ونشر الفوضى والذعر بين السكان المسلمين ، كما صحب معه في العودة عدة آلاف من المستعربين الذين خشوا على أنفسهم نتيجة خيانتهم للمسلمين ، كما طرد عدداً آخر منهم الى شمال افريقيا ونزلوا اقليمى مكناس وسلا (١) .

ومن ناحية أخرى فاننا نلاحظ أن أهمية غرناطة واتساع العمران فيها استمر في زمن الموحيدين باعتبارها قصبة من قصباتهم الهامة ؛ فقد بلغت مساحة المدينة المسورة في القرنين الخامس والسادس من الهجرة (الحادى عشر والثانى عشر للميلاد) ما يقرب من خمسة وسبعين هكتارا وكانت تضم أكثر من أربعة آلاف وأربعمائة منزل ، يقيم فيها أكثر من ست وعشرين ألف وأربعمائة نسمة (٢) .

وقد استمرت المدينة بعد ذلك في النمو والزيادة فتضاعف عدد سكانها عدة مرات حتى بلغ ما يقرب من نصف مليون نسمة في عهد ملوك بنى نصر ؛ بينما تقلص هذا العدد الى ثمانين ألف نسمة فقط بعد سقوط المدينة العظيمة في أيدي الملكين الكاثوليكين فرناندو وايزابلا في سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) (٣) وهذا من غير شك يعطى صورة صادقة لما كانت عليه المدينة الاسلامية من الازدهار والتقدم . وكان ربض البيازين Albaicin الذى تشرف عليه قلعة الحمراء بواجهتها الشمالية من أهم أحيائها العربية وما زال هذا الربض قائما الى يومنا هذا يحمل اسمه الأول وطابعه الاسلامى القديم بمنازله الصغيرة وشوارعه الضيقة .

(١) عن هذه الحملة العسكرية انظر كتاب الحلل الموشية « Al-Hulal Al Mawsiyya » الترجمة الاسبانية لاوتى ميراندا - ص ١٠٩ - ١١٥ « A. Huici Miranda »
انظر أيضا الإحاطة - ص ١١٤ وما بعدها .

(٢) L. Tarres Balbas, Al-Andalus, Vol. XXI, Fasc. 1 pp. 139-140.

(٣) The Encyclopaedia of Islam, Vol. II, p. 176.

فاذا كانت قرطبة قد نالت قصب السبق كعاصمة للأمويين بالأندلس لمدة تزيد على القرنين ونصف القرن ، وتبعتها أشبيلية لفترة أخرى تجاوزت المائة والستين عاما كحاضرة للبلاد زمن كل من المرابطين والموحدين ، فان مدينة غرناطة استمرت من بعدها عاصمة لمملكة بنى نصر لفترة تتعدى المائتين والستين عاما ، بعد أن انحصر ملك المسلمين في الأندلس داخل حدودها على أثر سقوط قرطبة عاصمة الخلافة الأموية سنة ٦٣٣ هـ (يونيو سنة ١٢٣٦ م) ومن بعدها أشبيلية سنة ٦٤٦ هـ (نوفمبر سنة ١٢٤٨ م) في يدى فرناندو الثالث ملك قشتالة وليون^(١) — وبذلك حق لقاعدة المسلمين الجديدة وملاذهم بالأندلس أن تنبئ على قرينتها ، قائلة بلسان أحد أدباء الأندلس « أبو بحر صفوان بن ادريس » :

« لى المعقل الذى يمتنع ساكنه من النجوم ، ولا تجرى الا تحته جياذ الغيث السجوم ، فلا يلحقنى من معاند ضرر ولا حيف ، ولا يهتدى الى خيال طارق ولا طيف ، فاستسلموا قولاً وفعلاً ، فقد أفلح اليوم من استعلى . لى بطاح تقلدت من جداولها أسلاكاً ، وأطلعت كواكب زهرها فعادت أفلاكاً ، ومياه تسيل على أعطافى كأدمع العشاق ، وبرد نسيم يردد ماء المستجير بالانتشاق ، فحسنى لا يطمع فيه ولا يحتال .. فما لكم تعززون لفخرى وتنتسئون ، وتتأخرون فى ميدانى وتقدمون ، تبرؤا الى مما ترعمون ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون »^(٢) .

ولا شك أن حاضرة بنى الأحمر صادقة فيما ذهبت اليه من فخر وسمو وتيه على أقرانها من كبريات مدن الأندلس ، فموقعها ممتاز اذ تقع على سفح سلسلة جبال سيرايفاد (Sierra Nevada) — « جبال الجليد » ، وتشرف من هذا المكان على الوادى الخصيب المتسع الممتد فى شمالها والذى وصفه الحميرى بأنه « أطيب البقاع نفعة وأكرم الأرضين تربة ولا يعدل به مكان غير غوطة دمشق وشارحة القيوم »^(٣) وتكسو هذه المساحات الواسعة البساتين الفيحاء وأشجار الفاكهة المختلفة ، كالنفاح والرمان والتين والقسطل والكروم ، بجانب الحضر

(١) Pedro A. Bleye ; Manual de historia de Espana, T. I, pp. 677—679.

(٢) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٦١

(٣) الحميرى : الروض المعطار — ص ٢٤

والحبوب لا سيما الحنطة والذرة ، كما تكثر به المواد الأفوية من العطور والطيب والعود وغيرها^(١) . وما يزيد من مكانة غرناطة وأهمية اقليمها أنه يوجد به مناجم للمعادن النفيسة والهامة كالذهب والفضة والحديد والرصاص وغيرها ، وبجانب ذلك كله فقد اشتهرت هذه المنطقة بالمنسوجات الحريرية التي كان لها سوقا رائجة في الأندلس والبلاد المجاورة بالإضافة الى الكتان « الذي يربو حيدده على كتان النيل ويكثر حتى يصل الى أقاصى بلاد المسلمين »^(٢) ومن هنا تأتي أهمية هذه الكورة الاقتصادية ، وغنى أهلها وافتخارهم بمكائنها وثروتها النباتية والطبيعية ، واعتدال مناخها وطيب نسيمها وحسن مقامها . وعلى ذلك فلا يذكر تاريخ اسبانيا الاسلامية الا ويقفز الى الأذهان اسم غرناطة ويلمع في الخيال بريق حمرائها التي احتفظت بين يديها بشعلة العلم والفن وانتشر من فوق مناراتها نور المعرفة والحضارة العربية في اسبانيا المسيحية ، بل وفي أوروبا عامة ، قويا ساطعا وهاجا لحقبة طويلة من الزمن ، بعد أن انطفأ وخبث أضواؤه من فوق منابر قرطبة وأشبيلية وطليطلة وسرقسطة ، وغيرها من المدن الأندلسية المعروفة التي لعبت دورا هاما وبارزا في تاريخ اسبانيا الاسلامية في جميع فروع الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والفكرية والاقتصادية والفنية والعسكرية خلال القرون الثمانية التي استمر خلالها حكم العرب لهذه البلاد من أواخر القرن الأول الهجري الى أواخر القرن التاسع (بداية القرن الثامن الميلادي الى أواخر القرن الخامس عشر) .

ويرجع ظهور مملكة غرناطة الى جهود رجل عربي طموح هو « محمد بن يوسف بن نصر » المعروف بابن الأحمر ، يتصل في نسبة الأول بسعد بن عبادة سيد الخزرج وأحد كبار صحابه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار . كان ابن الأحمر قوى الشخصية ، عالى الهمة ، كما كانت له مقدرة فائقة على مجابهة الأحداث والاستفادة منها كما يظهر من سيرته وتاريخ مملكته .

دخل أسلافه الأندلس مع جيوش الفتح واستقر مقامهم عند حصن أرجونة (Arjona) — (الى الشمال من غرناطة بالقرب من مدينة جيان Jaén) —

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ص ١٠٥ ، المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١١٦

(٢) ابن الخطيب — الاحاطة ص ١٠٤ ، الحميرى — الروض المعطار ص ٢٤

(٣) الحميرى — الروض المعطار ص ٢٤ ، ابن الخطيب — الاحاطة — ص ١٠٥

ثم أخذت أسره ابن نصر منذ ذلك الحين تتكاثر وتزداد عدداً ، وتقوى مكانة حتى آلت زعامتها الى محمد هذا الذى عرف بالشيخ ^(١) .

وعندما ضعفت قبضة الموحدين على أملاكهم فى الأندلس فى مطلع القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) لا سيما بعد انتصار الفونسو الثامن (Alfonso VIII) ملك قشتالة وحلفائه من ملوك أسبانيا المسيحيين على محمد الناصر الخليفة الموحدى فى موقعة العقاب Las Navas de Tolosa سنة ٦٠٩ هـ (يوليو سنة ١٢١٢ م) ^(٢) ، وجد عدد من كبار رجالات الأندلس الفرصة سانحة لشق عصا الطاعة على الموحدين ، فثاروا فى مناطق متعددة بالبلاد وحاولوا السيطرة على ما تحت أيديهم من أملاك الدولة والاستقلال بها عن السلطة المركزية فى مراكش عاصمة الخلافة الموحدية بالمغرب . وكان من بين هؤلاء الثوار محمد بن يوسف بن نصر الذى « طار اسمه فى الأندلس وآل ذلك أن قدمه أهل حصنه على أنفسهم » ^(٣) فنصبه أهل أرجونة — مسقط رأسه — فى سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣٢ م) واليا عليهم ، ثم ما لبث أن دخلت فى حوزته أيضاً مدينة جيان فى السنة التالية . ولما قتل أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود المتوكل على الله فى سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م) الذى ثار بدوره على الموحدين فى مدينة مرسية واتخذها عاصمة لمملكته فى شرق الأندلس ، خشى أهل غرناطة — بعد مقتل أميرهم ابن هود — على مدينتهم من جيوش المسيحيين التى كانت فى تلك الأثناء تضغط بقوة على أملاك المسلمين فى محاولات شديدة ومتكررة لتزيق وحدتها والاستيلاء عليها ، فاتصلوا بابن الأحمر أثناء وجوده فى جيان وبعثوا اليه ببيعتهم والدخول فى طاعته ، فاستجاب لرغبتهم وانتقل الى غرناطة واتخذها منذ ذلك الحين — فى سنة ٦٣٥ هـ — مقاماً له وحاضرة لمملكته الجديدة ^(٤) .

(١) المقرئ — نفع الطيب ج ١ ص ٤٢١

(٢) عن هذه الموقعة الكبيرة والحاسمة انظر :

A. Huici Miranda, Las Grandes Batallas de la Reconquista, pp. 253—278.

انظر أيضاً — السلاوى — الاستقصاء ج ٢ ص ١٩٦ — ص ٢٠٠

يوسف اشباخ — تاريخ الأندلس ص ٣٥٤ — ص ٣٧٣

(٣) المقرئ — نفع الطيب — ج ١ ص ٢٠١

(٤) المرجع السابق — ج ١ ص ٤٢٢

انظر أيضاً : ابن الخطيب — الاحاطة ص ١٤٧ — ١٤٨

ولم يتوان مؤسس مملكة غرناطة منذ وصوله الى مقره الجديد عن العمل بهمة ونشاط على تدعيم مركزه وتثبيت سلطانه وحماية نفسه وأسرته ضد أية محاولة من جانب أعدائه ومنافسيه للاطاحة به أو الثورة عليه ، فما وافت السنة التالية ٦٣٦ هـ (١٢٣٩ م) الا كان رأيه قد استقر على انشاء حصن يحمى به ويلوذ اليه ، فركب من المدينة الى الأطلال المحيطة بها والمرتفعات القريبة منها يستكشف طبيعة أرضها ويختبر قوة مناعتها عله يجد من بينها مكانا يصلح لهذا الغرض ، فاستقر به المطاف في نهاية الأمر في منطقة « السبيكة » في الجانب الشمالى الشرقى من مدينة غرناطة (شكل ١) حيث كانت توجد أطلال احدى القلاع القديمة ، ووضع ابن الأحمر في هذا الموضع المرتفع أساس حصنه الجديد « قصبة الحمراء » ثم أمر باقامة البناء والعمل على اتمامه بسرعة . ولم يغب عن ذهن هذا القائد المجرب توفير الماء اللازم لقصره فأمر بعمل سد على نهر حدرة (Darro) الذى كان يجرى في الجهة الشمالية تحت أقدام التل الذى شيدت فوقه القلعة لتؤخذ منه المياه وترفع الى الحصن بواسطة سواقي . وقد أشار



موقع الحمراء بالنسبة إلى مدينة غرناطة
(شكل ١)

صاحب كتاب « البيان المغرب » الى ذلك بقوله : « وفيها (في سنة ٦٣٦ هـ) — ركب أبو عبد الله بن الأحمر من غرناطة الى موضع الحمراء وأجال فيها نظره وخط أساس الحصن وجعل فيه من حفره وما تمت السنة الا والحصن مشيد البناء حصينه وقد جاءه من ماء الوادى برفع سد وحفر ساقية معينة ^(١) » وفي نفس الوقت الذى كان فيه العمل جاريا فى اقامة القلعة ، كان أمير غرناطة وحاكمها الجديد يوسع رقعة مملكته على حساب المدن والامارات الاسلامية المجاورة ، فضم اليه مدينتى مالقة وألمرية وأحوازهما ، وبذلك وصلت حدود دولته الى سواحل اسبانيا الجنوبية الشرقية ، كما شملت بعد ذلك فى سنة ٦٦٣ هـ مدينة لورقة من جهة الشرق ^(٢) .

ولم تقتر عزيمة محمد بن يوسف ولم يخلد الى الراحة والدعة ، بل استمر طيلة مدة حكمه التى امتدت الى ما يقرب من ست وثلاثين سنة بعد دخوله غرناطة ، (٦٣٥ — ٦٧١ هـ = ١٢٣٨ — ١٢٧٣ م) يقاتل لتحقيق مطامعه وأهدافه فى تأسيس مملكة قوية كبيرة ، مما دفعه الى خوض العديد من الحروب ، خاصة ضد بنى مرين أصحاب المغرب للاستيلاء على أملاكهم فى المناطق الجنوبية من اسبانيا . وقد استطاع الأمير الأندلسى أن ينتصر عليهم فى كثير من المعارك ^(٣) ، وبذلك ثبتت دعائم مملكته واستقر سلطانه وازداد نفوذه وذاعت شهرته فى المناطق المجاورة حتى وافاه الأجل فى سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٣ م) فخلفه ابنه وسميه محمد الثانى « الفقيه » (٦٧١ — ٧٠١ هـ = ١٢٧٣ — ١٣٠٢ م) الذى استكمل بناء القلعة (القصبة) واليه أيضا يرجع الفضل فى اتمام جانب كبير من أسوار الحمراء ^(٤) . وتولى أمر المملكة من بعده ابنه أبى عبد الله محمد الثالث المخلوع (٧٠١ — ٧٠٨ هـ = ١٣٠٢ — ١٣٠٨ م) « وكان من أعظم أهل بيته صيتا

(١) ابن عذارى — البيان المغرب فى اخبار ملوك الأندلس والمغرب ج ٤

ص ٤٠٢ — ٤٠٣

انظر أيضا الترجمة الاسبانية لايوشى ميراندا .

A. Huici Miranda ; Al-Bayan Al-Mugrib Fi Ijtisar Ajbar Muluk Al-Andalus Wa Al-Magrib, Los Almohades, Tomo II, p. 125.

(٢) المقرئ — نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٢

(٣) المرجع السابق — ص ٢٢٣

Ars Hispaniae, Vol. IV, p. 84.

(٤)

وهمة»^(١) ، كما اشتهر في نفس الوقت بالغلظة والقسوة في معاملة الرعية مما دفع أهل غرناطة للتآمر عليه واقصائه عن الحكم في شوال سنة ٧٠٨ هـ وتنصيب أخيه أبي الجيوش نصر حاكما على البلاد . ولم يمكث محمد الثالث بعيدا عن الحكم مدة طويلة ودبرت له مؤامرة جديدة أودت بحياته حيث مات غريقا في أوائل شوال سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) بعد سنتين تقريبا من خلعه^(٢) .

والى هذا الأمير المخلوع يرجع الفضل في بناء المسجد الجامع بالحمراء وتزيينه وتجميله ، حتى وصفه الوزير الأديب ابن الخطيب «.. بالطرف والتنجيد والترقيش وفخامة العمد واحكام أنوار الفضة وابداع تراها»^(٣) . وقد ظل هذا المسجد قائما حتى النصف الثاني من القرن العاشر للهجرة (السادس عشر الميلادي) ، عندما أزيل في زمن الامبراطور فيليب الثاني بن شارلكان ، وبنى مكانه كنيسة سانت ماريا الحالية Santa Maria^(٤) كذلك بنى الأمير محمد الثالث (المخلوع) حماما بازاء المسجد وجعله وقفاً عليه^(٥) ، وقد تهدم هذا الحمام بدورة وظلت أطلاله في مكانها أثرا باقيا تشهد على وجوده .

وقد تعاقب على حكم غرناطة بعد هؤلاء الثلاثة الأول ثمانية عشر سلطانا ، تولى بعضهم أمر المملكة أكثر من مرة لصغر السن أو قلة الحيلة أو ضعف قبضتهم على البلاد ، بينما كان بعضهم الآخر على جانب كبير من الذكاء والقوة والسطوة والثروة ، حتى يمكننا أن نتخيل هذه الفترات المزدهرة اللامعة في تاريخ غرناطة ، ومظاهر الغنى والجاه ، وصور النعمة السابغة الرائعة التي كان يحياها هؤلاء السلاطين ، تتخيل كل ذلك واضحا جليا في مظاهر الطبيعة الفاتنة ممثلة في بساتين الحمراء وحدائقها وخمائلها وكثرة قاعاتها وأبوابها التي تفنن المسلمون في اخراجها ، وأبدعوا في زخرفها وأفرطوا في زينتها ، فغدت صورة صادقة لألوان

(١) ابن الخطيب - الاحاطة - ص ٥٥٢

(٢) المرجع السابق ص ٥٦٠ - ٥٦٢

(٣) المرجع السابق ص ٥٥٤ - ٥٥٥

انظر أيضا : محمد عبد الله عنان - الآثار الأندلسية الباقية ص ١٦٠ ، ص ١٧٥

(٤) L. Torres Balbas ; Cronologia de las construcciones de la Casa Real de la Alhambra, Ab-Andalus, Vol. XXIV, Fasc. 2, p. 402.

انظر أيضا : محمد عبد الله عنان - الآثار الأندلسية الباقية ص ١٧٦

(٥) ابن الخطيب - الاحاطة - ص ٥٥٥

الجمال التى كان يعبق بها جو هذا القصر المنيف ، والنعمة الموفورة والترف
البالغ اللذين كان يتمتع بهما ملوك غرناطة .

وقد بلغت هذه المملكة ذروة مجدها السياسى والحضارى وقمة نضجها
الفكرى والأدبى خلال القرن الثامن من الهجرة (الرابع عشر الميلادى) خاصة
فى سلطنة كل من أبى الحجاج يوسف الأول (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ = ١٣٣٣ -
١٣٥٤ م) « لباب هذا البيت وواسطه هذا العقد وطراز هذه الحلية ^(١) » ،
وابنه محمد الخامس الغنى بالله الذى حكم على فترتين (٧٥٥ - ٧٦٠ هـ ، ٧٦٣ -
٧٩٣ هـ = ١٣٥٤ - ١٣٥٨ م ، ١٣٦٢ - ١٣٩١ م) . وقد وزر لهما لسان
الدين بن الخطيب ، وهو الذى يعتبر بحق مثالا صادقا لعصر التقدم والازدهار فى
تاريخ غرناطة ، بصورة خاصة ، وعلماء من أعلام المسلمين فى الأندلس بصورة
عامة ، حتى خصة الأديب والمؤرخ المغربى « أحمد بن محمد المقرئ » الذى عاش
فى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) ، بالجزء الأكبر من كتابه
المعنون بـ « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين
ابن الخطيب » وهو مرجع من أهم المراجع فى تاريخ المسلمين السياسى والأدبى
بالأندلس .

كان ابن الخطيب من غير شك ، عبقرية متشعبة النواحي « فهو طبيب ،
وفيلسوف ، وهو كاتب وشاعر من الطراز الأول ، وهو مؤرخ بارع ، وهو
أخيرا وزير وسياسى ثاقب النظر قوى الادراك » ^(٢) ، ترك آثاره واضحة فى
مؤلفاته الضخمة المتعددة التى خلفها لنا ، والتى دار معظمها عن تاريخ مملكة
غرناطة التى تقلد فى زمن أعظم سلاطينها أرفع مناصبها . ومن أشهر كتبه التى
تجاوزت الخمسين مؤلفا كتاب الاحاطة فى اخبار غرناطة ، التاج المحلى فى
مساجلة القدر المعلى ، وهو مختصر لكتابه السابق (الاحاطة) ، اللوحة البدرية
فى الدولة النصرية وهو كما يظهر من عنوانه يعالج تاريخ دولة بنى نصر ملوك
غرناطة ، وكذلك كتبه : طرفة العصر فى تاريخ بنى نصر ، ريحانة الكتاب ونجعة
المنتاب ، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الاسلام ، بستان

(١) ابن الخطيب - الاحاطة ص ١٤٨

(٢) ابن الخطيب - الاحاطة - انظر المقدمة التى كتبها محقق الكتاب الأستاذ

محمد عبد الله عنان ص ٣١

الدول وهو كتاب عن السياسة ، السحر والشعر ، وهو كتاب حوى مجموعة من قصائد كبار الشعراء فى المشرق والمغرب على السواء أمثال : ابن نباتة وابن الرومى وابن المعتز والبحتري وابن عبدون وابن صمداح وابن هذيل وغيرهم . وكتابه عن الطب المعنون باسم : عمل من طب لمن حب ^(١) .

وقد جاءت كتابات ابن الخطيب فى « الاحاطة » عن العظمة والتقدم اللذين بلغتهما غرناطة ، صورة صادقة لعصره ، انطبعت مظاهرها على حياة الناس ، وطرق معيشتهم فى جميع النواحي السياسية والحربية والدينية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، وكان الرخاء والثراء والترف والمتعة محور هذه الحياة التى بلغت من الافتتان والبذخ حدا بعيدا .

ولقد كانت المرأة فى كل زمان ومكان هى عنوان المجتمع ومرآته الرقيقة التى تعكس حياتها الخاصة والعامة معا ، درجة التقدم والحضارة التى وصل اليها هذا المجتمع والمدى الذى بلغه أفراده من رقة الشعور وتهذيب النفس والقدرة على الاحساس بالجمال وتذوق الفن فى صورته المتعددة . ومما يؤيد ذلك ما ذكره المؤرخ الأديب ابن الخطيب عن نساء غرناطة اذ يقول :

« وحریمهم حريم جميل ، موصوف بالسحر وتنعم بالجسوم واسترسال الشعور ونقاء الثغور وطيب النشر وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة ، الا أن الطول يندر فيهن ، وقد بلغن من التفنن فى الزينة لهذا العهد ، والمظاهرة بين المصبغات ، والتنفيس بالذهبيات والديباقيات ، والتماجن فى أشكال الحلى الى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين الدهر ، ويكفكف الخطب ، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة ، وأن يعامل جميع من بها بستره ، ولا يسلبهم خفى لطفه ، بعزته وقدرته » ^(٢) .

وقد أبرز لنا هذا النص مدى تفنن نساء غرناطة فى استعمال أدوات الزينة المختلفة والحلى والمجوهرات النفيسة وأنواع الملابس الفاخرة التى اشتهر بها

(١) عن مؤلفات ابن الخطيب وأهميتها انظر : الاحاطة - المقدمة من ص ٦٨ الى ص ٧٨

(٢) الاحاطة - ص ١٤٤ - ١٤٥

الاقليم كالحرير والكتان ، وغيرها من مظاهر الغنى والترف والجمال التى تعبر عن سمو الفنون والصناعات وتؤكد مدى التقدم الذى بلغه أهل غرناطة فيها .

ومن ناحية أخرى ، لم يغفل ابن الخطيب فى كتاباته صفة الرجال من سكان غرناطة ، كما عدّد قبائلهم ، كذلك تحدث عن شجاعة جندها من العرب والبربر على السواء ، فوصف ملابسهم وأسلحتهم ودروعهم وتطورها حتى تساير ما كان عليه الحال فى جيوش أعدائهم ملوك أسبانيا المسيحيين ، وفى ذلك يقول : « وجندهم صنفان ، أندلسى وبربرى ، والأندلسى منها يقودهم رئيس من القرابة أو خصى من شيوخ الممالك ، وزيهم فى القديم شبه زى أقتالهم وأضدادهم من جيرانهم الفرنج ، اسباغ الدروع ، وتعليق الترسة ، وحفا البيضات ، واتخاذ عراض الأسنة ، وبشاعة قراييس السروج ، واستركاب حملة الرايات خلفه ، كل منهم بصفة تختص بسلاحه ، وشهرة يعرف بها . ثم عدلوا الآن عن هذا الذى ذكرنا ، الى الجواش المختصرة ، والبيضات المرهفات ، والسروج العريية ، والبيب اللطية ، والأسل العظمية » .

كذلك يظهر بجلاء ثراء ملوك غرناطة وبذخهم وتقدم الصناعات المختلفة فى مملكتهم ، كصناعة الحلى والأواني المنوعة وآلات الحرب والقتال التى كانت من ألزم الصناعات وأهمها بالنسبة الى ظروف المملكة وما انتهى اليه حال المسلمين فى الأندلس فى عصور المملكة الأخيرة ، يظهر ذلك كله واضحا فى حديث صاحب « نفح الطيب » عما كانت تضمه خزائن الحمراء بين جدرانها من النفائس والثروة والأسلحة عند استسلامها للملكين الكاثوليكين فيقول :

« .. كانت خزانة هذه الدار النصرية مشتملة على كل نفيسة من الياقوت ، وبتيمة من الجواهر وفريدة من الزمرد وثمينة من الفيروزج ، وعلى كل واق من الدروع وحام من العدة وماض من الأسلحة وفاخر من الآلة ونادر من الأمتعة فمن عقود فذة وسلوك جمّة وأقراط تفضل على قرطى مارية نفاسة فائقة وحسنا رائقا ، ومن سيوف شواذ فى الابداع ، غرائب فى الاعجاب ، منسوبات الصفائح فى الطبع ، خالصات الحلى من التبر ، ومن دروع مقدرة السرد ، ملاحمة النسيج واقية للناس فى يوم الحرب ، مشهورة النسبة الى داود نبي الله ، ومن جواشن

سابعة اللبسة ، ذهبية الخلية ، هندية الضرب ، ديباجية الثوب ، ومن بيضات عسجدية الطرق ، جوهريّة التنفيذ ، زبرجدية التقسيم ، ياقوتية المركز ، ومن مناطق لجينية الصوغ عريضة الشكل مزججة الصفح ، ومن درق لمطية ، مصمته المسام ، لينة المجسة ، معروفة المنعة ، صافية الأديم ، ومن قسى ناصعة الصبغة ، هلالية الحلقة ، منعطفة الجوانب ، زارية الحواجب ، الى آلات فاخرة من أوتار نحاسية ، ومنابر بلورية ، وطيافير دمشقية ، وسبجات زجاجية ، وصحاف صينية ، وأكواب عراقية ، وأقداح طباشيرية ، وسوى ذلك ما لا يحيط به وصف ولا يستوفيه العد .. » (١)

وبالرغم من كل هذه النعمة والغنى والقوة ، فان غرناطة لم تستمر طويلا تنعم بالحياة المستقرة الهادئة لأن حرب الاسترداد La Reconquista التى تزعمتها مملكتنا قشتالة وأراجون أخذت تزداد وتشتد على أطراف المملكة ، مما دفع جميع مسلمى الأندلس الى ترك مدنها واللجوء الى أحواز العاصمة . وفى نفس الوقت بلغ التنافس والتنازع على النفوذ والسلطان بين أفراد البيت المالك أشده ، مما دفع بعضهم الى طلب العون والمساعدة من الممالك المسيحية لتحقيق أطماعهم الشخصية ، ولكن أعداءهم كانوا « يضربون بينهم بالخداع والمكر والكيد » (٢) فاضطربت أحوال البلاد وكثرت المؤامرات وانحسرت حدود المملكة الواسعة فى آخر الأمر داخل أسوار عاصمتها ، فضربت جيوش الملكين المسيحيين عليها حصارا شديدا محكما فى جمادى الآخرة سنة ٨٩٦ هـ (ابريل سنة ١٤٩١ م) ، وكلما اشتد الحصار زادت نار الفتنة اشتعالا ، ووجد اليأس والقنوط طريقهما الى قلوب المسلمين نتيجة للجوع والغلاء . وفى النهاية تأمر السلطان أبو عبد الله محمد بن على بن نفسه Boabdil على تسليم المدينة وقلعتها الحصينة ، فى مقابل شروط معينة أهمها : تأمين السكان وأموالهم ومتاعهم — اطلاق جميع الأسرى من أهل غرناطة المسلمين — ترك الحرية للمسلمين لمزاولة شعائهم الدينية فى المساجد — عدم التعرض لهم اذا رغبوا فى العبور الى العدو (المغرب) ، الى غير ذلك من الشروط (٣) .

(١) المقرئ — نفع الطيب ج ٦ ص ٢٥٦

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٤

(٣) عن هذه الشروط انظر المقرئ — نفع الطيب ج ٦ ص ٢٧٧ — ٢٧٨

وقد أرسلت هذه الشروط مع سفارة سرية الى ملك قشتالة الذى وافق عليها وطلب بدوره تقديم خمسمائة من كبار رجال المسلمين كرهائن ، فأجيب الى طلبه ^(١) فتقدمت قوة مسيحية نحو قصر الحمراء وتسلمت الى داخله دون مقاومة . فتلقى السلطان أبو عبد الله محمد (الحادى عشر) قائدها فى برج قمارش Torre de Comares وسلمه مفتاح القلعة فقط دون مفتاح المدينة ^(٢) - فعاد القائد الى معسكر سيده الذى كان يبعد بحوالى اثنى عشر كيلومترا عن أسوار المدينة وصحبه والملكة ايزابلا الى الحمراء فدخلها فرناندو وايزابلا مع جيوشهما فى الثانى من ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ (٢ يناير سنة ١٤٩٢ م) فأقيمت مراسم احتفال تسليم المدينة ورفع العلم المسيحى والصليب بعد أن أنزل العلم الغرناطى فوق برج الحراسة Torre de la Vela الذى يتوسط مبنى القصة القديمة باعتباره أكبر وأعلى أبراج الحمراء قاطبة . وبذلك انتهى آخر مظهر من مظاهر السيادة الاسلامية بالأندلس بعد أن ظلت ما يقرب من ثمانية قرون تخضع لحكم المسلمين الذين سطوروا خلالها فى تاريخ هذه البلاد سجلا حافلا بالفخار والمجد والرفعة فى جميع فروع الحياة ومظاهر الحضارة المختلفة .

وبعد سبع سنوات من تسليم غرناطة واستقرار الحكم للمسيحيين ، نقض الملكان الكاثوليكيان شروط التسليم وألزموا المسلمين الذين ظلوا فى مدينتهم على اعتناق النصرانية مما دفع أهل البيازين للثورة على حكاهم ، ولكنهم أخذوا بشدة وقسوة شأنهم فى ذلك شأن جميع المسلمين ، مما اضطرهم فى النهاية الى الهروب والفرار لبلاد المغرب حيث نزلوا فاس وغيرها من المدن ، حتى خلت الأندلس بعد فترة أخرى من المسلمين ^(٣) ، بينما ارتد المستعربون عن الاسلام وعادوا الى دين المسيحية ، وهم الذين عرفوا منذ زمن الدولة الأموية وعصر الطوائف بحقدهم على المسلمين وكيدهم لهم .

قصر الحمراء (La Alhambra)

أما قصر الحمراء فهو دون منازع من أهم بل انه أعظم آثار المسلمين بالأندلس دارت حوله القصص ، وشهدت قاعاته ألوانا عده من العز والنعمة والجمال ، جنبا

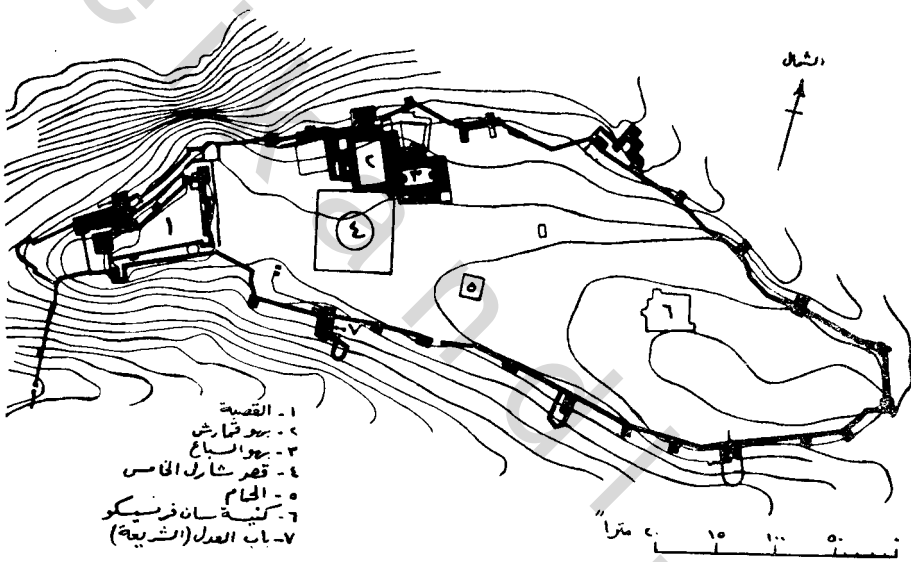
(١) نفس المرجع ج ٦ ص ٢٧٧

(٢)

Al-Andalus, Vol. XX, Fasc. 2, p. 309.

(٣) المقرئ - نفح الطيب - ج ٦ ص ٢٧٩

الى جنب مع الحوادث والأحداث المثيرة . ويعرف هذا القصر اليوم في اسبانيا والعالم أجمع باسم « الهامبرا » La Alhambra ويربض ذلك القصر بين سلسلة جبال الثلج « سيرا نيفادا » على ربوة مرتفعة شرقي غرناطة ، يشرف منها على ربض « البيازين » أشهر وأكبر أرباض العاصمة . ويعتبر هذا القصر — في الحقيقة — بمثابة قلعة محصنة أو مدينة ملكية منيعة « Une sorte de ville »^(١) « royal dominant » بالنظر الى أسواره الضخمة وأبراجه المتعددة ومراقفه المتنوعة (شكل ٢) .



(شكل ٢)

أسوار الحمراء الخارجية بأبراجها العديدة وأهم المباني الداخلية
(نقلا عن تورس بلباس)

شيد هذا القصر على مساحة غير منتظمة — تكاد تكون بيضاوية الشكل ، يصل أقصى طولها من الغرب الى الشرق ٧٤٠ مترا بينما يبلغ أكبر اتساع لها ٢٢٠ مترا عند الوسط تقريبا^(٢) أى أنه يحتل مساحة ثلاثين (٣٠) دونما تقريبا بما فيه القسبة القديمة التي توجد في أقصى الطرف الغربى .

G. Marçais, Manuel d'Art Musulman, T. II, p. 534.

Ars Hispaniae, Vol. IV, p. 83.

(١)

(٢)

ويعتبر قصر الحمراء سجلا لتاريخ أسرة بنى نصر ، ملوك غرناطة الذين امتد حكمهم على هذا الجزء من الأندلس الى أكثر من قرنين ونصف من الزمان . وقد بدأ باقامة الجزء الغربى المعروف بالقصبة من هذه « المدينة » العظيمة السلطان محمد بن يوسف بن الأحمر — مؤسس هذه الدولة — بعد دخوله غرناطة فى سنة ٦٣٥هـ كما مر بنا من قبل ، وأتمها من بعده ابنه محمد الثانى الذى حكم ما يقرب من ثلاثين سنة ، واليه ينسب أيضا بناء جانب كبير من الأسوار الممتدة الى الشرق من القصبة حول « المدينة الكبيرة » ثم استكمل خلفاؤهما بقية الأسوار كما أقاموا الكثير من المنشآت والمرافق الداخلية للمسجد والحمام وغيرها .

أما المباني الحرية الأخرى كالأسوار والأبراج والبوابات ، وكذلك المنشآت المدنية التى ما تزال تحتفظ بجلالها وروائع زخرفتها كالقاعات والأبهاء والحمامات والقباب ، فمعظمها يرجع الى عصر السلطان أبى الحجاج يوسف الأول وولده وخليفته محمد الخامس الغنى بالله كما أوضحنا فى الصفحات السابقة ، واليهما أيضا يرجع الفضل فى إبراز عظمة الحمراء وفخامتها حتى أصبحت بحق صفوة ما أخرجته العمارة الاسلامية فى الأندلس .

ولم تقف أعمال البناء والاضافة والتقوية والترميم بعد هذين الملكين بل ظلت الحمراء طيلة عهود خلفائها تحظى بالعناية والرعاية والاهتمام من جميع السلاطين باعتبارها منزلهم ومركز السلطة فى المملكة ، وقد استمر ذلك الاهتمام حتى قبيل سقوطها فى أيدي الملكين الكاثوليكيين عندما أمر السلطان سعد المستعين بالله ابن على فى ولايته الثانية (٨٥٧ — ٨٦٦هـ — ١٤٥٣ — ١٤٦١م) بزيادة تحصين وتقوية بعض أبوابها الضخمة فى أسوارها الشمالية والجوية (١) .

وللوصول الى الحمراء — على الأقدام — لابد للزائر من قطع الطريق المنحدر المجهد الذى يصل بين أسفل الربوة وقمتها التى تنتصب فوقها القلعة بأسوارها وأبراجها وقبابها العديدة الرشيقة ، وينتهى هذا الطريق من أعلاه

عند باب الشريعة (أو باب العدل) (Puerta de la Justicia) (شكل ٣)
الذى أنشأه السلطان أبو الحجاج يوسف الأول في سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) .
ويعتبر هذا الباب المدخل الرئيسي الحالى للحمراء ، كما كان من أهم أبوابها
القديمة أيضا . والمدخل داخل برج مربع ضخيم تتقدمه فتحة معقودة بعقد « منفوخ
متجاوز » يوصل الى الباب الذى يعلو عقده لوحة رخامية عليها سطران من
الكتابة النسخية تتضمن اسم الباب واسم منشئه وتاريخ البناء مع بعض عبارات
الدعاء ^(١) . والى عصر هذا السلطان أيضا — أبو الحجاج يوسف الأول —

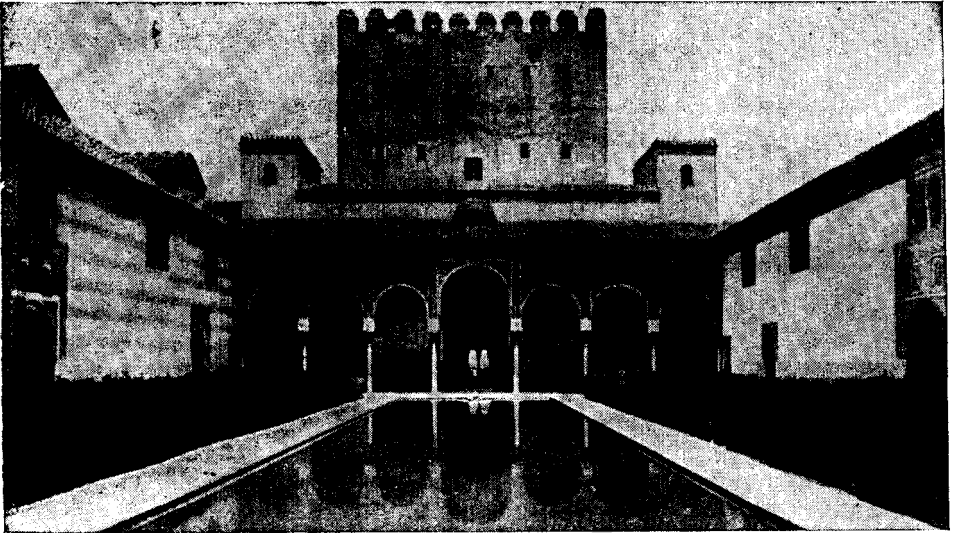


(شكل ٣)

باب العدل (الشريعة) المدخل الحالى للحمراء
(من تصوير المؤلف)

(١) محمد عبد الله عنان — الآثار الأندلسية الباقية — ص ١٥٦

يرجع بناء باب الغندور القائم في السور الجنوبي والذي يعرف حاليا باسم (باب الطباق السبع) (Puerta de Siete Suelos) بالإضافة الى مجموعة من الأبراج التي تتخلل السور الشمالى وهى : برج المطرقة (Torre de la Machuca) — و برج المتزين (Torre del Peinador) — و برج القنديل (Torre del Candil) و برج الأسيرة (Torre de la Cautiva) — و برج قمارش (Torre de Comares)^(١) الذى يعتبر جزءا من القصر العربى القديم (شكل ٤) وتعد قاعة هذا البرج



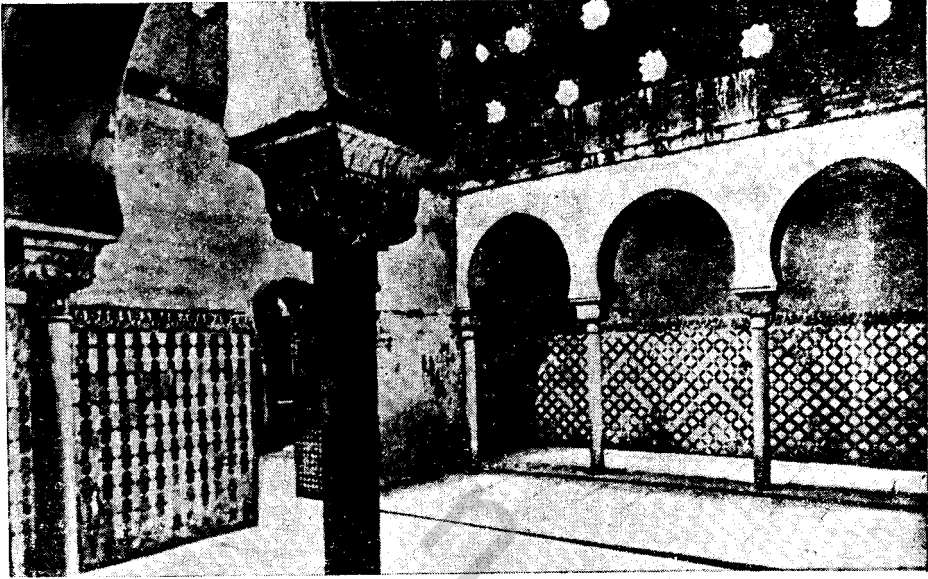
(شكل ٤)

بهو البركة (الريحان) وظهر المدخل المؤدى الى قاعة قمارش (أو قاعة السفراء) (نقلا عن تورس بلباس)

الأخير من أفخم وأكبر قاعات الحمراء لكثرة زخارفها وتنوعها ودقتها وجمالها — وهذه القاعة هى التى التقى فيها السلطان أبو عبد الله محمد آخر ملوك غرناطة بالملكين الكاثوليكيين لاتمام مراسم تسليم القصر والمدينة — كما أشرنا من قبل .

كذلك أقام هذا السلطان أبو الحجاج الحمام الملكى وكسا جدرانه الداخلية من أسفلها بالقيشاني الملون ، بينما جعل سقفه على شكل قبة تتخللها فتحات

صغيرة تسمح بدخول الضوء وتسرب الهواء (شكل ٥) . وقد وجد في احدى فتحات حجرة المياه الساخنة بهذا الحمام لوحة رخامية عليها كتابه شعرية تتضمن اسم السلطان ^(١).



(شكل ٥)

جانب داخلى من بناء الحمام الملكى
(نقلا عن تورس بلباس)

واذا دلف الزائر من باب الشريعة الى الحمراء فانه يجد نفسه فى حوش متسع ، الى يساره (جهة الغرب) توجد القصبة القديمة بأسوارها الحصينة الضخمة التى يسير فى محازاتها من الداخل ممر حجري يرتفع الى قرب نهاية السور لتسهيل مهمة المدافعين فى اصطياذ المهاجمين . فاذا اتجهنا الى اليمين (ناحية الشرق) فان الزائر عليه أن يقطع المسافة العرضية للحمراء حتى يصل الى قرب السور الشمالى حيث يوجد مدخل القصر العربى القديم .

وأهم الملاحظات التى تسترعى انتباه الزائر لهذا القصر أن تخطيطه ليس له محور معلوم أو نظام معين كما هو الحال فى بناء القصور ، كما أنه لا

(١) المرجع السابق ص ٤٠٤

يتكون من عدة طوابق يعلو بعضها البعض كما يتبادر الى الذهن ولكنه فريد في تخطيطه وتصميمه وبنائه اذ أنه يتكون من مجموعات من القاعات والأبهاء رصت بجانب بعضها البعض ، دون الالتزام بقاعدة ثابتة أو تخطيط منتظم واضح ، وربما كان ذلك راجعا الى طبيعة الأرض الجبلية التي شيد البناء عليها ، والتي فرضت على البناء عدم الالتزام بالتماثيل واتباع الأصول الهندسية المعروفة في التخطيط والهندسة ، ولكن البنائين استطاعوا أن يتغلبوا على هذه الظروف الطبيعية ، بل استغلوها أحسن استغلال ، وجعلوا للقصر أجنحة متفرعة بصورة لم تؤثر على جمال اخراج المباني ودقة تنسيقها ، مع العناية الفائقة بتزيينها وزخرفتها . ومن جهة أخرى فان من أهم مميزات هذا القصر أيضا استغلال المهندس والبناء للأبراج التي تتخلل الأسوار الشمالية بصورة خاصة ، القريبة والبعيدة من أجنحة القصر ، فقد استغلوها لزيادة عدد قاعاته فزخرفت هذه القاعات ، وأصبحت من أجمل وأعظم مباني القصر ، كما هو الحال في برج قمارش وبرج الأسيرة وبرج الأميرات (Torre de las Infantas) وغيرها .

ولا يتسع المجال هنا للحديث بالوصف والتفصيل عن كل قاعات الحمراء وأبائها ، ولكن يكفي أن نشير الى بعضها كمثال للنمى عظمة المباني ودقة النقوش وتنوع الزخارف ورقتها ، وكلها تدل من غير شك على قمة ما بلغت حياة الترف والنعمة الموفورة والبذخ والافراط فى النفقات ، ومظاهر الجمال والمتعة التى كانت تشع فى أجواء هذا القصر الخالد ، فى عهد أولئك السلاطين الذين سيطروا باحرف من نور صفحة من أجل صفحات الفن العربى وأروعها ، ستظل باقية فى سجل تاريخهم التليد ، شاهدا ودليلا على عظمة المسلمين وتقدمهم فى مجالى العمارة والفنون على السواء .

ومن أهم وأكبر أبهاء قصر الحمراء بهو الريحان أو بهو البركة كما يعرف حاليا عند الأسبان (Patio de los Arrayanes & de la Alberca) وهو البهو الذى يتقدم برج قمارش (أنظر شكل ٤) . وقد اكتسب اسمه من البركة الكبيرة التى تتوسطه والتى تحيط بها أشجار الريحان . وعلى جانبيه الشمالى والجنوبى رواقان يطل كل منهما على البركة بسبعة عقود ترتكز على أعمدة رخامية رشيقة ، العقد الأوسط منها أكثر اتساعا وارتفاعا ، وقد نقش

على واجهات العقود جميعا زخارف جصية جميلة . ويوصل الباب الذى يتوسط الرواق الشمالى الى قاعة قمارش التى تشغل أسفل البرج ، وهى من أعظم وأفخم قاعات القصر حتى أنه يقال أنه كان يوجد بها عرش السلطان يوسف الأول أبى الحجاج منشئها ، فكان يجتمع فيها برجال الدولة ويقابل بها الوافدين للقائه من البلاد الأخرى فاطلق عليها أيضا اسم قاعة السفراء (Sala de los Embajadores) وقد فتحت فى جدرانها الثلاثة الشرقية والغربية والشمالية عند مستوى الأرض ثلاث نوافذ كبيرة فى كل جدار ، كما كسيت جميع جدرانها الداخلية بزخارف نباتية وهندسية مختلفة مع أفاريز عديدة من الكتابات العربية بالخط النسخى البديع ، نقشت فوق أرضية من الزخرفة النباتية الرائعة المعروفة باسم التوريق (أرابيسك Arabesco) تتضمن اسم السلطان أبى الحجاج يوسف الأول وعبارات الدعاء له مثل « عز لمولانا أبو الحجاج عز نصره » ، « الحمد لله على نعمة الاسلام » ، « النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبى الحجاج أمير المسلمين نصره الله » بالإضافة الى آيات عديدة من القرآن الكريم وأبيات من الشعر . كذلك نقشت بكثرة ظاهرة عبارة « ولا غالب الا الله » وهى شعار بنى نصر ، الذى لا يخلو منه حائط فى جميع انحاء القصر ، والتى أصبحت شعارا زخرفيا واسع الانتشار نلقاه فى المشرق والمغرب ، وفى المباني الاسلامية وغير الاسلامية على السواء . (أنظر شكل ٦) . أما الأجزاء السفلى من الجدران فقد غطيت بالقاشانى الملون بمختلف الألوان ، كالأزرق والأبيض والأخضر والأحمر وغيرها ، بحيث تكون أشكالا زخرفية هندسية رائعة . وأما سقف القاعة فهو على شكل قبوة من الخشب نقشت بزخارف هندسية غاية فى الجمال والاتقان وما تزال الى الآن محتفظة برسومها ونقوشها وألوانها الأولى .

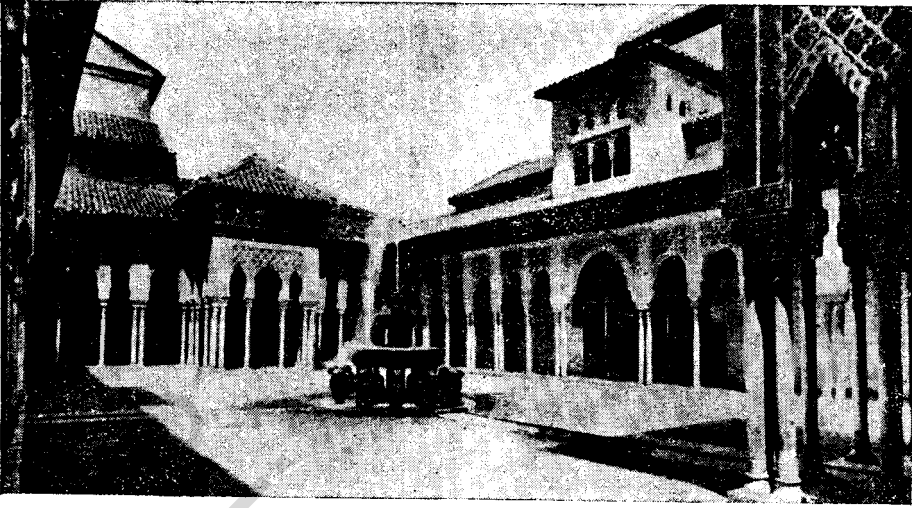
وفى الطرف الشرقى من مباني القصر يوجد أشهر أبهاء الحمراء المعروفة ببهو السباع (Patio de los Lions) (شكل ٧) وهو من أعمال السلطان محمد الخامس الغنى بالله الذى شارك والدته أبو الحجاج يوسف الأول فى تجميل وتوسعة هذا القصر .

وقد اشتق بهو السباع اسمه من النافورة الكبيرة التى تتوسطه حيث يحيط بها اثنا عشر تمثالا من الرخام للسباع تفتح أفواهها ليتدفق منها الماء ، كما يجرى من فوقها وحولها بشكل يثير الإعجاب . ويزيد من جمال هذا البهو وروعة



(شكل ٦)

نماذج من الزخارف النباتية والهندسية من الجص ظهر فيها شعار بنى الأحمر
« ولا غالب الا الله » .. وكذلك عبارة « عز لمولانا السلطان عبد الله »
(من تصوير المؤلف)



(شكل ٧)

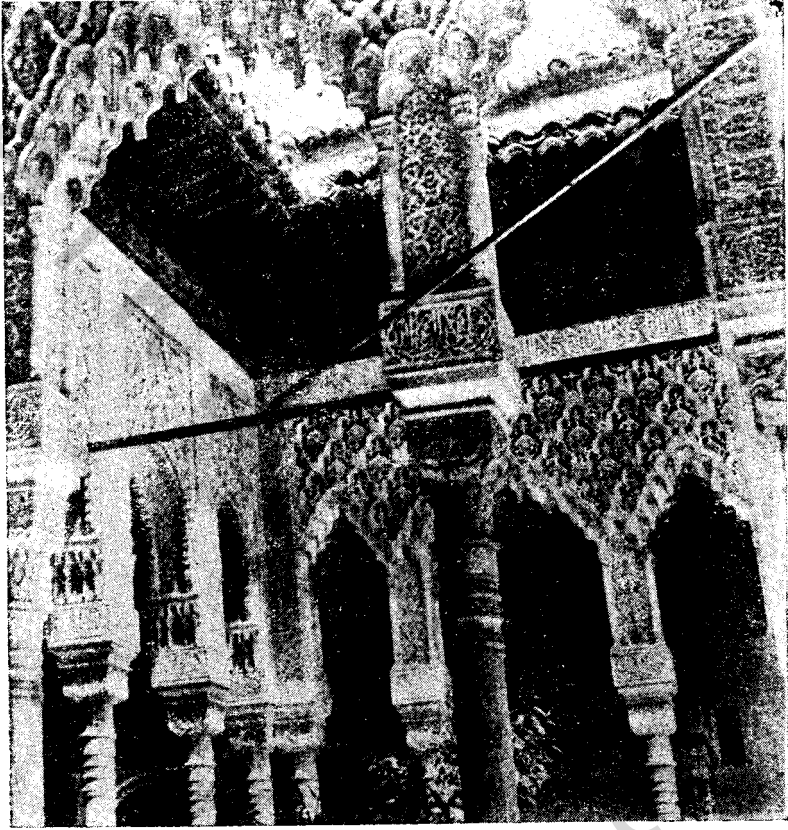
بهو السباع الذى يحيط به مجموعة من القاعات الهامة
(نقلا عن تورس بلباس)

تنسيقة ، الأروقة المحيطة به ، تطل عليه يعقود مختلفة الحجم والشكل والرسم ، تعددت أسنتها وطالت أطرافها ، وظهر منها المقوس والمنفوخ ، والمدبب المنكسر ، والذى يجمع بين هذين الشكلين ، وقامت تحتها الأعمدة الرخامية الأنيقة منفردة تارة ، ومزدوجة تارة أخرى . وما أحسب أن العمد في العمارة كانت يوما أبدع مما نراها عليه في هذه الأروقة المحيطة بهو السباع ، فهي مشوقة البدن ، رفيعة القوام ، والناظر إليها يخيل إليه أن رؤوسها لن تقوى على حمل العقود ، وقد توجت هذه الرؤوس بتيجان أندلسية ، تكسوها الزخارف النباتية ، ثم ارتفعت فوقها الحدائر ، تحمل دعامات رشيقة ، التنصقت بزواياها الأربعة عمد صغيرة تنبت منها العقود المقرنصة بدلاياتها كأنها لهيب يخرج من المواقد . (شكل ٨) .

هذه الزخارف المتناهية رقة واتقاناً يزيدان جمالاً تنوع ألوانها من أحمر فاتح وأزرق وأبيض ومذهب وأسود .

وتتبعنا هذه الروائع أينما حللنا بقاعة من قاعات القصر ، فإذا دللنا مثلاً إلى قاعة الأختين (Sala de Dos Hermanas) القائمة في منتصف الجدار الشمالى لبهو

السباع — وهى بدورها من عمل السلطان محمد الخامس الغنى بالله — شعرنا
بفخامة البناء وثراء الزخرفة الى أقصى حد ، اذ يتدلى من السقف فى كل مكان
حليه بهيه من المقرنصات والدلايات كأنها أوكار فى الأشجار تتساقط كالأغصان،
على عمد صغيرة رشيقة ملتصقة بالجدران .



(شكل ٨)

بعض الزخارف الجصية المختلفة : النباتية والهندسية والكتابية
والمقرنصات والدلايات فى الأروقة المحيطة بهو السباع ..
(نقلا عن تورس بلباس)

كذلك تملأ بقية البناء الزخارف المختلفة وأفاريز الكتابة التى تتضمن آيات
من القرآن الكريم وعبارات الدعاء ، مع شعار الأسرة « ولا غالب الا الله »

بينما كسى الجزء الأسفل بمربعات من القاشانى الملون الجميل كما هو مشاهد فى جميع الجدران .

ويقابل قاعة الأختين على الجانب الآخر من بهو السباع قاعة أخرى تشبهها وإن كانت أقل منها ثراء فى زخارفها ، هى قاعة « بنى سراج » (Sala de Abencerrajes) وهى بدورها من عصر السلطان الغنى بالله .

تلك بعض النماذج لقاعات الحمراء وأبهائها تجلوا علينا روائع البناء والفن الاسلاميين ، وتعكس لنا صورة صادقة لما كانت تتمتع به مملكه غرطانه من عظمة و ثراء ومكانه سامية، أصبحت معها مركز اشعاع تغمر بأضوائها الساطعة وحضارتها المتقدمة المزدهرة فى مجالات العلم والأدب والفن والجمال كل ما خولها حتى غدت بحق القبس الذى أخذ منه العالم الغربى أيضا ، آخر مظاهر تطور الفنون الزخرفية الاسلامية حتى أخذت بلب الشاعر وسحرته وملكت عليه نفسه فأنشد قائلا :

غرناطة ما لها نظير ما مصر ، ما الشام ، ما العراق
ما هى الا العروس تجلى وتلك جملة الصداق^(١)

(١) المقرئ - نفح الطيب - ج ١ ص ١٤٢

مصادر ومراجع هذا البحث

(١) العربية :

- ١ - ابن الأبار (محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاى) - كتاب الحلة السراء - جزءان - تحقيق : دكتور حسين مؤنس .
طبعة أولى - القاهرة : ١٩٦٣
- ٢ - ابن الأثير (أبو الحسن على بن محمد الشيبانى) - الكامل فى التاريخ - ٩ أجزاء .
القاهرة : ١٣٤٨ هـ
- ٣ - ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف) - كتاب المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس - القسم الثالث - نشر الأب ملشور م . أنطونيه .
باريس : ١٩٣٧
- ٤ - ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن عبد الله) - الاحاطة فى اخبار غرناطة تحقيق : الأستاذ محمد عبد الله عنان - المجلد الأول .
القاهرة : ١٩٥٥
- ٥ - ابن خلدون (عبد الرحمن) - كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر - ٧ أجزاء .
بولاى - ١٢٨٤ هـ (١٨٧٠ م)
- ٦ - ابن عذارى المراكشى - البيان المغرب فى أخبار المغرب - جزءان - مكتبة صادر .
بيروت : ١٩٥٠
- والجزء الرابع بعنوان : البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب (مطبوعات معهد مولاى الحسن) .
تطوان : ١٩٥٦
- ٧ - أشباح (يوسف) - تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين - ترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان - الطبعة الثانية .
القاهرة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٨ م)
- ٨ - حسين مؤنس - دكتور - فجر الأندلس - دراسة فى تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامى الى قيام الدولة الأموية - طبعة أولى .
القاهرة ١٩٥٩
- ٩ - الحموى (يا قوت بن عبد الله) - كتاب معجم البلدان - الطبعة الأولى ليبزج ١٨٦٨
- ١٠ - الحميرى (محمد بن عبد الله بن عبد المنعم) - صفة جزيرة الأندلس - منتخبة من كتاب الروض العطار فى خبر الأقطار - نشره وصححه وعلق عليه : أ . ليفى بروقنسال
القاهرة ١٩٣٧

- ١١ - السلاوى (أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى) - كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى - تحقيق : الأستاذ جعفر الناصرى والأستاذ محمد الناصرى - الجزء الثانى - الدولتان المرابطية والموحدية
الدار البيضاء : ١٩٥٤
- ١٢ - السيد عبد العزيز سالم - دكتور - تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس - من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة
دار المعارف - لبنان : ١٩٦٢
- تاريخ المغرب الكبير - ٣ - العصر الإسلامى
الدار القومية : ١٩٦٦
- ١٣ - عنان (محمد عبد الله) - الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال - دراسة تاريخية أثرية - الطبعة الأولى
القاهرة : ١٩٥٦ م (١٣٧٥ هـ)
- ١٤ - مجهول المؤلف - أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم - نشر الأستاذ اميليو لافونتى الكنترا
مدريد : ١٨٦٧ م

(ب) الأجنبية :

1. Ars Hispaniae, Historia Universal del Arte Hispanico.
Vol. IV, Arte Almohade, Arte Nazari, Arte Mudéjar.
Por, Leopoldo Torres Balbàs, Madrid, 1949.
2. Bleye (Pedro Aguado).
Manual de Historia de España.
Tomo I, Octava Ed. Madrid, 1958.
3. Coleccion de Cronicas Arabes de la Reconquista.
Tomo I, Al-Hulal Al Mawsiyya.
Trad Espan. Ambrosio Huici Miranda. Tetuan, 1952.
Vol. III, Al-Bayan Al-Mugrib Fi Ijtisar Ajbar Muluk Al-Andalus Wa Al-Magrib.
Por, Ibn Idari Al-Marrakusi, Los Almohades, Toms, II.
Trad. Espan. A. Huici Miranda, Tetuan, 1954.
4. Historia de Espania.
Dirigida por, Ramon Menéndez Pidal.
— Tomo, IV, Espana Musulmana fasta la caída del Califato de Cordoba (711—1031 de J.C.)
Por, E. Levi-Provençal.
Trad. Emilio Garcia Gómez.
Segunda edicion, Madrid, 1957.

- Tomo V, Instituciones y Vida Social E Intelectual.
Por, E. Levi - Provençal.
Trad. Emilio Garcia Gómez. Madrid, 1957.
5. Marçais, (Georges), Manuel d'Art Musulman.
L'Architecture Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile.
Tomo, II, Paris, 1927.
6. Ma. de Azcàrate (José), Monumentos Espanoles.
Tomo, I, segunda Ed. Madrid, 1953.
7. Miranda (Ambrosio Huici), Las Grandes batallas de la Reconquista
durante las Invasiones Africanas.
(Almoravides, Almohades y Benimerines). Madrid, 1956.
8. Vives (Antonio Prieto), Los Reyes de Taifas.
Madrid, 1926.
9. Al-Andalus, Rivista de la Escuelas de Estudios Arabes de
Madrid y Granada.
- Vol. III, Fasc, 2, 1935.
 - Vol. IV, Fasc, 1, 1936.
 - Vol. XX, Fasc, 2, 1956.
 - Vol. XXI, Fasc, 1, 1956.
 - Vol. XXIV, Fasc, 2, 1959.

obeikandi.com

سكان ليبيا عند اليعقوبي

بحث قدم إلى مؤتمر الجامعة الليبية للتاريخ الليبي

(مارس ١٩٦٨)

إعداد

الركنور عبد الفادر أحمد طلمات

كلية الآداب - جامعة عين شمس

محرر :

نقف اليوم أمام وصف لواحد من أقدم الجغرافيين المسلمين ، وهو اليعقوبي . المتوفى سنة ٢٨٤هـ ، صاحب كتاب « البلدان » لأنه يصور واقعا كان في طريقه الى الاندثار . وكان هذا الواقع هو الأساس الذي رست عليه طبقات أخرى عربية أو مستعربة من السكان .

وهذه الصورة في نظرنا نادرة القيمة عظيمة الشأن ، لأنها لا ترد بعد ذلك في القرون التالية .

وتحمل صورة اليعقوبي في اعتبارنا ، صورة التحول الذي تعرضت له ليبيا منذ الفتح الاسلامي ، ولذلك نجد في هذا الوصف صورة من السكان القدماء ، ومن العرب الداخلين الى ليبيا .

ولهذا السبب ، نريد أن نبين معالم هذه الصورة . وهي معالم جمعناها من أخبار كثيرة واردة لدى اليعقوبي ، وبذلنا في جمعها وتصنيفها كل ما نستطيع من جهد .

وبالرغم من أن هذه الصورة وردت عند اليعقوبي - وهو جغرافي معروف وكتابه مطبوع - الا أن جميع الدراسات الحديثة التي نشرت عن ليبيا ، أهملت معلومات اليعقوبي اهمالا تاما ، واقتصرت على أن تسجل : أن اقليم برقة سكانه

من « لواتة » ، وأن اقليم طرابلس سكانه من « هوارة » ، مهمة سكانهما من العرب كما أهملت اقليم فزان جملة وتفصيلا . كما أنها أهملت — أيضا — ذكر بطون لواتة ، وبتون هوارة ومنازل كل منهم بالنسبة للقبائل العربية .

وهذه الدراسة — على كل حال — دراسة محددة بحدود مصدرنا اليعقوبى ولا يجب الاقتصار عليها . وانما يجب تتبع التغيرات السكانية من حيث انتشار العرب والبربر في ليبيا التى طرأت بعد عصر اليعقوبى ، هذا التغير الذى أدى بها الى الاستعراب الكامل ، والذى أخذت ملامحه تظهر بشكل واضح فى عصر الادريسي (النصف الأول من القرن السادس الهجرى) .

واليعقوبى الذى اعتمدنا عليه فى هذه الدراسة ، هو المؤرخ الجغرافى أحمد ابن اسحاق بن جعفر — والمعروف أيضا بابن واضح .

ولد اليعقوبى فى بغداد فى عام غير معروف من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)^(١) ، ويبدو أنه لم يقيم ببغداد أكثر من المدة التى أتم فيها دراسته العليا ، ثم انطلق منها سائحا رحالة الى كثير من بلاد العالم الاسلامى ، لاشباع نزعة حبه لعلم أخبار البلدان ، وقد صرح هو بذلك فى مقدمة كتابه الجغرافى « البلدان » — الذى نعتد عليه فى دراستنا هذه — حيث يقول : « انى عنيت فى عنفوان شبابى ، وعند احتيال سنى وحدة ذهنى بعلم أخبار البلدان ، ومسافة ما بين كل بلد وبلد ، لأننى سافرت حديث السن ، واتصلت أسفارى ، ودام تغربى » . وبعد أن قضى لباتته من تلك الرحلة الطويلة ضم معلوماته عن البلاد التى زارها فى كتاب « البلدان » فى سنة ٢٧٨ هـ فى قول الدكتور نفيس أحمد^(٢) .

وقد ذكر اليعقوبى مادة كتابه ومنهجه فى جمعها — وذلك فى مقدمة الكتاب — فقال : « فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان ، سألته عن وطنه ومصره ، فإذا ذكر لى محل داره ، وموضع قراره ، سألته عن بلده ذلك فى (نقط بالأصل) لدته (؟) منه ما هى ؟ وزرعه ما هو ؟ وساكنيه من هم من عرب أو عجم ؟ (نقط بالأصل) شرب أهله ؟ حتى أسأل عن لباسهم (نقط بالأصل) وديانتهم

(١) كذلك غير معروفة السنة التى توفى فيها ... فقد اختلف المؤرخون فيها ، فهى سنة ٢٨٤ هـ فى قول ، وبعد سنة ٢٩٢ فى قول آخر .

(٢) جهود الجغرافيين المسلمين ص ٤٥ (ترجمة فتحى عثمان) .

ومقالاتهم والغالبين عليه والمنزا (؟) (بياض بالأصل) مسافة ذلك البلد وما يقرب من البلدان وال (؟) (نقط بالأصل) لرواحل (؟) ثم أثبت كل ما يخبرني به من أثق بصدقه ، واستظهر بمسألة قوم بعد قوم ، حتى سألت خلقا كثيرا وعالما من الناس في الموسم ^(١) وغير الموسم من أهل المشرق والمغرب ؛ وكتبت أخبارهم ، ورويت أحاديثهم ، وذكرت من فتح بلدا بلدا ، وجنّد مصرا مصرا من الخلفاء والأمراء ، ومبلغ خراجهم ، وما يرتفع من أمواله . فلم أزل أكتب هذه الأخبار ، وأؤلف هذا الكتاب دهرًا طويلًا ، وأضيف كل خبر إلى بلده ، وكل ما أسع من ثقة أهل الأمصار إلى ما تقدمت عندي من معرفته » ثم يعتذر اليعقوبى عن عدم توسعه في المادة فيقول : « وعلمت أنه لا يحيط المخلوق بالغاية ، ولا يبلغ البشر النهاية ، وليست شريعة لا بد من تمامها ، ولا دين لا يكمل الا بالاحاطة به . وقد يقول أهل العلم في علم أهل الدين الذى هو الفقه : مختصر كتاب فلان الفقيه ، ويقول أهل الآداب فى كتب الآداب مثل : اللغة والنحو والمغازى والأخبار والسير : مختصر كتاب كذا . فجعلنا هذا الكتاب مختصرا لأخبار البلدان ، فان وقف أحد من أخبار بلد مما ذكرنا على ما لم نضمنه كتابنا هذا ، فلم نقصد أن يحيط بكل شيء . وقد قال الحكميم : ليس طلب العلم طمعا فى بلوغ قاصيته ، واستيلاء على نهايته ، ولكن معرفة مما لا يسع جهله ، ولا يحسن بالعقل خلفه ، وقد ذكرت : أسماء الأمصار والأجناد والكور، وما فى كل مصر من المدن والأقاليم والطراسيج ، ومن يسكنه ويغلب عليه ويتراأس فيه من قبائل العرب ، وأجناس العجم ، ومسافة ما بين البلد والبلد والمصر والمصر ، ومن فتحه من قادة جيوش الاسلام ، وتاريخ ذلك فى سنته وأوقاته ، ومبلغ خراجهم ، وسهله ، وجبله ، وبره وبحره ، وهوائه فى شدة حره وبرده ، ومياهه وشربه » . وهكذا نجد اليعقوبى قد استوفى موضوعه الجغرافى من جميع جوانبه : المناخى ، والزراعى ، والسطحى ، والاقتصادى ، والسكانى ، وطعّم هذه المادة الجغرافية — أحيانا بالمادة التاريخية الخبرية .

ومع أن مقدمة اليعقوبى لا تشير إلى زيارته للمغرب ، فان المستشرق الروسى كراتشكوفسكى يقطع بأن اليعقوبى أقام مدة طويلة بمصر والمغرب ، دون أن

(١) أى فى موسم الحج .

يؤيد قوله هذا بدليل^(١) . وسواء أقام اليعقوبى فى المغرب مدة طويلة أو قصيرة ، وسواء زار المغرب أو لم يزره ، فإن كتابه يعتبر فى رأينا أفضل كتاب جغرافى اعتنى صاحبه بالناحية السكانية فى هذا القطر الكبير ، فقد ذكر سكان كثير من المناطق وأجناسهم ، وقد استفاد منه كل من جاء بعده من الجغرافيين المسلمين القدامى .

ففيما يختص بليبيا ، عرفنا من اليعقوبى أن سكان ليبيا — فى عصره — من حدودها الشرقية مع مصر الى حدودها الغربية مع تونس . هم : من البربر ، ومن العرب ومن العجم القدم ، ومن الجند القدم والروم ، ومن أخلاط من الناس . وعندما يذكر البربر من لواتة يذكر بطونها ، وعندما يذكر العرب يذكرهم بقبائلهم أو ببطونهم كما يتبين ذلك بعد .

وعندما يتحدث اليعقوبى عن ليبيا يبدأ من حدودها الشرقية مع مصر ، ثم يسير مغربا حتى قابس التى تقع على الحدود الليبية التونسية . (عكس الأدريسى الذى يبدأ من الغرب الى الشرق) .

كذلك يقسم العقوبى ليبيا الى ثلاثة أقاليم : برقة ، وطرابلس (وفى العقوبى أطرابلس) ، وفزان ؛ وسنتبع نحن هذا التقسيم فى دراستنا .

وطريقة اليعقوبى فى التعريف بجغرافية ليبيا ، أنه يذكر مدن وقرى وحصون كل اقليم ، والمسافة بين كل مكان وآخر ، والمقياس عنده هو « المرحلة » . ونحن لن نعن هنا بالمسافات ، وإنما تنصب عنايتنا فقط بالسكان وأجناسهم ومناطق توزيعهم .

وقد اعتمدنا فى هذه الدراسة على النسخة التى حققها M. J. De Goeje المطبوعة فى ليدن عام ١٨٩٢ .

وقد أثبتنا التوزيع السكانى — كما ذكره اليعقوبى — على خريطة مرفقة بهذا البحث . اعتمدنا فيها على الخريطة السياحية التى تصدرها شركة «أسو Esso» للبتترول فى ليبيا .

(١) كراتشكوفسكى : الأدب الجغرافى العربى : ١/١٩٥٨

برقة

يحدد اليعقوبى بداية ليبيا المتاخمة لحدود مصر الغربية « الرمادة » الواقعة غربى « الحمام » الحالية ، فيقول : انها أول منازل البربر ، ويصفها بأنها من كورة لوية ، ويسكنها البربر والعرب والروم وأخلاط من الناس « وهى أول منازل البربر ، يسكنها قوم من مزاته وغيرهم من العجم القدم ، وبها قوم من العرب من : بلس ، وجهينة ، وبنى مدلج ، وأخلاط » ولعل العجم : القدم الذى يعنيه اليعقوبى هم اليونانيون القدماء الذين هاجروا من بلاد اليونان الى ليبيا فى أواخر القرن السابع قبل الميلاد وأقاموا أسرة « باطوس » فى القرن الخامس ق . م ^(١) .

أما من « العقبة » — (وهى عقبة السلوم ، أو عقبة السلم) — التى تلى « الرمادة » الى « جب الرمل » (وتشمل المنطقة : العقبة ، والقصر الأبيض . ومغاير رقيم ، وقصر الروم ، وجب الرمل) فهى « ديار البربر من : ماصلة بن لواتة ، وأخلاط من الناس » .

وبعد « جب الرمل » (غربا) يقع « وادى مخيل » ، والوادى — كما يصفه اليعقوبى — هو « منزل كالمدينة » وبه المسجد الجامع ، وبرك الماء ، وأسواق قائمة ، وحصن حصين . أما سكانه فهم « أخلاط من الناس » ، وأما أكثرهم البربر من : ماصلة ، وزنارة ، ومصعوبة ، ومراوة ، وفطيطة » .

ومن « وادى مخيل » الى مدينة « برقة » (وهى المرج حاليا) مسافة ثلاث مراحل ، وهى — أيضا — من « ديار البربر من : مراوة ، ومفرطة ، ومصعوبة ، وزكودة ، وغيرهم من بطون لواتة » .

وأما « برقة » . فانه يتبين من كلام اليعقوبى عنها ، أنها اقليم كبير (ولاية) وله عاصمة تسمى « برقة » : « وفى دور المدينة والأرباط أخلاط من الناس » فانه انما يتحدث عن برقة (العاصمة) . ويؤكد هذا قوله أيضا : ولبرقة جبلان شرقى وغربى . أما حين يتحدث عن « برقة » ويقول : « ولبرقة أقاليم كثيرة »

(١) مصطفى كمال عبد العليم : دراسات فى تاريخ ليبيا القديم : ص ١٢١

وأن لها من المدن : برنيق وأجدابية ، وأن « تورغة »^(١) الواقعة غربى سرت الحالية ، هى من أعمال برقة ، وأنها « آخر حد برقة » فانه انما يتحدث عن برقة (الاقليم) ، وعن حدود الاقليم الغربية بعد أن ذكر — كما أشرنا — حدوده الشرقية .

أما سكان برقة (العاصمة) . فهم « أخلاط من الناس ، وأكثر من بها جند قدم . وقد صار لهم الأولاد والأعقاب » . والراجح أن الجند القدم ، هم الفرق البيزنطية التى استقرت فى البلاد ، وتوارثوا الجندية ابنا عن أب .

أما الجبلان المحيطان بالعاصمة ، فأحدهما شرقى ، والآخر غربى ، وسكانهما من العرب وحدهم . فالجبل الشرقى سكانه من العرب من : الأزد ، ولخم ، وجذام ، وصدف من أهل اليمن . وأما الجبل الغربى ، فسكانه من غرب : غسان ، وجذام ، والأزد ، وتَجَيْب وغيرهم من بطون العرب — (وهذا استثناء من القاعدة التى ذكرها ابن خلدون ورددها كل الدراسين المحدثين ، من أن العرب لا ينزلون فى الجبال ، وانما ينزلون فى السهول) . أما قراها فيسكنها بطون من قبيلة لواتة البربرية : « زكودة ، ومفرطة ، وزنارة » .

وأما برقة (الاقليم) . فيقول اليعقوبى : « ولبرقة أقاليم كثيرة تسكنها هذه البطون من بربر لواتة ، وهى زكودة ، ومفرطة ، وزنارة . وأما مدنه فهما : برنيق (بنغازى الحالية) ، وأجدابية » .

فأما « برنيق » فهى على مرحلتين من برقة (العاصمة) ، وهى « مدينة على ساحل البحر ، ولها ميناء عجيب فى الاتفاق (الاتقان ؟) والجودة تحوز فيه المراكب » . وأما أهلها فهم : « من أبناء الروم القدم الذين كانوا أهلها قديما ، وقوم من البربر من : تحلالة ، وسوة ، ومسوسة ، ومغاغة ، وواهلة ، وجدانة » . ونحن نرجح أن أبناء الروم القدم الذين يعينهم اليعقوبى ، هم من الجالية اليونانية القديمة التى قدمت الى البلاد فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وتركوا بها أعقابهم الى زمنه .

(١) يرسمها الأديسى : تاورغا .

وأما « أجداية » فإن بينها وبين « برنيق » مرحلتان ، وبينها وبين برقة (العاصمة) أربع مراحل . ويصفها اليعقوبى بأنها « مدينة عليها حصن ، وفيها مسجد جامع ، وأسواق قائمة » أما سكانها فهم : « قوم من البربر من : زنارة ، وواهلة ، ومسوسة ، وسوة ، وتحلالة ، وجدانة » ثم يقول : ان هؤلاء الأخيرين — أى جدانة — هم الغالبون عليها « أى على المدينة . ويقول أيضا : ان لها أقاليم ، وساحل على البحر المالح ، على مقدار ستة أميال من المدينة ترسوبه المراكب » وأنها « آخر ديار لواتة من المدن » .

أما من أجداية « الى مدينة « سرت » (وترسم أيضا : صرت بالصاد المهملة) — عن طريق الساحل — خمس مراحل : مرحلة منها من ديار « لواتة » . والمراحل الأخرى هى على الترتيب : الفاروج (وترسم أيضا : الفاروخ) وقصر العطش ، واليهودية ، وقصر العبادى » .

فأما المرحلة التى من ديار لواتة الى الفاروج ، فسكانها من مزاةة ، « وهم الغالبون عليها » . وأما سكان المراحل الأخرى — وأهل مدينة سرت أيضا — فهم من البربر من « منداسة ، ومحنجا ، وفنطاس وغيرهم ، وآخر منازلهم على مرحلتين من مدينة سرت بموضع يقال له « تورغة » وهو « آخر حد برقة » . ويقول اليعقوبى : ان مزاةة كلها اباضية . « على أنهم لا يفقهون ولا دين لهم » . وهذا السب من اليعقوبى — ناشئ عن المنافسات المذهبية ، والا فان الاباضية — فيما نعرف — أهل دين ومن أقدر المسلمين على نشر الاسلام ، وعلى التوسع فى الهجرة » .

ومن مدينة « سرت » الى ودان ، مما يلي القبلة ، أى جنوب سرت ، خمس مراحل وسكان هذه المنطقة « قوم مسلمون يدعون أنهم عرب من اليمن ، وأكثرهم من مزاةة ، وهم الغالبون عليها » .

ووراء « ودان » — مما يلي القبلة أيضا بلد « زويلة » ، وسكانها « قوم مسلمون اباضية ، وبها أخلاط من أهل خراسان والبصرة والكوفة » ؟

ووراء « زويلة » على خمس عشرة مرحلة منها — مدينة يقال لها « كوار »
وسكانها « قوم من سائر المسلمين من سائر الأحياء » ولكن « أكثرهم بربر » .

وبين « زويلة » ومدينة « كوار » — ومما يلي « زويلة » الى طريق
« أوجلة » و « أجداية » — قوم يقال لهم « لمطة » وهم « أشبه شيء بالبربر » ،
وقد تفيد هذه العبارة أن « لمطة » ليست من البربر الخالص أو الصرحاء ، والراجح
أنهم بربر اختلطوا بغيرهم ، والراجح أيضا أن يكون اختلاطهم بالعرب بعد
الفتح ، والمعروف أن « لمطة » نزلت — فيما بعد — ناحية « قابس » و « شط
الجريد » .

طرابلس

يصف اليعقوبى طرابلس بأنها : « مدينة قديمة جليلة على ساحل البحر ، عامرة أهلة » . وأما سكانها ، فهم : « أخلاط من الناس » .

وتمتد طرابلس — بحسب تحديد اليعقوبى — من « تورغة » شرقا (وهى آخر أعمال برقة) حتى « قابس » غربا (وهى أول عمل تونس) .

ومن « تورغة » الى طرابلس ست مراحل ، (وتتقطع ديار مزاتة من تورغة . ويصير فى ديار هواره) وتشمل المنطقة : « ورداسة » و « لبدة » . (وقد ذكر قدامة بن جعفر أربع مراحل من الست : رغوغا ، ورداسا ، المحتنى ، وادى الرمل ، الى طرابلس) .

فأما « ورداسة » فلم يذكر اليعقوبى عنها شيئا . وأما « لبدة » فانه يصفها بأنها : « حصن كالمدينة على ساحل البحر » . أما سكانها — بحسب قول اليعقوبى — فهم « هواره » . ويقول : « ان هواره يزعمون أنهم من البربر القدم . وأن مزاتة ولواتة كانوا منهم فانقطعوا عنهم وفارقوا ديارهم وصاروا الى أرض برقة وغيرها ، وتزعم هواره أنهم قوم من اليمن جهلوا أنسابهم ، وبطون هواره يتناسبون كما تتناسب العرب ، فمنهم : بنو اللهان ، ومليلة ، وورسطفة ، فبطون اللهان : بنور ورفلة . وبنو مسراتة » ، وذكر اليعقوبى بطنين آخرين من بطون اللهان ، ولكنهما جاءا مصحفين فى النسخة المطبوعة من كتاب اليعقوبى التى نستعملها ، وتعذر علينا تصحيحها . ويقول اليعقوبى : « ومنازل هواره من آخر عمل « سرت » الى « طرابلس » . ويلاحظ فى هذا النص ثلاث ملاحظات :

الملاحظة الأولى :

قول اليعقوبى : « أن هواره يزعمون أنهم من البربر القدم » . فنفهم من هذا التعبير أن المراد بالبربر القدم ، هم البربر الصرحاء الذين لم يختلطوا بغيرهم ، ونعتقد أن هذا الوضع يؤثر على لهجة هواره البربرية بالنسبة للهجات البربرية الأخرى .

الملاحظة الثانية :

قوله : ان منازل هواراة تمتد من آخر عمل « سرت » الى طرابلس . فالمعروف أن مدينة « مسراتة » أو (مصراتة) المسماه باسم البطن اللهاني الهوارى ، تقع بين « سرت » و « طرابلس » التى هى الموطن القديم لهواراة .

الملاحظة الثالثة :

ذكر اليعقوبى زعيمين متناقضين لأصل هواراة ، الزعم الأول : بأنهم ينسبون أنفسهم الى البربر القدم ، والزعم الآخر : أنهم ينسبون أنفسهم الى اليمن . وسبب هذا التناقض - فيما نرى - هو صدى من أصداء الاندماج التام المبني على الحلف - طبقا للنظم القبلية - بين هواراة والقبائل العربية الحميرية الداخلة الى البلاد عند الفتح الاسلامى .

ومن طرابلس - على الجادة العظمى - الى المدينة « قابس » (أول عمل تونس) خمس مراحل « عامرة يسكنها قوم من البربر ، من : زناتة ، ولواته ، والأفارقة الأول » . (وهؤلاء الأفارقة ، يذكروهم ابن خرداذبة - المعاصر لليعقوبى - فى كتابه « الممالك والممالك » . بأنهم « الأفارقة الاعاجم » . والراجح اذن أن يكونوا من الرومان الأول الذين نزلوا البلاد فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد واستوطنوها وتركوا سلالتهم بها) .

والمراحل من طرابلس الى « قابس » هى : وملة (هكذا بغير نقط) وصبرة - وهى منزل بها أصنام حجارة قديمة - وقصر بنى حبان ، ثم (اسم مصحف بالأصل) ثم الفاصلات ، ثم قابس .

وفى جنوب طرابلس ، توجد « أرض نفوسه » . وهى « متصلة من حد طرابلس مما يلى القبلة الى قريب من القيروان » . أما سكانها « فهم قبائل كثيرة وبطون شتى » ويقول اليعقوبى فى مناسبة أخرى ، ان سكانها (قوم عجم الألسن . اباضية كلهم) .

فزان

لقد ضن علينا اليعقوبى بالمعلومات الوافية عن سكان هذا الاقليم ، فقد اقتصر على القول بأن سكان فزان : « جنس يعرف بفزان » وهم « أخلاط من الناس ، لهم رئيس يطاع فيهم » . وأن بين سكانها وبين مزاته « حرب لاقح أبدا » . ويصف فزان بأنها « بلد واسع ومدينة عظيمة » .

وبعد ، فهذه هى الصورة التى عرضها اليعقوبى لسكان ليبيا فى عصره (القرن الثالث الهجرى — التاسع الميلادى) .

وهى صورة يغلب فيها العنصر البربرى على العنصر العربى . حتى يمكننا أن نعتبر وجود العرب وجودا جزئيا مغمورا فى وسط خضم كبير من قبائل البربر .

وكان أول البلاد استعرابا ، بحسب أخبار اليعقوبى ، هو اقليم برقة وهذا شىء طبيعى بحكم ظروف الفتح العربى لليبيا . فان الفتح بدأ — مع فتح مصر — من برقة وطرابلس ، أى من حدودها الشرقية المتاخمة لحدود مصر الغربية ، وكانت توجد فيه قبائل عربية كثيرة ، ولكنها أقل عددا من القبائل البربرية .

ونسجل أيضا ، أن الأكثرية العظمى من هؤلاء العرب . كانوا عرب الجنوب ، أى من القبائل اليمنية .

أما القبائل العربية المضرية . فان اليعقوبى لا يذكر منها من نزل برقة واتخذهاوطنا ، لأن الموجود منهم كانوا قلة .

وكانت منازل العرب الأولى فى منطقة « الرمادة » الى « السلوم » ، وفى الجبل الواقع شرقى مدينة برقة ، وفى الجبل الواقع غربيها .

أما اقليم طرابلس ، فلم يذكر اليعقوبى نزول عرب به اطلاقا . الا ضمن عبارة « أخلاط من الناس » .

ومن هنا نرى ، أن الدم العربى اختلط بالدم البربرى أولا فى اقليم برقة بشكل واضح ، أما الاختلاط فى اقليم طرابلس وفى اقليم فزان فقد كان فى حكم المنعدم تقريبا .

ولكن يجب أن يلاحظ ، أن هذا الحكم القديم لا يمنع — على أية حال — من وجود العرب فى كل من أقاليم ليبيا الثلاثة ، لأن العرب كانوا جند الدولة وان شاركهم البربر فى ذلك منذ وقت مبكر جدا ، وكان وجود هؤلاء الجند العرب ثابتا بشكل واضح فى السواحل الشمالية حيث كان الرباط ، وكان البربر ينزلون عليهم ويختلطون بهم ، ويأخذون عنهم .

والخلاصة ، هى أن العرب كثروا أولا فى « برقة » وفى القسم الشمالى منها خاصة ، حتى فى منطقة الجبل الأخضر المحيط بالعاصمة « برقة » (المرج حاليا) .

أما فى اقليم طرابلس ، فكانوا فى حكم أخلاط من الناس . ولكن بعض البربر من مزاته النازلين بين « سرت » و « ودان » انضموا الى العرب اليمينين وجعلوا أنفسهم فى حكم العرب .

ومع كل هذا ، يجب أن يلاحظ ، الى أن العرب — بصفة عامة — كانوا أقلية أيام اليعقوبى — (كما توضح ذلك الخريطة الملحقة بالبحث) — وكانوا يعيشون حول العواصم (برقة وطرابلس) ، بصرف النظر عن السهل والجبل ، لأن نزولهم كان يجب أن يقتصر بمراكز التجمع الكبيرة الأساسية ، وهى المدن

أما البربر ، فقد كانوا فى برقة من زناة ، احدى بطون البتر .

أما لواتة ، فكانت تنزل على حدودها (حدود برقة) ، وقد رأينا أن هذه المنازل تصل الى « تورغة » التى تقع بين « سرت » و « مصرطة » الحالية .

وأما هواره ، وهم من البرانس ، فمنازلهم طرابلس ، وتمتد منازلهم من « توزعه » الى « قابس » شمالا ، والى « جبل نفوسة » جنوبا .

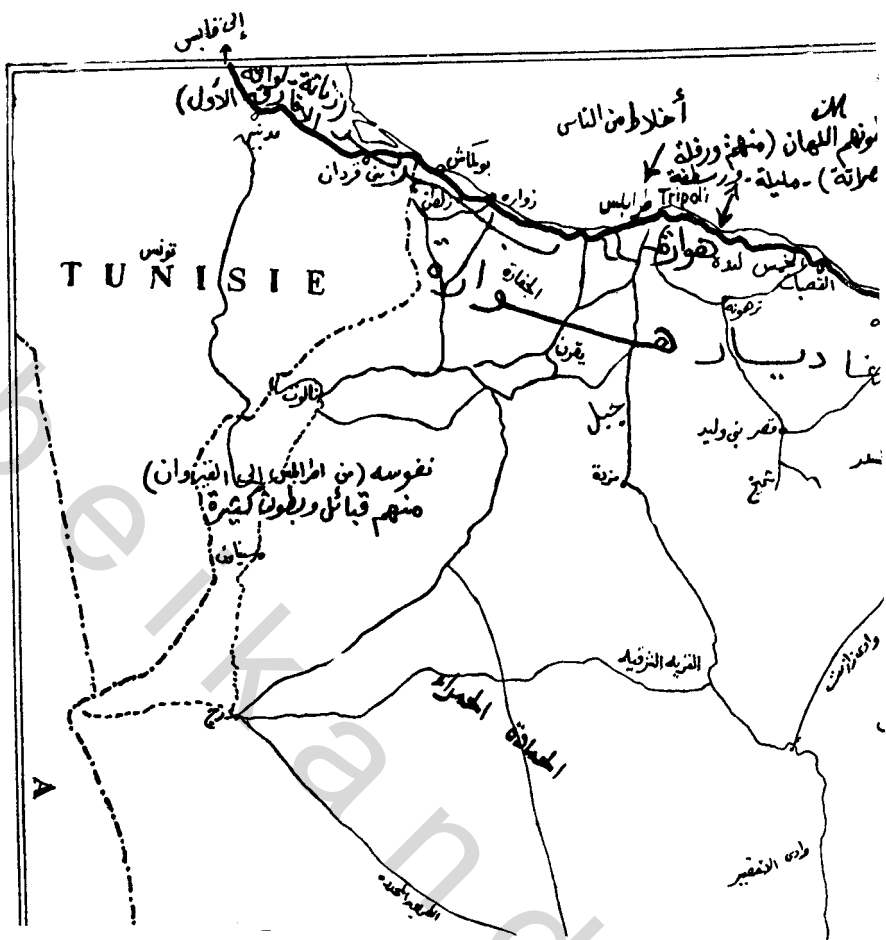
أما « فزان » ، فهم عنصر ثالث جديد ، قرين للبتر والبرانس .

وبعد . ،

فهذه الصورة السكانية - كما وردت عند اليعقوبى - ذات أهمية كبيرة بالنسبة لليبيا ، فى عصورها الاسلامية الأولى ، فضلا عن أنها لا ترد عند الجغرافيين المسلمين ، سواء من كان منهم معاصرا له ، أو من جاء بعده .

المصادر :

- ١ - كراتشكوفسكى : أغناطيوس يوليانو فتش .
- تاريخ الأدب الجغرافى العربى (ترجمة : صلاح الدين عثمان هاشم - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة) .
- ٢ - مصطفى كمال عبد العليم (الدكتور) .
- دراسات فى تاريخ ليبيا القديم . (منشورات الجامعة الليبية - يناير سنة ١٩٦٦) .
- ٣ - نفيس أحمد .
- جهود الجغرافيين المسلمين . (ترجمة : فتحى عثمان - دار القلم بالقاهرة) .
- ٤ - اليعقوبى : أحمد بن إسحاق بن جعفر (ويعرف بابن واضح) .
- كتاب البلدان (تحقيق M. J. De Goeje - ليدن ١٨٩٢) .



المؤثرات السياسية للحرب العالمية الأولى

على إمارات الخليج العربي

للدكتور جمال زكريا فاسم

سنعنى في هذه الدراسة بتتبع تأثيرات الحرب العالمية الأولى على إمارات الخليج العربي ، تلك التأثيرات التى نجمت عن مؤثرات فعالة كان أبرزها محاولة بريطانيا فرض سيطرتها على إمارات الخليج منتبهة فرصة اعلان الدولة العثمانية الحرب عليها كى تطيح بسيادتها على الأجزاء النسالية من الخليج ، تلك السيادة التى كانت مقررة للدولة العثمانية بمقتضى الاتفاق الانجليزى - التركى الذى عقد بين الحكومتين فى ٢٩ يولية ١٩١٣^(١).

وعلى الرغم من أن بريطانيا قد نجحت فى اقضاء القوى الأوروبية وكذلك الدولة العثمانية من التطلع الى الخليج الا أن المجال لم يلبث أن ترك مفتوحا بالنسبة لعلاقتها مع القوى المحلية ، حقيقة ان بريطانيا قد استطاعت فى السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى فى ربط هذه القوى بعجلة سياستها ، الا أن ظروف الحرب كانت العامل الفعال فى احكام هذه العلاقات ، ولذلك كان أهم ما يشغل اهتمام الحكومة البريطانية طيلة سنوات الحرب هو العمل على النفاذ الى هذه القوى وتوجيهها فى اتجاه سياسى موحد خدمة لمصالحها مما يترتب عليه فصلها التام عن أى تعاون مع أية دولة أجنبية وعلى وجه التحديد الدولة العثمانية التى كانت تحاول التأثير على هذه الامارات بثقلها الروحى تحت شعار حركة الجهاد الدينى .

ولما قامت الثورة العربية بزعامة الشريف حسين سعت الحكومة البريطانية للعمل على تأمين هذه الحركة وذلك بالحصول على تأييد الزعماء العرب فى الجزيرة

(١) انظر نص هذا الاتفاق فى كل من :

Huerwitz, Diplomacy in the

Near and Middle East vol I PP. 269 FF, Gooch and Temperley : British Documents on the Origins of the War vol X Part II P. 190 FF.

العربية والخليج العربي وفي أعقاب الحرب عملت على اقرار الهدوء في علاقات الامارات العربية بعضها ببعض الآخر وتم لها ذلك بالفعل بموجب سلسلة من التسويات خصصتها لتخطيط الحدود بين تلك الامارات .

وفي خلال الحرب اعدت الحكومة البريطانية دليلا خاصا للخليج والجزيرة العربية وضعه القسم الجغرافي في ادارة المخابرات الحربية للاميرالية تحت اشراف جورج هوجارث^(١) وهو احد الخبراء في الشؤون العربية وذلك لأن الحكومة البريطانية شعرت بالحاجة الى استعراض للأوضاع يكون أكثر شمولاً من أى استعراض آخر وضع حتى ذلك الحين .. وقد وضع المجلد الرئيسى لدليل الاميرالية في متناول الرجال الرسميين في عام ١٩١٦ وفي متناول الجمهور في عام ١٩٢٠ وقسم الدليل شبه جزيرة العرب الى ثلاثة أقسام ، الأجزاء الداخلية وهى مستقلة من أقصاها الى أقصاها أما عن القسمين الغربى والشرقى فيخضعان فى معظمهما للحماية البريطانية وركز الدليل بصفة خاصة على الأجزاء الخارجة عن نطاق الحماية البريطانية مما يوضح النفوذ الذى حاولت الحكومة البريطانية أن تصل اليه فى المناطق الداخلية وهى المناطق التى كانت لا تهتم بها عادة فى الماضى^(٢) . وقد استطاعت الحكومة البريطانية أن تصل الى ذلك النفوذ لأنها لم تترك أميرا من أمراء العرب الا استمالته ، وعقدت محالفة معه وقد نجحت فى ذلك مع جميع الأمراء العرب تقريبا ولم يخرج من يدها سوى ابن الرشيد فى حائل والامام يحيى فى اليمن .. وعلى الرغم من أن المعاهدات التى عقدتها بريطانيا مع الرؤساء العرب فى الخليج وسواحل الجزيرة العربية ظلت فى نطاقها السلبى أكثر من كونها ايجابية اذ أنها لم تفدها فى محاربة الدولة العثمانية الا أنها استفادت منها مع ذلك فى منع هذه الامارات ورؤسائها من الانضمام الى الأتراك وفى توطيد نفوذها السياسى على سواحل الجزيرة العربية بأسرها .

وعند نشوب الحرب وازدياد احتمال دخول الدولة العثمانية الحرب الى جانب ألمانيا كانت أهم المشكلات التى واجهت الحكومة البريطانية الدفاع عن حقول البترول ومعامل التكرير البريطانية فى جنوب فارس وحماية خطوط

CF The penetration of Arabia « A Record of Western Knowledge Concerning Arabian peninsula », London 1904 See also History of Arabia Oxford, 1922. (١)

cf. British Admiralty, A Handbook of Arabia Vol I General (٢)

الاناييب الموصلة بينهما كما كان على الحكومة البريطانية تقديم حمايتها لشيخو
الخليج المتعاقدين معها والذين أصبحوا مهددين بابتلاع الدولة العثمانية لهم في
حالة دخولها الحرب ضد بريطانيا وكان أكثر الامارات العربية تعرضا لهذه
الأخطار الامارات الواقعة في شمال الخليج وهى امارة المحمرة التى كان يحكمها
الشيخ خزعل خان وعلى الرغم من أنه كان يمارس نفوذا فعليا في امارته الا أنه
كان يخضع للحكومة الفارسية من الناحية الاسمية وكذلك امارة الكويت التى
كان يحكمها الشيخ مبارك بن الصباح الذى كان لا يزال خاضعا للسيادة
العثمانية من الناحية الاسمية وان كانت ظروف علاقته ببريطانيا جعلت من مشيخته
امارة مستقلة تحت الحماية البريطانية^(١) وقد تأكد وضعه هذا بصفة قاطعة بمقتضى
التبليغ البريطانى^(٢) الذى وجه اليه عقب اعلان الدولة العثمانية الحرب على
بريطانيا مباشرة وسوف نشير اليه فيما بعد .

ومما يستلفت النظر أن بريطانيا لم تكن تخش على مركز الشيخو الخاضعين
لحمايتهم في جنوب الخليج بعكس شيخو الامارات الواقعة في الشمال لأن وضع
الشيخو الأول كان مؤمنا بتصاعد قوة عبد العزيز آل سعود امير نجد الذى
أصبح بعد استيلائه على الاحساء في عام ١٩١٣ يشكل قوة عازلة بين هؤلاء
الشيخو القابعيين في الجنوب وبين النفوذ العثماني في الشمال وان كانت حكومة
الهند قد أضحت مع ذلك في حالة قلق متزايد من احتمال توسعه في الخليج على
حساب هذه الامارات مما استوجب اقرار العلاقة بينها وبينه محافظة على الأوضاع
الراهنة^(٣) .

وقد لاحظ المراقبون السياسيون والعسكريون أن شيخى المحمرة والكويت
يمكن أن يتعرضا أكثر من غيرهما للتهديد العثماني الذى قد يؤدي الى ضياع
النفوذ البريطانى أو التشكيك فيه على الأقل ولذلك رجح الرأى بضرورة ارسال
حاميات عسكرية للتركز في شمال الخليج خاصة وأن بريطانيا كانت تخشى من

(١) راجع في ذلك الاتفاقية الانجليزية الكويتية ١٨٩٩ ، وكذلك الانفاق
الانجليزى التركى ١٩١٣ Cf. gooch and Temperley, op. cit. Vol X Part II P. 190.

(٢) cf. Huerwitz, op. cit. Vol II P. 4

(٣) Marlowe, The persian gulf in the Twentieth Century P. 44.

انتشار دعوى الجهاد التى أعلنها السلطان العثمانى مشيراً بذلك رعاياها المسلمين فى الهند والخليج العربى^(١) .

والجدير بالذكر ان نشوب الحرب كان فرصة لبريطانيا لتدعيم نفوذها فى منطقة الخليج العربى ، ذلك النفوذ الذى حاولت تأكيده ونجحت فى ذلك الى حد كبير فى السنوات السابقة للحرب ، لقد تعرضت بريطانيا فى خلال هذه السنوات لمنافسات خارجية شديدة الوطأة من قبل الفرنسيين والألمان والروس^(٢) واذا كانت بريطانيا قد استطاعت التخلص من روسيا بعد عقد تسوية ١٩٠٧ فانها ركزت جهودها بعد ذلك على التخلص من المنافسة الفرنسية وبخاصة فى سلطنة مسقط ... قد يكون حقيقة أن الاتفاق الودى ١٩٠٤ خفف الى حد كبير من اخطار المنافسة الانجليزية الفرنسية الا أن هذا التنافس استمر مع ذلك قائماً الى الشهور القليلة التى سبقت اندلاع الحرب العالمية الأولى ومع ذلك فقد استطاعت انجلترا باقتراب الحرب القضاء على آخر نشاط فرنسى فى مسقط بوصولها الى اتفاق مع الحكومة الفرنسية كان يقضى بموافقتها على إلغاء المعاهدة التى كانت تربطها بسلطنة مسقط والتى يرجع تاريخها الى عام ١٨٤٤^(٣) ومن المعروف أن هذه المعاهدة كانت تكأة للنشاط الفرنسى فى مسقط^(٤) الذى ظهر بصفة خاصة فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى فرنسة السفن العثمانية وفى تجارة الأسلحة^(٥) ، واذا كانت المشكلة الأولى قد حلت بمقتضى التحكيم بلاهاى فى عام ١٩٠٥^(٦) فان تجارة الأسلحة استمرت

(١) Philip Graves, The life of sir Percy Cox P. 178.

(٢) راجع كتابنا « الخليج العربى » الباب الثالث التنافس الاوروبى فى الخليج العربى .

(٣) راجع كتابنا « دولة بوسعيد فى عمان وزنجبار » العلاقات الخارجية لسعيد بن سلطان ، الفصل العاشر ص ٢٠٧

(٤) Rolandschay, India under Curzon and After vol. III P. 47

(٥) cf. Memorandum Grant of French Flags to Mascat Dhows P. 2 India Office political and secret library Confidential 8574 B. 134. See also Arms Traffic at Muskat B. 182.

(٦) راجع محكمة العدل الدولية بلاهاى يونيو ١٩٠٥ فى :
Revue de droit Internationale Tome 131, 1906 P. 145

قائمة الى أن ألغيت المعاهدة الفرنسية المسقطية في يناير ١٩١٤^(١) وقبلت الحكومة الفرنسية أن تسلم بالغائها نظير تعويض دفعته الحكومة الانجليزية للتجار الفرنسيين المشتغلين بتجارة الأسلحة . ومن المؤكد أن فرنسا قد أخذت بوجهة النظر الانجليزية فيما تشكله هذه التجارة من خطورة على مستعمراتها في آسيا وأفريقيا^(٢) فضلا عن أن ظروف الحرب اقتضت نوعا من التضامن بين الحكومتين الانجليزية والفرنسية ورضيت فرنسا أن تسلم أخيرا بنفوذ بريطانيا في منطقة الخليج العربي . ومع ذلك فقد شهدت الفترة السابقة لاعلان الحرب كثرة المبعوثين السريين الذين توافدوا على الخليج والجزيرة العربية من انجليز وألمان وفرنسيين وروس وعثمانيين وغيرهم همهم البحث عن حلفاء ينضمون الى جانب دولهم عند قيام الحرب .

وعلى الرغم من أن النفوذ البريطاني في شمال الخليج لم يكن بنفس الدرجة التي كان عليها في الجنوب الا أن بريطانيا استطاعت في السنوات السابقة لقيام الحرب التغلغل في شمال الخليج وكان الرؤساء العرب وهم خزعل خان ومبارك بن الصباح وعبد العزيز آل سعود بالإضافة الى رؤساء العشائر العربية والفارسية في جنوب فارس مهئين للصداقة البريطانية ، وتمثل اماره المحمرة التي كان يحكمها الشيخ خزعل أهمية خاصة فأنايب البترول التابعة لشركة النفط الانجليزية الفارسية تمر بأراضيها ، كما أن اماره الكويت تقع خلف خطوط الحملة التي تقرر ارسالها لاحتلال العراق ، كما وطدت بريطانيا علاقتها بالرؤساء الآخرين في الجزيرة العربية والملاحظ أن بريطانيا ردت على اعلان الدولة العثمانية الجهاد الديني بنشاط كبير لمحو أثره وتقادى خطره على موقف الحلفاء فاتصلت به اسطة رسلها الذين وزعتهم في مختلف أنحاء الخليج والجزيرة العربية بكل من ابن سعود أمير نجد والشيخ مبارك حاكم الكويت والأمير الادريسي حاكم عسير والشيخ خزعل الذي وعدته بتعيينه واليا على البصرة والجدير بالذكر أن هؤلاء الرؤساء لم يكونوا بمعزل عن الحركة العربية التي اتخذت مركزها في سوريا منذ عهد الاتحاديين من ذلك أن الشيخ مبارك بن الصباح كان مشتركا

(١) جان بيشون : بواعث الحرب العالمية الاولى في الشرق الأدنى ص ٢٧

(٢) جريدة المقطم العدد ٧٥٣٨ في ١٣/١/١٩١٤

مع السيد طالب النقيب والشيخ خزعل حاكم المحمرة في زعامة فرع « لحزب الحرية والائتلاف » وكان هذا معارضا لحزب الاتحاد والترقي . وقد تأسس هذا الفرع في البصرة أثر ثورة الاتحاديين الذين اتهموا سياسة تعسفية ترمى الى مركزية الحكم واضعاف سيطرة شيوخ الخليج وكان كل من شيوخ الكويت والمحمرة والبحرين وغيرهم يجدون في السيد طالب النقيب خير من يتولى مصالحهم ضد تعسف الادارة العثمانية ازاء العناصر غير التركية . والواقع أن انتماج مبارك سياسة عدائية ضد الدولة العثمانية كانت سببا مباشرا في تأليب الاتحاديين لشيخ المنتفق سعدون باشا لأن مبارك لم يكن حائزا على ثقة عمال الدولة^(١) وفي أثناء انشغال الدولة العثمانية بحرب البلقان في عام ١٩١٣ ظهر نجاح زعماء حزب الحرية والائتلاف في البصرة في عقد مؤتمر عربي في امانة المحمرة^(٢) حضرة الشيخ خزعل والشيخ مبارك والسيد طالب النقيب ودار في هذا المؤتمر البحث حول مستقبل العراق ووصل المجتمعون الى أن يبذل كل من الرؤساء جهده لتحقيق مطالب العراق في الاستقلال ، وفيما يبدو أن هذا المؤتمر كان يهدف الى اقرار أحد من أولئك الزعماء بتولي حكم العراق^(٣) ويبدو أن الحكومة البريطانية كانت تعلم بذلك ان لم يكن قد تم هذا تحت اشرافها وبتشجيع منها^(٤) وقد نجد من المناسب أن نعرض لمؤتمر آخر اشترك فيه بعض أمراء العرب عقد حول ذلك الوقت أيضا على مقربة من الاحساء وعرف باسم مؤتمر جزيرة العرب وفيه تباحث مندوبو الرؤساء في وسائل المحافظة على الإمارات العربية في الخليج ومطالبة الدولة العثمانية بالاصلاح^(٥) ولعل هذه الملامح التي أشرنا اليها تؤكد تماما أن امارات الخليج وخاصة الامارات الشمالية لم تكن بمعزل عن الحركة العربية التي ظهرت حول ذلك الوقت والتي كانت تطالب الدولة العثمانية بالاصلاح وتحقيق اللامركزية في الحكم بل أن حركة الأمير عبد العزيز آل سعود اذا نظرنا اليها من وجهة الحركة العربية نجد أنها

(١) الريحاني - تاريخ نجد الحديث وملحقاته ص ١٨٤/١٨٩

(٢) دروزة - حول الحركة العربية الحديثة ج ١ ص ٣٤

(٣) Ireland, Iraq P. 233

(٤) الشملان - من تاريخ الكويت ص ٢٧١

(٥) جريدة الاصلاح - مؤتمر جزيرة العرب بيروت العدد ١٩٨ : ١٩ تشرين

الثاني ١٩١٣

كانت ترمى الى امتداد سيطرته على أنقاض السيطرة العثمانية المتداعية . وقد كتب عبد العزيز آل سعود الى شفيق كمالى باشا حاكم عسير يشرح له وجهة نظره فى تقسيم البلاد العربية الى دويلات مستقلة فى داخليتها على أن تكون فى نفس الوقت تابعة للدولة العثمانية وتحت سيادتها^(١) .

ون هذا يتضح أن امارات الخليج العربى كانت متأثرة بدورها بتيار الحركة العربية مما حدا ببريطانيا الى العمل على احتضان هذه الحركة وتوجيهها الوجهة التى تريدها وتتفق مع مصلحتها خاصة فى هذه الظروف الملائسة لقيام الحرب وقد ركزت الحكومة البريطانية جهودها عند نشوب الحرب على ثلاثة رؤساء هم الشيخ مبارك والشيخ خزعل والسيد طالب النقيب وقد فشلت مفاوضاتها مع الأخير على الرغم من أنها وعدته بتعيينه والىعلى البصرة لتسكه بموقفه واصراره على عدم تأمين حملة العراق أما الأميرين الآخرين فلم تكن هناك صعوبة فى اجتذابهما للسياسة البريطانية اذ سبق أن وعدهم الانجليز بالاستقلال التام بالنسبة للدولة العثمانية أو فارس الا أن المشكلة كانت تتعلق بموقف رعاياهم وميل غالبيتهم للدولة العثمانية بدافع من شعورهم العاطفى لدولة الخلافة الاسلامية ذلك أن معظم العشائر فى جنوب فارس والعراق لم تقبل التعاون مع الانجليز كما تعرض شيخ الكويت والشيخ خزعل لردود فعل عنيفة من قبل الوطنيين الذين ساءهم انضمام شيوخهم الى جانب الانجليز .

وعلى الرغم من أن حركة الجهاد الدينى كانت تشكل خطورة كبيرة وكانت موضع حذر شديد من قبل المراقبين السياسيين من أمثال ايتشيسون الموكل بالشئون الخارجية من قبل حكومة الهند الا أن السير يرسى كوكس المقيم السياسى فى الخليج كان من راية أنه يمكن التغلب على خطورة هذه الحركة باحكام السيطرة البريطانية على الخليج وباستغلال الخلافات المذهبية والسياسية القائمة بين فارس والدولة العثمانية فى منع وصول القوات العثمانية الى المقاطعات الفارسية فى الجنوب ولذلك نستطيع أن نقول ان الحملة البريطانية التى تقرر ارسالها الى

(١) انظر مذكراتى فى بلاد العرب لوالى البصرة شفيق كمالى باشا — نشرت تباعا فى جريدة الاهرام فى ٢٢ نوفمبر ١٩٢٤ العدد ١٤٥١٠ وما يلى ذلك .

شط العرب كانت في أحد أهدافها تعمل على حصر تيار الجهاد الديني الى جانب حماية آبار البترول في مسجد سليمان^(١) الواقعة في اقليم الأهواز والتي يربطها خط أنابيب بعبدان خاصة وأن البحرية البريطانية بدأت في استخدامه للوقود وأصبح من الضرورات الهامة لكسب الحرب . وقد رأت القيادة البريطانية أنه لا بد من احتلال ولاية البصرة مع جزء من أراضي فارس بهدف تأمين تلك الآبار بل أن الخطة البريطانية لم تلبث بعد ذلك أن امتدت الى احتلال العراق بأكمله لما قدره الخبراء العسكريون من امكان الاتصال بروسيا عبر أراضي الدولة العثمانية والوقوف معها ضد احتمال التقدم الألماني التركي في الاتجاه الشرقي عبر فارس والقوقاز الى الهند وأفغانستان وأواسط آسيا ، ومن المعروف أن هزيمة الانجليز في كوت الامارة في عام ١٩١٧ قد عطلت تحقيق هذه الأهداف ولذلك استمرت منطقة الخليج العربي مدة طويلة مجالا مفتوحا للصراع الدولي وخاصة في فارس ، وعلى الرغم من أن بريطانيا كانت تشق في الشيخ خزعل الذي أعلن وقوفه الى جانبها وتنازل عن جزيرة عبادان^(٢) لصالح شركة البترول الانجليزية الفارسية ، وعلى الرغم مما كانت تعلق عليه الحكومة البريطانية والشركة من أهمية بالغة في المحافظة على الأوضاع الراهنة في المنطقة الا أنها كانت مع ذلك تخشى من تأثير مركزه وكذلك مركز الشركة في ناحيتين هامتين :

الأولى : احتمال تعرضه لعداء من قبائل البختيارى القاطنة في جبال زاغروس الى الشمال الشرقي من خوزستان^(٣) ومن المعروف أن هذه القبائل كانت تسبب الكثير من القلق والمتاعب لشركة البترول الانجليزية الفارسية وكذلك تسبب الكثير من الاضطرابات للشيخ خزعل ولذلك أخذت صلات الانجليز تتوثق بهذه القبائل التي كانت على استعداد للتعاون دوما مع أية دولة تزودها بالمال والسلاح وتحول دون خضوعها للحكومة المركزية في طهران .

الثانية : تعرض ممتلكاته وأعوانه لعدوان من قبل الدولة العثمانية بعد اعلانه صراحة موقفه . ولهذه الأسباب بدأت القيادة البريطانية ترى أنه لتأمين

(١) اكتشاف البترول في هذه المنطقة في عام ١٩٠٨

(٢) جزيرة صغيرة تقع في وسط شط العرب .

(٣) Philip Graves op. cit P. 175.

مركز بريطانيا في شمال الخليج وجنوب فارس ينبغي لها أن تسيطر على البصرة . وفي نهاية سبتمبر ١٩١٤ وافقت حكومة المستر أسكويث Asquith على ارسال حملة هندية الى الخليج العربي وذلك استنادا على المذكرة التي قدمها السير آرثر هرتزل A. Hirtzel^(١) من قسم الشؤون السياسية بوزارة الهند في ٢ سبتمبر ١٩١٤ والتي أكد فيها أن الدولة العثمانية ستتنضم الى دول الوسط وأن المسألة لا تعدو أن تكون مسألة وقت قبل أن تعلن الدولة العثمانية موقفها بصراحة ، وركز هرتزل على أنه من الخطورة ترك شمال الخليج دون أحكام السيطرة البريطانية لما قد يؤدي اليه ذلك من نجاح الدولة العثمانية وحليفها ألمانيا في اثارة مسلمي الهند ضد الأمبراطورية البريطانية^(٢) .

كانت هذه هي الظروف التي أدت الى حملة العراق المشهورة التي يطلق عليها اسم Indian force Expedition والتي يرمز لها اختصارا I. F. E. وعهد بقيادة هذه الحملة الى الكولونيل ديلاмин Delamin وكان على هذه الحملة أن تعسكر في جزيرة عبادان . وكان وجود الحملة من شأنه ادخال الطمأنينة لدى الشيوخ المحليين وزعماء القبائل في جنوب فارس والعراق بحصولهم على الحماية البريطانية في حالة تعرضهم لهجوم عثماني وقد وصلت حملة ديلامين بالفعل الى منطقة شط العرب في ٥ نوفمبر ١٩١٤ ، وعند وصولها في ذلك التاريخ كانت الدولة العثمانية قد أعلنت الحرب على بريطانيا قبل ذلك بأيام قليلة ، وما أن أعلنت الحرب من جانب الدولة العثمانية حتى غادر القنصل البريطاني مدينة البصرة ملتجئا الى المحمرة التي اتخذت قاعدة من قواعد النفوذ البريطاني في خلال سنوات الحرب العالمية الأولى^(٣) .

من هذا يتضح أن حملة شط العرب كانت أمرا مقررًا سواء أعلنت الدولة العثمانية الحرب أم لم تعلنها خاصة وأن النشاط الألماني كان قد بلغ أقصى حد له في جنوب فارس ، وقد رأت حكومة الهند أن تتنزه فرصة اعلان الدولة

(١) انظر التقارير التي أعدها السير هرتزل والمستر باركر عن الأوضاع في الخليج العربي في الوثائق السياسية المتعلقة بأسباب الحرب العالمية الأولى المجلد العاشر الجزء الثاني ص ٧٠ وما بعدها .

(٢) Philip Graves, The Life of sir Percy Cox P. 178

(٣) Marlowe, op. cit. P. 44

العثمانية الحرب حتى تستميل اليها بصراحة أكثر شيوخ الامارات العربية في شمال الخليج وقد اتضح ذلك بصفة خاصة بالنسبة لامارة الكويت فعلى الرغم من أنه حين نشبت الحرب لم تكن الامارة ملزمة بموقف معين نجاه بريطانيا الا أن الموقف قد تغير باعلان الدولة العثمانية الحرب اذ ظهر في الكويت شئ من العطف على الدولة العثمانية وكان لابد في هذه الحالة أن تتخذ الحكومة البريطانية موقفا حاسما ووضح ذلك في التبليغ البريطاني الذي وجهه المقيم السياسى البريطانى في الخليج السير برسى كوكس الى الشيخ مبارك بن الصباح حاكم الكويت وتضمن ذلك التبليغ أن يعمل بالتعاون مع مشايخ العرب الموالين لبريطانيا لهدف أساسى هو تحرير البصرة من السيطرة التركية ويهاجمون لذلك أم القصر وصفران وبوبيان ويعملون أيضا على منع الامدادات التركية من الوصول الى البصرة الى جانب تأمين المعدات البريطانية وحماية المقيمين في البصرة وممتلكاتهم كما تعهدت الحكومة البريطانية من جانبها بتأمين شيخ الكويت ضد جميع الآثار التى يمكن أن تترتب على الهجوم الذى طلبت منه أن يقوم به فى صفوان وأم القصر وبوبيان الى جانب التعهد بعدم اعادة البصرة بعد تحريرها الى الحكومة التركية والاعتراف بأن مشيخة الكويت حكومة مستقلة تحت الحماية البريطانية^(١) الى جانب ضمانها ابقاء حدائق وبساتين النخيل التى فى حيازته وحيازة خلفائه فى منطقة الفاو معفاة من الضرائب بصفة دائمة^(٢) .

وعقب هذا التبليغ اخذ الشيخ مبارك يعبى قواته من البدو الذى كان يملك عليهم تأثيرا خاصا ضد احتمال غزو تركى لامارته وعلى الرغم من أنه لم يشتبك فى عمليات عسكرية ايجابية الا أن قواته كانت مهمة فى تأمين ظهر القوات الهندية فى المراحل الأولى من حملة العراق^(٣) ، كما ظل الشيخ رغم المعارضة

(١) على الرغم من أن التبليغ البريطانى كان مؤقتا بظروف الحرب وكان من المفروض أن تنتهى صفة الحماية البريطانية للكويت عقب زوال الظروف الداعية اليها فقد استمرت بريطانيا محتفظة بذلك الوضع حتى عام ١٩٦١

(٢) الواقع أن التعهد الذى قدمته الحكومة البريطانية لكل من شيخ الكويت وشيخ المحمرة باعفاء مزارع نخيلهم فى الفاو وشط العرب من الضرائب ادسبح معرضا بعد ذلك للنقد الشديد لأن الحكومة الوطنية التى قامت فى العراق على انقاض الحكومة التركية اخذت تمارس سلطتها فى فرض الضرائب على هذه المزارع.

الوطنية ثابتا في مساندة الانجليز في احتلالهم للبصرة وأبدل العلم العثماني الذي كان يرفعه على امارته وعلى ظهر سفنه بعلم كويتي خاص استجابة لتعليمات الحكومة البريطانية حتى يمكن لقواتها أن تميز بين أعلام الكويت الصديقة وبين الأعلام العثمانية المعادية^(١) وتبع التبليغ البريطاني الى الكويت تبليغ آخر أعلنه السير برسي كوكس غداة وصول الحملة الى شط العرب للزعماء العرب القاطنين في المنطقة في ٥ نوفمبر ١٩١٤ وذلك بهدف ايجاد جو مهيب للحملة البريطانية التي كان عليها التقدم بعد ذلك من الفاو صوب البصرة بهدف احتلالها وقد جاء في هذا التبليغ «ليكن معلوما لديكم أن الحكومة البريطانية اضطرت للدخول في الحرب ضد الدولة العثمانية نتيجة لتحريض ألمانيا وقد اضطرت الحكومة البريطانية ازاء ذلك الى ارسال حملة الى شط العرب بغرض حماية تجارتها وأصدقائها وطرد القوات التركية المعتدية وليكن معلوما للجميع أن بريطانيا ليست في نزاع مع السكان العرب القاطنين على شواطئ دجلة والفرات وعلى هؤلاء ألا يسمحوا للسفن التركية أن ترسو في موانئهم وعليهم أيضا ألا يحملوا سلاحا لأنه من الصعب على القوات البريطانية أن تفرق بين العدو والصديق المسلح». وكان من أثر التحركات العثمانية في مقاطعة خوزستان والاهواز أن خشيت الحكومة البريطانية ما قد يترتب على ذلك من تهديد للمنشآت البترولية في المنطقة فتقدمت فرقة من القوات الهندية من قارون الى الأهواز بهدف حماية هذه المستودعات من ناحية فضلا عن تقديم الحماية لشيخى الكويت والمحمرة والوقوف الى جانبهما ضد احتمال تقدم ألماني تركي في مياه الخليج ، وفيما يبدو أن الضغط العثماني كان بالغاً أشده لدرجة استتجد معها الشيخ خزعل بالمقيم السياسي في الخليج في رسالة بعثها اليه في ١٠ نوفمبر ١٩١٤ كما كان على الحكومة البريطانية أن تعزز ضمانها بتقديم الحماية للزعماء العرب في جنوب العراق ووعدهم بتخليصهم من الترك ومواصلة جهودها لطردهم من مقاطعات جنوب فارس الى جانب تقريرها احتلال ولاية البصرة .

(١) الفرحان : مختصر تاريخ الكويت ص ١٢٢ ، ويلاحظ أن الراية الكويتية الخاصة بدأت تستخدم منذ أن ضربت إحدى المدرعات الحربية البريطانية سفينة كويتية لرفعها الراية العثمانية على اعتبار أنها من سفن الأعداء .

وقد ثار الوطنيون على الشيخ خزعل حاكم المحمرة لشده أزر الانجليز ضد الدولة العثمانية وفيما يرجح لدينا أن العثمانيين كانوا هم المحرضين لثورة السادة التي واجهها الشيخ خزعل ابان نشوب الحرب ، ولما كان الشيخ مبارك ابن الصباح يخشى من احتمال انتقال الثورة الى بلاده فقد رأى أن يمد صديقه خزعل بمتطوعين من بلاده ولكن الكويتيين وقد علموا أنهم سيقاتلون اخوانهم أظهروا العصيان وجأهروا بالامتناع^(١) ووضح أن دعوة الجهاد الديني قد أثمرت ثمرتها في الكويت لدرجة آثر معها مبارك أن يقابل الموقف بالهدوء فلم يجد ما يعطل موقفه أمام قومه سوى تذكيرهم بالصدقة التي تربط بينه وبين الشيخ خزعل وأنه لم يقصد الا حمايته وحماية أسرته وأمواله من التأثيرين عليه ومراعاة لعاطفة الصداقة وان كان قد تبع ذلك بتقرير ضريبة فادحة على الذين تزعموا هذا التمرد كما نفى المحرضين للثورة واستدعى نفرا منهم بحضور القنصل الانجليزى في الكويت حيث واجههم بتأنيب شديد . وهكذا نكاد نلمح أن الشيخ مبارك قد واجه بوادر حركة عصيانية ان لم تكن بوادر ثورة وطنية حينما أعرب له الكثيرون من أنهم يعتبرون الخروج على الدولة العثمانية ارتدادا صريحا عن الاسلام^(٢) .

وكان من نتيجة التحركات العثمانية التي كان يقودها سامى بك قائد القوات العثمانية في البصرة وتقدمه الى منطقة مواجهة للمحمرة في ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٤ بهدف احتلالها وتقدم قوات عثمانية أخرى بهدف احتلال بعض المقاطعات الفارسية أن صممت القيادة البريطانية على ضرورة احتلال البصرة وهكذا بينما كان مقررا للحملة البريطانية ان تقتصر في بداية الأمر على منطقة شط العرب عند رأس الخليج لم يلبث أن اتسعت منطقة عملياتها نتيجة للتحركات العثمانية المشار اليها ، وبالفعل تم للانجليز احتلال البصرة في ٢١ نوفمبر سنة ١٩١٤ وأذاع السير برسى كوكس غداة احتلالها منشورا أكد فيه أن الامبراطورية تحوى عناصر مسلمة أكثر مما تحتويه الامبراطورية العثمانية المتداعية^(٣) » ويلاحظ أن الحملة

(١) عبد العزيز الرشيد - تاريخ الكويت - ج ٢ طبعة بيروت ص ١٧٤

(٢) الشملان : تاريخ الكويت ص ١٧١

(٣) Graves, op. cit. P. 181.

الانجليزية لم تقتصر على احتلال البصرة وانما وجهت اهتمامها بعد ذلك الى احتلال بغداد ردا على التحركات العثمانية الالمانية اذ اتخذ الالمان من قنصليتهم في بغداد محورا لنشاط دبلوماسي واسع المدى في الشرق الأوسط وفي منطقة المحيط الهندي فأعدت الكثير من البعثات السرية للاتصال بالحكام وأهمها بعثة ارسلت الى فارس برئاسة وازماس Wasmass كان من أهم أهدافها الاتصال بأنصار الالمان وتنظيم حرب غير نظامية ضد الانجليز في مناطق النفط في جنوب فارس وكذلك في سواحل الخليج التي يمكن أن يصل اليها النفوذ الألماني . وعلى الرغم من أن فارس أعلنت حيادها في الحرب الا أنها لم تكن في مركز يسمح لها أن تؤكد أو تدافع عن هذا الحياد اذ أنها لم تستطع أن تتجنب نشاط الدول المتصارعة من الجانبين وكان الانجليز كثيرا ما يتهمون الدولة العثمانية بأنها لم تحترم حياد فارس في حين أنهم لم يحترمواهم أنفسهم ذلك الحياد كما أصبح القسم الشمالي الغربي من فارس أرض قتال بين الروس والترك الروس من القوقاز والترك من آسيا الصغرى ونتيجة للنشاط الذي بذله واسماس أصبحت القبائل في جنوب غربي فارس الى جانب ألمانيا حتى لقد أطلق على واسماس لقب « لورنس فارس » والحقيقة أن الالمان قد نجحوا في سنوات ما قبل الحرب في تعزيز مركزهم الاقتصادي واقامة علاقات اقتصادية مع فارس^(١) وعندما نشبت الحرب كانوا في مركز موائم للقيام بنشاط ضد الحلفاء وطالما كانت فارس محتفظة بحيادها فانهم احتفظوا — بعلاقاتهم الدبلوماسية والقنصلية وممثليهم التجاريين ولكن لم تلبث أن أخذت كل من روسيا وبريطانيا تهددان حياد فارس بعد نشوب الحرب وكذلك كانت تفعل الدولة العثمانية حليفة ألمانيا ، وحول نهاية سنة ١٩١٤ كانت البعثة الألمانية المشكلة من واسماس وبعض الالمان الآخرين قد استطاعت الوصول الى بغداد بهدف تخطيط بعض العمليات العسكرية في فارس ، ومن أهم الخطط التي وضعت في ذلك الوقت والتي لم يقدر لها أن تنفذ بفعل المراقبة البريطانية الشديدة الدخول الى أفغانستان عبر فارس ومن هناك محاولة تحريض الأمير حبيب الله أمير أفغانستان على الانضمام الى جانب ألمانيا لمهاجمة الهند ، والخطوة الثانية محاولة اثارة الأكراد في شمال فارس ضد الانجليز ،

(١) راجع النشاط الألماني في فارس والخليج العربي في تاريخ الحرب العظمى — المجلد السادس جريدة المقتطف ص ٤٩٦ وما بعدها .

ومع ذلك فإن أهم العمليات هي التي قادها واسماس بنفسه في جنوب غرب فارس والتي كانت موجهة ضد مستودعات البترول والمصالح البريطانية في بوشهر، وكان واسماس يعتمد على المدة التي قضاها في بوشهر حينما كان قنصلا لبلاده في السنوات السابقة للحرب في الحصول على تأييد من جانب أنصاره العديدين من الفرس الذي تمكن بمساعدتهم بالفعل من الاستيلاء على المنشآت البريطانية في شيراز ونجح في حصار المقيمة البريطانية في بوشهر كما نجح في احتلال شيراز نفسها مما اضطر بريطانيا الى نقل جزء من قواتها العاملة في العراق ، وقد علل البعض هزيمة كوت الامارة نتيجة لذلك ولاشك أن هزيمة الانجليز في عام ١٩١٦ قد أثرت على مركزهم في فارس فقد زحف العثمانيون شرقا الى خافقين وهددوا من جديد آبار مسجد سليمان وقابل الانجليز ذلك بارسال حملة أخرى عبر سهل قارون لحماية الآبار وهكذا ازدادت أعباء بريطانيا العسكرية ولم تكن ظروفها تسمح لها بفتح جبهة جديدة في فارس ومن ثم لجأت حكومة الهند الى تكوين جيوش من الوطنيين يقودها ضباط انجليز وبالفعل استطاع السير برسي سيكس Sykes^(١) تكوين قوة كبيرة من الهنود والقبائل الفارسية والعربية التي انحازت الى الانجليز ولم تسير الحركات الاسلامية أو الوطنية ، تلك الحركات التي كانت تعطف على دولة الخلافة الاسلامية وحليفها ألمانيا وقد عرفت هذه القوة باسم South Persia Rifles ، وبفضل نشاط سيكس أخذ مركز واسماس يتدهور تدهورا سريعا^(٢) واستطاعت بريطانيا خلال العامين المتتبعين من الحرب المحافظة على سيطرتها في جنوب فارس والخليج العربي^(٣) .

ومن حيث تعامل بريطانيا مع رؤساء الخليج فقد حرصت بعد قيام الحرب مباشرة على جمع الرؤساء التابعين لها والزامهم بسياسة موحدة اذ أنها كانت تخشى خلال وقوع العمليات العسكرية في شمال الخليج وشط العرب والبصرة من أن تستغل الدولة العثمانية العاطفة الدينية لجذب أولئك الرؤساء اليها بشكل

(١) السير برسي سيكس كتاب معروف عن تاريخ فارس .

Cf. Sykes, History of Persia, London 1951 2 vols.

(٢) عقب هدنة ١٩١٨ هرب واسماس ولكن لم يلبث أن اعتقله الفرس واسلموه الى الانجليز الذين أرسلوه بدورهم الى ألمانيا انظر : Marlowe op cit P. 44

(٣) العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ص ٢٣٩

قد يؤدى الى عرقلة خط سير الأساطيل البريطانية ونقل قواتها عن طريق الخليج أو افساد الحصار الذى قررت فرضه على الدولة العثمانية من المنافذ العربية ولذلك رأت أن تسبق الدولة العثمانية فى الاستفادة من أولئك الرؤساء الذين سبق لها أن تحالفت معهم ومعرفة موقفهم من الحرب حتى اذا ما وجدت منهم ميلا اليها جمعت كلمتهم تحت من تراه أكثر استعدادا على تأييدها ومساندتها ولذلك سارع اللورد هاردنج Hardinge نائب الملك فى الهند بالقيام برحلة الى الخليج العربى^(١) والعمل على تنظيم اجتماع يضم كل من عبد العزيز آل سعود حاكم نجد والاحساء والشيخ خزعل خان حاكم امارة عربستان والشيخ عيسى بن خليفة حاكم البحرين والسيد تيمور بن فيصل سلطان مسقط فى ضيافة الشيخ مبارك بن الصباح بالكويت لتوسط المدينة وأهميتها فى العمليات العسكرية البريطانية فى منطقة الخليج وشط العرب^(٢) وفيما يرجح أن ما ذهبت اليه حكومة الهند كان يهدف بالدرجة الأولى الى تأييد ظهر حملة العراق وقد عرف هذا الاجتماع باسم مؤتمر الكويت الأول تميزا له عن مؤتمر ثان عقد بالامارة فى العام التالى وسوف نشير اليه فيما بعد .. وتولى اللورد هاردنج بعد وصوله الى امارة الكويت فى يناير سنة ١٩١٥ رئاسة المؤتمر^(٣) وحضر الاجتماع كل من السير برسى كوكس الذى وفد من البصرة والقنصل الانجليزى فى الكويت والشيخ مبارك بن الصباح على أن مؤتمر الكويت الأول لم يسفر عن نتيجة ذات أهمية بالنسبة للحكومة الهند اذ لم يلب الدعوة من أمراء العرب الذين وجهت اليهم الدعوة لحضور هذا الاجتماع سوى الشيخ عيسى بن خليفة حاكم البحرين الذى أوفد ابنه حمد ليحضر المؤتمر نيابة عنه أما عبد العزيز آل سعود فعلى الرغم من أن الحكومة البريطانية كانت تجد فى ذلك المؤتمر فرصة للاجتماع به الا أنه لم يلب الدعوة على الرغم من أن الشيخ مبارك قد كلف من قبل

(١) عرض اللورد هاردنج رحلته التى قام بها فى الخليج العربى عقب نشوب الحرب العالمية الأولى ضمن مذكراته عن السنوات التى قضاها نائبا للملك فى الهند انظر :

Lord Hardinge, My Indian years, The Reminiscences of Lord Hardinge of the Pan-Khurst London 1945 PP. III — II4 see also old diplomacy London 1947.

(٢) حسين خزعل - تاريخ الكويت السياسى ج ٣ ص ٣١ انظر ايضا عبد العزيز الرشيد تاريخ الكويت ج ٢ ص ١٧٢/١٧٣

(٣) CF. Lord Hardinge, my Indian Years PP. 113-114. (٣)

حكومة الهند أن يبذل كل ما فى وسعه لحثه على ضرورة الحضور وبالفعل أخذ مبارك فى الفترة التى سبقت انعقاد المؤتمر يلح عليه بالحضور الى الكويت ويحذره من أن يمنعه عن حضور المؤتمر أى مانع سيما ابن الرشيد فان الاشتغال بمحاربته قد يؤدى الى ارتفاع قيمة غريمه فى أعين الانجليز أو الأتراك ، ولكن فيما يبدو أن عبد العزيز كان مشغولا بالفعل بأمر ابن الرشيد لدرجة حالت بينه وبين حضور المؤتمر أو لعله فيما يعتقد البعض قد استاء من عقد المؤتمر فى الكويت اذ كان قد تولد بين مبارك وعبد العزيز شىء من التحاسد .

أما تيمور بن فيصل سلطان مسقط فلم يحضر الاجتماع بدوره لانشغاله بقمع الثورة الأباضية التى قامت ضد حكمه ، كذلك انشغل خزعل خان بقمع ثورة السادة فى بلاده أو لعله من ناحية أخرى قد استسلم للمعارضة الشعبية التى قامت ضد هذا المؤتمر .

وازاء هذه الظروف لم يجد اللورد هاردنج بدا من تأجيل المؤتمر الى وقت آخر غير أنه لم يشأ أن يفض الاجتماع دون استفادة فأراد أن يذكر الشيخ مبارك بفضل الحكومة البريطانية عليه وعلى رعيته وما نالته الامارة من الأمن والحماية أثناء الحرب وتمتعها دون سواها بالأرباح الطائلة . ويبدو أن مبارك قد أحس بالضغط الانجليزى الواقع على امارته نتيجة طبيعية للحرب ومن ثم دارجذل عنيف بينه وبين اللورد هاردنج أكد فيه مبارك أنه وقف مع الانجليز ضد العثمانيين فى امارته ولكنه اشار الى ما يقوم به المعتمدون البريطانيون من استفزازات ومحاولتهم التسلط على الامارة وقد طمأنه هاردنج بأنه ليس لحكومة الهند أية أطماع فى امارته وهى لم تأت الى الكويت الا لصد العثمانيين عنها على أنه اذا بدى من أحد معتمديها شيئا فما على الحاكم الا أن يرفع ذلك اليها .. والواقع أن زيارة اللورد هاردنج الى الكويت على الرغم من أنها لم تسفر عن شىء ذى بال الا أنها توضح لنا شدة اهتمام حكومة الهند بأمراء الخليج العربى فى ظروف الحرب .

والجدير بالذكر أنه حدث خلاف شديد فى رأى فيما يختص بالسياسة التى تلتزمها بريطانيا بالنسبة لعلاقتها بأمراء العرب بين المكتب العربى فى القاهرة وبين حكومة الهند التى كانت مسئولة عن العلاقات الانجليزية العربية فى الجزيرة

العربية والخليج العربى ، ويرجع جانب كبير من هذه الخلافات الى المنافسة التقليدية بين الحكومتين الى جانب اختلاف الشخصيات فضلا عن اختلاف اتجاه السياسة نفسها ، فالمكتب العربى كان يهدف الى توثيق العلاقات الانجليزية العربية فى نطاق المنافسات بين القوى التى سيقدر لها أن تظهر فى أعقاب الحرب ولذلك اتجهت سياسات القائمين به نحو انشاء دولة عربية أو اتحاد كونفيدرالى بين الدول الخاضعة للحماية البريطانية يكون شأنه فى المقام الأول محاصرة الاطماع الفرنسية فى الليفانت وفى الدرجة الثانية المحافظة على خطوط المواصلات الأمبراطورية الى المحيط الهندى ، أما الحكومة الهندية وهى التى اعتادت أن تنظر الى العلاقات العربية فى نطاق أمن الهند فقط فقد كانت تفكر فى احكام سيطرتها على العراق وايجاد مجموعة من الشيوخ الخاضعين للحماية البريطانية تكون علاقتهم بحكومة الهند على غرار العلاقة التى تربط الحكومة الهندية بأمراء الهنود ، ولذلك كانت حكومة الهند تعارض بشدة المساعى التى كان يبذلها المكتب العربى فى القاهرة وتشجيعه شريف مكة على الثورة ^(١) ، وبعبارة أوضح نستطيع أن نقول أنه بينما كان المكتب العربى ينظر الى الخليج العربى والعراق باعتبارها حد أقصى لأمبراطورية بريطانية جديدة تحكم من القاهرة كانت حكومة الهند تنظر الى الخليج والعراق بمثابة حد غربى أقصى للأمبراطورية البريطانية التقليدية التى تحكم من نيودلهى .

وفى مارس ١٩١٥ عندما اشتدت وطأة القتال فى فرنسا وتلقى جيش الحلفاء ضربات شديدة من الألمان اضطر بسببها الى التقهقر رأت الحكومة البريطانية أن تحدد موقفها من القضية العربية وأن تضع سياسة معينة ازاء زعماء العرب فقررت عقد مؤتمر فى القاهرة يضم جميع الاخصائيين فى المسائل العربية — سواء القائمين بأمر المكتب العربى فى القاهرة أو موظفى الخليج التابعين لحكومة الهند — وفى ٢٣ مارس سنة ١٩١٥ وصل السير برسى كوكس الى القاهرة ليمثل رأى موظفى الخليج . وقد عقد الاجتماع برئاسة السير ريجنالد وينجت Wingate المندوب السامى فى مصر وبحضور كل من الجنرال كليتون والكوماندو هوجارث والماجور كورنوالوس وهم ممثلو المكتب العربى بالقاهرة ، والكولونيل سير بل ولسن ممثل الحكومة البريطانية فى الحجاز وكان السير برسى كوكس هو الممثل

الوحيد لموظفي الخليج وحكومة الهند ولكن خبرته الواسعة ومعرفته بحقيقة الأوضاع في الجزيرة العربية والمامة الدقيق بتفاصيلها ساعدته في اقناع المجتمعين باستحالة تكوين اتحاد عربي تحت زعامة الشريف حسين وكان السير برسي كوكس من ناحيته يرى امكان التفاهم مع الأمير عبد العزيز تقديرا للمركز الذي صار اليه في أواسط الجزيرة العربية وعلى سواحل الخليج العربي^(١)، والحقيقة أن ابن سعود لم يصادف مشكلات تذكر حينما مال الى التعاون مع الانجليز فان ارتباط دولته بالحركة الوهابية جعلها منذ القدم خصما تقليديا للدولة العثمانية وهي ترفض زعامتها الروحية وفضلا عن ذلك فان ابن سعود كان مشتبكا في صراعات مستمرة ضد آل الرشيد حلفاء العثمانيين في نجد^(٢)، ولم يكن الأمير عبد العزيز بحاجة الى من يغريه بالتعاون مع الحلفاء وبعض الترك لأنه كان ناقما عليهم لما عاناه أسلافه من جورهم والتنكيل بهم وكان هو نفسه قد عانى منهم ومن مؤامراتهم . أما عن الدولة العثمانية فانها لم تضع الفرصة من جانبها فطلبت عند نشوب الحرب مساعدة كلا من عبد العزيز آل سعود والأمير ابن الرشيد^(٣) كما طلبت أن يمدّها ابن سعود بمجاهدين يشتركون في حرب قناة السويس وأن يساعدها أيضا في صد هجمات الانجليز على العراق . وكانت بوادر عناية الانجليز بعبد العزيز قد بدأت قبل أشهر من قيام الحرب بوصول مبعوث بريطانيا يدعى الكاتب شكسبير Shakespeare وكان شكسبير موفدا الى نجد من قبل السير برسي كوكس المقيم البريطاني في الخليج العربي بقصد التعرف على شخصية الامام عن كثب ومشاهدة ملكه العريض الذي أمتد حتى شمل معظم أواسط الجزيرة العربية . وقد بعث شكسبير الى حكومته بتقرير مفصل عن مشاهداته في نجد وقد أكد في هذا التقرير نجاح عبد العزيز في السيطرة على القبائل وحجبها عن عوائدها المتوارثة واشاعة الأمن في البلاد بعد أن كانت صحراء نجد موطنا للقتال والنهب^(٤) .

(١) فون ميكوش - عبد العزيز ص ١٢٢/١٢٣

(٢) صلاح العقاد - التيارات السياسية في الخليج العربي ص ٢٣٧

(٣) Graves, op. cit. P. 105.

(٤) صلاح الدين المختار - تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها ج ٢ ص ١٦٢

وعند نشوب الحرب مباشرة وجد عبد العزيز أن الفرصة قد سنحت له لتعزيز مركزه وأن يبرز شخصيته في الجزيرة العربية والخليج فبعث عدة رسائل الى كل من الشريف حسين وابنه الرشيد وامام اليمن ومبارك بن الصباح يطلب منهم الاتفاق على رأى موحد أزاء الحرب الدائرة وأن يعقدوا اتفاقا للمذاكرة فيما قد يؤدى الى اتفاق عله ينقذ العرب من أهوالها أو تقرير التحالف مع الدولة التى تتعهد بصيانة وتعزيز المصالح العربية ومصالحهم كأمرأ^(١) ولكن لم يصل الجميع الى اتفاق فيما بينهم فقد اقترح مبارك بن الصباح أن يقتصر الأمر على الاجتماع الذى يعقد فى امارته والذى سيحضره اللورد هاردنج أما امام اليمن فلم يرد على رسالة عبد العزيز اليه فى حين اكتفى الشريف حسين بايفاد ابنه الأمير عبد الله الى حدود نجد للتباحث فى الأمر مع رسول عبد العزيز ولكن الاثنين اختلفا دون ان يصلا الى قرار ما أما عن بن الرشيد فقد أصر على موقفه المؤيد للدولة العثمانية وصارح عبد العزيز بأنه من رجال الدولة يحارب اذا حاربت ويصالح اذا صالحت .

والواقع أن الدولة العثمانية من ناحيتها لم تفقد الأمل فى امكانها استمالة الأمير عبد العزيز الى جانبها^(٢) على الرغم من اعتمادها على آل الرشيد اذ أرسلت وفدا عثمانيا يحمل الى الأمير عبد العزيز عشرة آلاف ليرة ذهباً وكان من بين أعضاء هذا الوفد السيد محمود شكرى الألوسى الذى طلب من عبد العزيز أن يتخذ جانب الدولة العثمانية ولكن عبد العزيز أفهمه أنه لا يمكنه مقاومة الانجليز فى الوقت الذى تقدمت فيه قواتهم صوب البصرة . وحاولت الدولة العثمانية استمالاته اليها بوفد آخر برئاسة طالب النقيب ولكن الوفد لم يلبث أن فوجيء بعد وصوله الى الرياض باحتلال الانجليز للبصرة وتوسط الأمير له لدى الانجليز حتى أعادوه الى بلاده .

(١) زهرة فريث - الكويت كانت منزلى ص ٣١

(٢) كانت الدولة العثمانية عد اعترفت بالأمير عبد العزيز واليا على نجد ومتصرفية الاحساء وقد منحته لقب « باشا » راجع جريدة المقطم عدد ٧٦٨٢ فى ١٩١٤/٧/١ وكذلك : Philby, Arabia P. 393.

وعلى الرغم من أن عبد العزيز اتخذ جانب الانجليز كما يتضح ذلك من مواقفه المتعددة^(١) وخاصة من معاهدة القيف التي عقدها مع بريطانيا والتي سوف نشير إليها فيما بعد إلا أن موقفه في الحرب كان أقرب ما يكون إلى الحياد إذ رفض أن يشترك مع الانجليز في محاربة العثمانيين في العراق وفي نفس الوقت رفض أن يحارب الشريف حسين كما أراد الترك ، ويبدو أن عبد العزيز قد وجد أن من الأفضل ألا يوزع قواته قبل أن يقضى على منافسة آل الرشيد إذ ظل يعتبر الخطر على أسرته لا يزال يكمن في حائل — والواقع أن الانجليز كانوا أسبق من غيرهم تعرفا على بواطن الأمور وعلى المشكلات التي كان يتعرض لها الأمير عبد العزيز فضلا عن أنهم كانوا يرون أن مصلحتهم قد تتفق في بعض الأحيان مع مصلحته وعلى ذلك أوفد السير برسي كوكس ، الذي أصبح يشغل في ذلك الوقت منصب الضابط السياسي لقوات حملة العراق الكولونيل شكسبير الوكيل البريطاني في الكويت بقصد القيام برحلة داخل الجزيرة العربية^(٢) بهدف الاتصال بالأمير عبد العزيز وذلك للحصول على ضمانات ودية لصالح الحلفاء وفي نفس الوقت لكي يمثل مصالح بريطانيا في الرياض^(٣) . وقد رأى الانجليز أن عبد العزيز قد يكون ذا فائدة كبيرة بالنسبة اليهم في حالة احتلالهم للبصرة إذ باستطاعته أن يجعل قبائل شمر ورئيسها ابن الرشيد والمنتفق ورئيسها عجمي السعدون مضطرة للبقاء على الحياد بدلا من تهديدها الجناح الأيسر للجيش البريطانية عند تقدمها من الفاو إلى الشمال ، وكان شكسبير سفيرا مثاليا ذا ثقافة عسكرية وإدراك وبداهة سياسية في تعامله مع العرب ، كما كان مبعوثا إليها لابن سعود وربما كان خطأ الوحيد في نظر فيليبس^(٤) أنه لم (يتنازل) في أن يرتدى الملابس العربية أثناء وجوده بين طهراني البدو في الجزيرة العربية .

(١) راجع ذلك في الكتاب الأسود — لم يذكر اسم المؤلف ص ٨/٧

(٢) cf. Carruthers, Captain shakespeare Last Journey, Geographical Journal vol (٢) LIX-May-June 1922 pp. 521-525.

(٣) Armstrong, Lord of Arabia, P. 105

(٤) Philby, Arabia PP. 234-235.

ولم يكن قصد الانجليز اكتساب مساعدة ابن سعود فقط بل في نفس الوقت الهاؤه عن التفكير في متابعة التوسع في الخليج من ناحية وازعاف قوة الترك من ناحية أخرى^(١) وقد عرض شكسبير على ابن سعود ان يعاون الجيش الانجليزى فى الهجوم على البصرة^(٢) لكن ابن سعود وقد أدرك خطورة هذه المغامرة رفض الاجابة على طلب شكسبير وأوضح له كما أوضح للسيربرى كوكس أنه من طرف الانجليز وأنه يود من صميم قلبه تحرير البصرة من الحكم التركى لكنه يود أن تعقد بينه وبين الانجليز معاهدة صريحة محدودة الشروط والأهداف كى يستطيع القيام بعمل حاسم وقد بدأت المفاوضات بينه وبين شكسبير عدة أسابيع دون أن تؤدي الى نتيجة الى أن وضع الترك أنفسهم حدا للموقف بتأليب ابن الرشيد للهجوم على ابن سعود .

وقد عبر شكسبير الذى استطاع خلال اقامته القصيرة أن يتفهم مشاكل ابن سعود فى رسالة له الى برسى كوكس مؤرخة فى ١٦ يناير ١٩١٥ عن القلق المتزايد الذى أخذ ينتاب الأمير ولكنه فى نفس الوقت أكد شعوره الموالى للانجليز وعواطفه الودية تجاه الحلفاء وأنه يطالب بعقد معاهدة بينه وبينهم لأن موقفه غير المحدد قد يسبب له حرجا بالغا اذ قد يضطر فى هذه الحالة الى اتخاذ موقف قد يكون فى صالح تركيا^(٣) .

ولم يكذب ينقض وقت طويل على وصول شكسبير الى الرياض حتى كانت الحرب المتوقعة بين حایل والرياض قد بدأها ابن الرشيد بالفعل بوحي من أصدقائه الأتراك ، وبالفعل وصلت القوات التابعة لآل الرشيد الى الحدود السعودية فى أواخر يناير سنة ١٩١٥ بعد أن تلقى ابن الرشيد مساعدة الترك وكتب ابن سعود الى ابن الرشيد يذكره بما بينهما من عهد ومصالحة فأجابه « انى من رجال الدولة وليس لى صلح معك الا اذا رضيت الدولة بذلك » وأعد عبد العزيز

(١) بيرسى - جزيرة العرب ص ٥١

(٢) كان شكسبير مزودا بتعليمات من برسى كوكس بأن يستغل طموح عبد العزيز فيجعله يعلن الحرب على تركيا على أن تتعهد بريطانيا بمساعدته اذا ما قام بهجوم على الشام أو العراق لتحرير الحرب من سيطرة الترك .

cf. Canning, Franco British Rivalry

(٣) شركة الزيت العربية الأمريكية - عمان والساحل الجنوبى للخليج

الفارسى ص ٩٢/٩١ أنظر أيضا : Graves, op. cit. P. 189.

ابن سعود الترتيبات اللازمة واتخذ الخطط لمقاومة هجمات ابن الرشيد وقد رافق شكسبير مضيفه في هذه الحملة ويبدو أن اصرار شكسبير على الاشتراك في الحرب كان بقصد الوقوف بالذات على المقدرة الحربية التي تتمتع بها القوات السعودية وبالفعل اشترك شكسبير في المعركة التي نشبت بين قوات الاميرين في موقع قريب من زلفى ولدينا تصريح أدلى به الأمير عبد العزيز وفيه ما يؤكد اشتراك شكسبير في الحرب بأمر من حكومته وقد اقتطف ويلسن جزءا من هذا التصريح في كتابه عن الولاءات Loyalties ذكر فيه ابن سعود : « لقد حاربنا ضد ابن الرشيد في أرطاوى وتلت ذلك معركة كبيرة يا للخسارة .. ان صديقنا المخلص والشخص النادر الذي ينمى لنا الخير قد أصيب من بعيد ومات ... وكنا قد ألحنا عليه ليركنا قبل القتال ولكنه أصر على أن يخوضه قائلا ان أوامرى أن اكون معكم وفي ذهابى مخالفة لشرفى وأوامرى ويجب أن أبقى بالطبع ... أرجو ابلاغ أسفى لحكومة جلالة الملك » (١) .

وقد عرفت المعركة التي وقعت بين عبد العزيز وآل الرشيد بمعركة أجراب وقد بدأت بتفوق ظاهر لقوات ابن سعود وكان النصر حليف المشاة السعوديين في أحد الجناحين بينما كانت الغلبة لفرسان جبل شمر في جناح آخر اما شكسبير فقد أصيب برصاصة أودت بحياته حيث كان باعتباره ضابطا سابقا في المدفعية يشرف على اطلاق القنابل من مدفع للميدان غنمته القوات السعودية وضع قيد الاستعمال في المعركة (٢) . وقد أطلق الفرسان من العجمان صيحة الانهزام فانكشف جناح ابن سعود الأيسر وأغارت عشائر ابن الرشيد عليه فاندحر الجناح والنتيجة فوز البدو من كلا الفريقين وهربهم بالذى غنموه وعاد ابن سعود بقواته الى الرياض كما عاد ابن الرشيد بقواته الى حائل كل منهما يدعى النصر لنفسه وبعد بضعة أشهر من هذه المعركة وقع الأميران صلحا فيما بينهما وان كان ذلك صلحا اسميا اذ أن الصراع لم يتوقف بينهما (٣) .

(١) التحكيم لتسوية النزاع الاقليمي بين مسقط وابو ظبى وبين المملكة العربية السعودية ج ١ الأساس ص ٣٧٣ انظر أيضا : Wilson, Loyalties P. 31
(٢) الجدير بالذكر أن اسم الكابتين شكسبير لا يزال راسخا في أذهان السعوديين عونه في سبيل الهدف الذي كانوا يحاربون من أجله .
انظر زهرة فريث - الكويت كانت منزلى ص ٣١/٣٢
(٣) صلاح الدين المختار - تاريخ المملكة العربية السعودية - في ماضيها وحاضرها ج ٢ ص ١٦٩

وكان موت شكسير في يناير ١٩١٥ كارثة لبلاده كما كان خسارة لابن سعود اذ ظل الأخير متجهما في خيامه لا يكاد يؤثر في التطورات الجارية في الأنحاء الأخرى من شبه الجزيرة العربية والتي جعلته الآن في مركز ثانوى في السياسة العربية ، هذا علاوة على أنها زادت أعداءه وضخمت قوتهم ويبرز من هؤلاء أمير حائل ابن الرشيد الذى انحاز الى الأتراك وكان أهم من غيره اذا ما قورن بالشريف حسين فى الحجاز أو الزعماء الآخرين من حلفاء الانجليز وزاد الأمر سوءاً أن السير برسى كوكس لم يكن مستعداً أن يجازف بحياة أحد من ضباطه فى مهالك الصحراء . ولكن كوكس لم يلبث أن أخذ يقدر مركز الأمير عبد العزيز وبدأت بينهما اتصالات وعلاقات ساهم ممثل ابن سعود فى البصرة المدعو عبد اللطيف بن قنديل فى تعزيزها وفى ديسمبر ١٩١٥ طلب كوكس من حكومته أن تفوضه فى عقد معاهدة مع ابن سعود ، وعلى أثر موافقة الحكومة البريطانية على ذلك بدأ كوكس يعمل على تنظيم مقابلة بينه وبين الأمير حيث أبحر من البصرة الى ميناء العقير وتمت المقابلة بالفعل فى ٢٦ ديسمبر ١٩١٥ وكان اجتماع العقير أول مرة يلاقى فيها ابن سعود السير برسى كوكس وكانا قبل ذلك قد دخلا فى مفاوضات ومراسلات كثيرة^(١) وفيما يبدو أن كلا منهما قد أعجب بشخصية الآخر ، وبعد أحاديث ودية وتأكيدات من عبد العزيز بحرصه الشديد على حماية المصالح البريطانية وأن الولاة الذين يعينون من قبله فى الهفوف والقطيف لديهم التعليمات بحماية هذه المصالح^(٢) وقع الاثنان على معاهدة تنظيم العلاقات فيما بينهما فى بلدة دارين بالقرب من القطيف^(٣) وقد نصت هذه المعاهدة على اعتراف بريطانيا باستقلال ابن سعود وضمان حرية بلاده ضد أى اعتداء خارجى قد يقع عليها شريطة أن تكون حدودها حسب ما تتمخض عنه الحرب وذلك فى مقابل تعهد ابن سعود ألا يهاجم المحميات البريطانية فى الخليج وتضمنت

(١) راجع كتابنا الخليج العربى الفصل الثامن ص ٢٩٧ . نجد وعلاقتها ببريطانيا والدولة العثمانية على عهد الأمير عبد العزيز آل سعود ١٩٠٢/١٩١٤ ، انظر أيضا : Graves, op. cit. P. 198.

(٢) cf. The Book of Admiralty general vol I P. 303.

(٣) يشير بعض الكتاب الى هذه المعاهدة أحيانا باسم معاهدة القطيف وقد وقع السير برسى كوكس هذه المعاهدة فى ٢٦ ديسمبر ١٩١٥ وصدقت عليها حكومة الهند فى ١٨ يوليو سنة ١٩١٦ Cf. Foreign office-Persian gulf No 67 P. 96

المعاهدة كذلك نصا يقضى بعدم نقل ملكية الأراضي الى أية دولة أجنبية وعلى منع اقامة علاقات سياسية مع أية دولة أجنبية فيما عدا بريطانيا . ولم يد عبد العزيز أية معارضة على نص المادة السادسة من المعاهدة التى تطرقت الى المشيخات المحمية والتى تعهد فيها كما تعهد آباؤه من قبل أن يتحاشى الاعتداء على الكويت والبحرين ومشايخ قطر وسواحل عمان المشمولة بحماية الحكومة البريطانية ولها صلات مع الحكومة المذكورة وأن لا يتدخل فى شئونها على أن تحدد حدود هذه الأقطار فيما بعد . وفيما يقال أن السيربرى كوكس انتهز فرصة اجتماعية بالأمير عبد العزيز ليعرض عليه مسألة الخلافة ولكن عبد العزيز كان من بعد النظر بحيث خشى أن تجره هذه المسألة الى عدااء من قبل الأمراء العرب فأشار بعرضها على الشريف حسين فان له من النسب ما يؤهله للوصول الى ذلك المنصب ^(١) .

وقد يكون من المناسب أن نحلل هنا أهمية تلك المعاهدة بالنسبة لكل من الأمير عبد العزيز والحكومة البريطانية فبالنسبة لبريطانيا نستطيع أن نجمل أهمية تلك المعاهدة على النحو التالى :

أولا : ان عقد معاهدة مع الأمير عبد العزيز يمكن أن يؤدى الى سلامة المواصلات البريطانية الى العراق كما يمكن لعبد العزيز بارتباطه مع بريطانيا أن يقف ضد الاتجاه الموالى للترك من خلفاء الشيخ مبارك على الرغم من تعهده فى هذه المعاهدة بعدم الاعتداء على امارة الكويت ولا على غيرها من الامارات المرتبطة ببريطانيا ^(٢) .

ثانيا : ان اجتذاب الحكومة البريطانية لابن سعود الى جانبها يجعلها تضمن عدم عدااء لشريف مكة الحسين بن على الذى كان قد أصبح منوطا به القيام بدورها لصالح بريطانيا ^(٣) خاصة وأن عبد العزيز لم يكن صديقا للشريف حسين بعد أن قامت بينهما الكثير من الصراعات ^(٤) .

(١) جمال الفزى — ميثاق الوحدة لجزيرة العرب الفتاة ص ١٠١/١٠٢
(٢) انظر أيضا صلاح المختار تاريخ المملكة العربية السعودية ج ٢ ص ١٧١
Graves, op. cit. P. 197.

(٣) Marlowe, op. cit. P. 48.

(٤) جمال زكريا قاسم : الخليج العربى ص ٣٠٩

ثالثا : رغبة حكومة الهند في ايجاد علاقات من الصداقة مع الأمير عبد العزيز تحقيقا لمصالح ملحة من أهمها التقاء حدود الأمير مع مقاطعات قبيلة عيزر القاطنة على حدود العراق وكان يحكم هذه القبيلة الشيخ فهد صديق ابن سعود ولاشك أن هذه الصداقة يمكن أن تستغلها حكومة الهند في التأثير على الشيخ ليقف الى جانبها أو يبقى على حياده على الأقل مما يؤدي الى حماية خطوط مواصلاتها الى العراق فضلا عن أن مساعدة ابن سعود لبريطانيا ستكون بمثابة قوة نفوذ لها في هذه المنطقة .

رابعا : وكان من أهم الدوافع لعقد هذه المعاهدة المخاوف الشديدة التي أبدتها حكاه الساحل العماني نتيجة لعودة ظهور الخطر السعودي عقب استيلاء الأمير عبد العزيز على الاحساء في عام ١٩١٣ ، وكان من الطبيعي أن تعمل بريطانيا على ازالة هذه المخاوف وتبادر الى تأمين مركز الشيوخ الخاضعين لحمايتها في الساحل الجنوبي للخليج . وحسب المصادر السعودية كان شيخ أبو ظبي الهناوي حمدان ابن زايد هو وحده تقريبا الذي أبدى تلك المخاوف فبدأ على الفور في تدعيم قوته بالحصول على كميات ضخمة من الذخيرة والسلاح ولكنه سرعان ما تحول الى صداقة السعوديين اذ كتب رسالة الى الأمير عبد العزيز في عام ١٩١٧ يقول فيها « أين بعض أهل المقاصد الذين كانت رغبتهم الوحيدة التفريق بين الأصدقاء أولى الاتحاد خصوصا بيننا وبينكم ... ويعضى في القول بأن الذي يقع منه الضرر لآل سعود فبهيات أن يكن له عندنا ملجأ أبدا ومازلنا حاسبين أنفسنا وإياكم شركاء في السراء والضراء » . كما كتب اليه رسالة أخرى في مارس ١٩٢٠ أكد فيها الوحدة القائمة بينهما وذهب في ولائه الى حد قوله أنه للأمير بن سعود في هذه الأطراف « عينا باصرة لكم بخالص النصح والاجتهاد لما فيه مصالحكم مثل ما أن الأخ الشيخ عبد الله بن جلوى في ناحية بلدكم الحسا قائما بالاجتهاد في أوامر جنابك فنحن كذلك أن شاء الله في هذا الطرف الشرقي قائمين بالاجتهاد لما فيه مصالح الجميع مثل ماتظنوا وزيادة وشركاء في الخير وضده كعضو بغير مفصل والفرق معدوم مدى الحياة والقلوب شواهد على ذلك» وكانت هاتان الرسالتان اجابة على الرسائل التي بعث بها اليه الأمير

(١) انظر الوثائق السعودية ج ١ ص ٣٠٧/٣٠٨ ونص الرسالتين في الملحق

السعودي ، ومما يستلفت النظر في رسالتى الشيخ أبو ظبى أنهما مليتان بكثير من عبارات الولاء لابن سعود وقد اعتبرتهم الحكومة السعودية بمثابة أدلة دامغة لتبعية شيخ أبو ظبى لحكومة نجد ولكن من المشكوك فيه أن شيخ أبو ظبى كان يقصد بما يقوله تبعيته المطلقة لابن سعود وإنما العبارات المستخدمة في الرسالتين ليست الا أسلوبا شائعا لدى شيخ امارة صغيرة عندما يوجه خطابه الى أمير كبير - مثل الأمير عبد العزيز - الذى كان يمتلك القسم الكبير من أراضي شبه الجزيرة العربية^(١) .

خامسا : ينبغي أن نلاحظ أنه قبل نشوب الحرب كان احتمال عقد معاهدة رسمية مع ابن سعود قد طرح جانبا لأن الحكومة البريطانية كانت تفضل تهدئة العلاقات مع الدولة العثمانية ولكن بدخول الدولة العثمانية الحرب فقد هذا السبب وجاهته ومن هنا سارع برسى كوكس بعقد هذه المعاهدة^(٢)

وأما أهمية عقد المعاهدة مع بريطانيا بالنسبة للأمير عبد العزيز فيمكن أن نبرزها على الوجه الآتى :

أولا : الملاحظ أن الأمير عبد العزيز في الفترة السابقة لعقد المعاهدة كان دائم الحذر يتسقط جمع المعلومات السياسية السرية الخطيرة التى كانت تدور على مسرح السياسة العربية من ذلك أنه علم أن المعتمد البريطانى فى عدن « الجنرال شو » قد اتصل بالاديسى الذى كان قد وضع يده على عسير وشرع يفاوضه فى عقد معاهدة بينه وبين الحكومة البريطانية وأن هذه المعاهدة قد وقعت بالفعل وصودق عليها من قبل اللورد هاردنج نائب الملك فى الهند وعقب إبرام هذه المعاهدة فى ٣٠ ابريل ١٩١٥ أعلن الاديسى الحرب على الأتراك وكان أول أمير عربى ينحاز الى الانجليز وقد عرفت هذه المعاهدة باسم معاهدة جيزان وبعد عقد هذه المعاهدة تغير الموقف فى جزيرة العرب اذ تقدم الانجليز بعد احتلالهم البصرة حتى بلدة قرنة وأصبحوا بذلك سادة على الخليج بلا منازع كذلك كانت حمايتهم البحرية المحتشدة فى البحرين قادرة على ائزال

(١) للعلاقة بين ابن سعود وزعماء الساحل العماني المهادن انظر :

Major Clarence Mann, Abuthabee, Birth of an Sheikdom, Beirut, 1964

cf. British Relations with Wahabees, ind. Off. Political and External files vol. 37 (٢)

قوات تستطيع بها احتلال سواحل الاحساء وتقرض الحصار على ابن سعود فتحرمه من كل امداد يصل اليه من أى طريق وبمعنى آخر أن عبد العزيز وجد نفسه مطوقا بالنفوذ الانجليزى شمالا وجنوبا بالاضافة الى تطويق أصدقاء الانجليز له فى كل من الكويت وعسير والحجاز وبالتالي لم يعد يمتلك حرية الاختيار فى سياسته أزاء بريطانيا فرأى أنه من الأسلم أن يعمل على كسب صداقتها فكان عقده لهذه المعاهدة ^(١) .

ثانيا : كان الأمير عبد العزيز يرغب فى عقد معاهدة مع بريطانيا يضمن بها موقفه من الشريف حسين خاصة بعدما توقعه من ان تؤثر صداقة بريطانيا للشريف حسين فى مركزه فضلا عن توتره أزاء الصراع الذى كان لم يحسم بعد بينه وبين غريمة ابن الرشيد فى حائل ^(٢) وكان ضمان بريطانيا لمركز عبد العزيز ومنحه مساعدات مادية وعينية أكثر مما يتوق اليه فى ذلك الوقت على الرغم من أن هذه المعاهدة كانت محطة بقدره فهى لم تنظر اليه الا على أنه واحد من شيوخ الخليج الخاضعين لحمايتها والمربطين معها بمعاهدات مانعة Exclusive Treatie فالمعروف أن معاهدة القطيف كانت تشمل معظم المواد التى ذكرت فى المعاهدات المانعة التى عقدتها بريطانيا مع شيوخ الخليج مثل عدم التنازل وعدم التأجير أو الرهن لأى قسم من أراضيها الا بموافقة الحكومة البريطانية وكذلك عدم الاتصال بالحكومات الأجنبية وبالإضافة الى ذلك وردت فى المعاهدة بعض المواد التى لم ترد فى المعاهدات المانعة الأخرى نتيجة لظروف الحرب مثل حماية ابن سعود من أى اعتداء يقع عليه من قبل دولة أخرى .

ثالثا : هناك فائدة أخرى بالنسبة لعبد العزيز ساعدت على الحاجة فى عقد هذه المعاهدة من ذلك أنه كان يخشى أن تحتل انجلترا - بالنظر لظروف الحرب - موانئ نجد والاحساء باعتبارها من ممتلكات الدولة العثمانية ولذلك كان يحرص على عقد معاهدة تعترف له فيها بريطانيا بأن هذه البلاد قد أضحت بلاده وأنه مستقل فيها ^(٣) .

(١) صلاح المختار - تاريخ المملكة العربية السعودية ، فى ماضيها وحاضرها

ج ٢ ص ٣٧٩

(٢) Marlowe, op. cit. P. 44

(٣) محمد رشيد رضا - الوهابيون والحجاز ص ٧٤/٧٣

ويمكن أن نخلص من ذلك كله أن الأمير عبد العزيز كان أكثر تقديرا لقوة الانجليز في الخليج وعلاقتهم مع مشايخه وشدة صولتهم في الهند وقوة أساطيلهم ومقدار خطرهما على الاحساء التي ضمها حديثا الى ممتلكاته وامكانهم حرمانه منها^(١) .

وعلى الرغم من أن عبد العزيز لم يكن يقصد بتوقيعه على هذه الاتفاقية أكثر من الانتفاع بظروف الحرب في تقرير مساعدة سنوية له الا ان موافقة مستشاري الامير على توقيع هذه المعاهدة برغم ذلك قد اعتبره الكثيرون جهلا منهم بما كان يجرى في العالم الخارجي وعدم مقدرتهم على الاستفادة من الفرص التي توالى في ذلك الحين في تقرير مركز يتفق والمكانة التي وصل اليها ابن سعود ومدى تأثيره الايجابي في هذا الركن من العالم خلال الحرب . ولذلك ما كاد عبد العزيز يتوسع في ممتلكاته حتى طلب بنفسه تعديل معاهدة القطيف تعديلا يتفق مع المركز الذي وصل اليه في الجزيرة العربية وبالفعل عدلت معاهدة دارين بمعاهدة جديدة أبرمت في جدة عام ١٩٢٧ بعد أن أصبح الأمير سلطانا على كل من نجد والحجاز واعترفت له الحكومة البريطانية في هذه المعاهدة بالاستقلال التام وبخابرة الدول والاتفاق معها حسب ما تلميه عليه مصلحة بلاده بعد ما كان محروما من هذا الحق في معاهدة القطيف^(٢) .

والجدير بالذكر أن معاهدة القطيف لم تشجب الاتفاق الانجليزى التركى الذى سبق أن وقعته بريطانيا مع الدولة العثمانية في يوليو سنة ١٩١٣ اذأصرت بريطانيا على الزام عبد العزيز بهذه الاتفاقية التى لم يصادق عليها باعتباره وريثا للأمبراطورية العثمانية في هذه المنطقة من الخليج . ومما يستلفت النظر في اجتماع العقير أن السير برسى كوكس لم يشر الى المفاوضات والمراسلات التى كانت دائرة في تلك الآونة بين مكماهون والشريف حسين والمهم أن عبد العزيز قد استفاد من توقيع معاهدة القطيف في امداد بريطانيا له بالسلاح الذى كان في حاجة ملحة اليه لمقاتلة العجمان وآل الرشيد فبالاضافة الى المساعدات النقدية

(١) Philiby, Sa'udi Arabia PP. 234-235

(٢) حافظ وهبة - شبه جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٢٥٧

التي قدرت بعشرين ألف جنيتها انجليزيا والمساعدات العينية الأخرى التي قدرت بألف بندقية سهلت له بريطانيا استيراد الذخيرة لحسابه الخاص من البحرين حتى يستطيع أن يفى بحاجات الحملة التي سيرها في ذلك الحين ضد قبائل العجمان الذين حاربهم واضطروهم للجوء الى الكويت^(١) وكان من نتائج توقيع معاهدة القطيف أن توسط السير برسي كوكس بين عبد العزيز وسالم بن الصباح اذ قبل آل السعود أن يوقف استعداداته العسكرية ضد العجمان شريطة أن يطردهم الشيخ سالم من بلاده^(٢) وذلك أن شيخ الكويت كان يود توسيع امارته على حساب مناطق العجمان في الجنوب فساعدتهم على الثورة ضد ابن سعود بتوزيع الأسلحة عليهم وحثهم على الثورة مما جعل مركز الأمير ابن سعود حرجا من كل جانب فابن الرشيد يعد العدة لمداومة نجد والشريف حسين في الحجاز يعمل على اضعافه والشيخ سالم في الكويت يشجع القبائل الثائرة ضده . والجدير بالذكر أن موقف عبد العزيز في الحرب العالمية الأولى قد تعرض لجدل عنيف ولاختلاف وجهة نظر الكتاب الذين عرضوا لهذا الموضوع فهناك من اعتبره التزم جانب الانجليز وهناك من اعتبره قد وقف على الحياد وفي تقديرنا أن عبد العزيز انحاز فعلا للانجليز على الرغم من أنه لم يكن حليفا رسميا لهم اذ أنه من الناحية القانونية لم يخرج من موقف الحياد طيلة سنوات الحرب اذا ما قارناه مثلا بالشريف حسين الذي صار حليفا رسميا للانجليز . ويرى السير ريدير بولارد Bullard أن عبد العزيز انحاز للانجليز منذ أن أكد للمبعوث البريطاني شكسبير أنه ملتزم جانب بريطانيا وقلبه ملىء بالسرور من تلك الفرصة التي استوجبت تأسيس علاقات جديدة صحيحة بينه وبين بريطانيا وهكذا دخل عبد العزيز في قائمة الأمراء الذين ساعدوا انجلترا خلال الحرب وأن الاخلاص الذي ساند به الانجليز طوال الحرب ليعبر عنه السير ريدير بولارد بقوله : « لقد كانت مساعدة عبد العزيز قيمة ولو كان تسلم مقدارا أكبر من السلاح لكان حليفا أكثر نفعا » .

وقد يكون من المناسب ونحن بصدد تحليلنا لمعاهدة القطيف أن نعرض لأهم ما اشتملت عليه المعاهدة .

(١) Dickson, Kuwait and Her Neighbours P. 244

(٢) صلاح المختار - تاريخ المملكة العربية السعودية ج ٢ ص ١٧٦

أولا : اعتراف الحكومة البريطانية بابن سعود وخلفائه كحكام مستقلين اذ نصت المادة الأولى : « الدولة البهية الانكليزية أكيدا تعترف وتقر بأن النجد والحسا والقطيف والجيل ومايلها وحدودها التي سنتذكر بها وستتعين بعد حين وبنادرها على شواطئ خليج فارس هي من ممالك ابن سعود وممالك أجداده السابقين منه فهذه الوسيلة تعترف بابن سعود المشار اليه حاكما مستقلا على الممالك المذكورة ورئيسا مطلقا على عشائره وبعده أولاده وأعقابا بالوراثة » .

ثانيا : تقرير المساعدة البريطانية لابن سعود ضد أى عدوان أجنبى .

ثالثا : اشراف بريطانيا على علاقة ابن سعود الخارجية .

رابعا : تعهد من قبل الأمير ألا يتنازل عن ممتلكاته الى أية دولة أجنبية .

اذ جاء فى نص المادة الثالثة من المعاهدة على ألا يتدخل الأمير فى مكاتبات أو اتفاقات مع أية دولة أخرى كما نصت المادة الرابعة على أن يتبع مشورة بريطانيا بشرط ألا تكون ضارة بمصلحه .

خامسا : وعد من الأمير بأن يترك طرق الحج مفتوحة .

سادسا : عدم الاعتداء على شيوخ الكويت والبحرين — قطر — المشيخات المهادنة : — والجدير بالذكر أن معاهدة القطيف وان غنيت بالحدود الشرقية لممتلكات الأمير عبد العزيز الا أنها لم تلتفت الى الحدود الغربية بدليل أنها لم تحوى فى شروطها أى التزام من قبل الأمير بعدم الاعتداء على الشريف حسين الأمر الذى ترك الفرصة سائحة له لتوجيه نشاطه فى الحدود الغربية لممتلكاته (٢) .

وقد أصبح عبد العزيز بعد توقيع هذه المعاهدة فى مصاف أمراء الخليج المرتبطين بمعاهدات مع بريطانيا . وفى العام التالى ١٩١٦ أخذت العلاقات تتوثق بينه وبين الحكومة البريطانية التى كانت تعول كثيرا على صداقته وفى سبتمبر ١٩١٦ تسلم السير برسى كوكس رسالة من ابن سعود يطلب مقابلة ثانية وفيما يبدو أن عبد العزيز كان أكثر إلحاحا فى هذا الطلب اذ فى نهاية عام ١٩١٥ توفى

(١) انظر نص معاهدة القطيف فى شبه جزيرة العرب فى القرن العشرين للشيوخ حافظ وهبة ص ٣٣٤

(٢) Phiby, Sa'udi Arabia, PP. 272-273 London, 1955

الشيخ مبارك ، وعلى الرغم من أن تلك الوفاة كانت تبشر بحسن العلاقات بينه وبين الكويت خاصة بعد أن شهدت الشهور الأخيرة من حياة مبارك تحاسدا وقلقا من جانب الشيخ الذى أخذ يساوره فى شيخوخته قلق عنيف من طموح رجل دربه بنفسه على شئون السياسة الا أن خليفته الشيخ جابر لم يعمر طويلا ولم يؤد حكمه الى نتائج ملموسة فيما يتعلق بالخطر الذى كان يتعرض له الأمير السعودى من جراء وجود اللاجئين العجمان فى الكويت وما أن خلفه الشيخ سالم بن الصباح وقد عرف بعدائه الشديد لابن سعود حتى اتجه فى سياسته نحو اظهار عدائه السافر للرياض وبالإضافة الى هذا الموقف من جانب الكويت كان الأمير سعود فى وضع لا يحسد عليه بسبب النزاع القائم فعلا أو الذى كان متوقعا حدوثه بين نجد وبين الحجاز وآل الرشيد فى حائل^(١) ولهذا نراه يلح فى طلب مقابلة السير برسى كوكس حتى يطلعه على حقيقة الوضع الذى صار اليه وقد اختيرت العقير مكانا للاجتماع وبالفعل وصل كوكس الى سواحل قطر وتمت المقابلة فيما بينهما فى ميناء العقير فى سنة ١٩١٦ وكان الاجتماع فى ظاهره من أجل البحث فى الوسائل التى تمكن ابن سعود من السير قدما فى حملته الهجومية التى كان ينوى القيام بها ضد ابن الرشيد وقد أوضح عبد العزيز للسير برسى كوكس فشله فى ايقاع الضربة القاضية بغريمه بسبب حروبه المستمرة ضد آل العجمان وأنه لا يستطيع أن يواصل الحرب فى جبهتين فى آن واحد . وقد عنى اجتماع العقير الثانى بمناقشة الطرق والوسائل التى تمكن عبد العزيز من تجهيز حملة قوية ضد ابن الرشيد وعلى الرغم من أن الاجتماع انصب على هذا الموضوع فى معظمه الا أن عبد العزيز حاول استغلال الفرصة لمعرفة موقف الحكومة البريطانية فيما يتعلق بالتدابير التى اتخذتها مع الشريف حسين خصوصا بعد اعلانه لأمراء الجزيرة العربية والخليج أن الانجليز قد اعترفوا به ملكا على العرب . وقد أعطى السير برسى كوكس تأكيدات مشددة لابن سعود أن استقلاله لن يمس بأى وجه من الوجوه .

(١) من المعروف أن عبد العزيز بن سعود لم يستطع التخلص من آل الرشيد الا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى فى ٢ نوفمبر - انظر حافظ وهبة : خمسون عاما من جزيرة العرب ص ٢٨

وبالإضافة الى ذلك تناول اجتماع العقير علاقات ابن سعود بشيخ الكويت ،
والحصار الذى فرضته بريطانيا على موانئ الكويت لمنع تسرب مواد الحرب
والسلع الغذائية من الكويت ووصولها الى الأتراك العثمانيين فى بادية الشام وقد
طلب المجاور هاملتون مبعوث حكومة الهند مرافقا للسير برسى كوكس من
ابن سعود يعاونه فى توثيق الحصار وقد أكد له الأمير أنه على الرغم من وعده
بالمساعدة الفعالة فى هذا الشأن الا أنه لايسعه اتهام حاكم الكويت بأنه هو
الذى يساعد حركات التهريب الى الأتراك كما اتهمه باتفاقه السرى مع الأتراك
وأنه من الخير لبريطانيا أن توقف التهريب من منابعه الرئيسية بالكويت بدلا
من أن تطلب الى ابن سعود تضيق الخناق على المهربين بعد أن ينفذوا الى الصحارى
الشاسعة . وقد دعى السير برسى كوكس الأمير عبد العزيز ليلأخذ مكانه فى
الاجتماع الذى قررت الحكومة البريطانية أن تعقدته فى الكويت بين الأمراء العرب
الذين اتخذوا جانب بريطانيا فى الحرب لخلع الأوسمة عليهم وقد عرف هذا المؤتمر
باسم مؤتمر الكويت الثانى تميزا له عن المؤتمر الأول السابق اشارتنا اليه . ولم
يكن القصد من المؤتمر مجرد اجتماع دورى لحكام الجزيرة العربية والخليج وانما
كانت الحكومة البريطانية تنظر الى مؤتمر الكويت نظرة أكثر عمقا ذلك أنه بعد
أن أعلن الشريف حسين ثورته حرصت الحكومة البريطانية على عقد هذا المؤتمر
الذى اشترك فيه الأمراء العرب كى تتحقق من حسن نواياهم نحوها من ناحية
وحثهم على شد أزر الشريف حسين وتأييد ثورته من ناحية أخرى وقد عقد
هذا المؤتمر بالفعل فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩١٦ .

وقد حضر مؤتمر الكويت الى جانب عبد العزيز وجابر بن الصباح والشيخ
خزعل خان أكثر من مائة من رؤساء العشائر العربية فى جنوب الأحساء وجنوب
العراق وعهد الى السير برسى كوكس برئاسة المؤتمر حيث افتتحه بكلمة أظهر
فيها حسن نوايا بريطانيا تجاه العرب ورغبتها فى استعادتهم لمجدهم الغابر وحرصها
على جمع كلمتهم ليكونوا كتلة متماسكة تستطيع صد أى اعتداء خارجى يقع
على بلادهم ثم وجه خطابه بعد ذلك الى الأمير ابن سعود مستحثا اياه مساعدة
الحلفاء ثم تطرق الى موضوع الخلافة ووجوب انتقالها الى العرب وأجاب
عبد العزيز على خطاب كوكس ببيغضه الصريح للأتراك ولكنه أشار بالنسبة
لموضوع الخلافة — كما سبق أن أعلن لهاردنجن — باسنادها الى الشريف حسين .

ثم أعقبه الشيخ خزعل فأيد الوحدة العربية واستعداد العرب لمعاونة بريطانيا ، أما الشيخ جابر حاكم الكويت فقد تردد في موقفه اذ كان يتنازع موقفه المؤيد للأتراك باعتبارهم مسلمين وموقفه المؤيد لما يتخذه العرب من اتجاهات يجمعون عليها . ولم يجد في نهاية الأمر بدا من أن يعلن . . . أننا عرب فاذا ما اجتمعت كلمة العرب على شيء فاننا له من الطائعين ، ويبدو أنه تعرض للضغط الانجليزي عليه لكي يعلن موقفه هذا .

وقد تناقلت الروايات بعض ما دار في المجلس من أحاديث فابن سعود قال أنه عدو للترك وهم له أعداء ، وأنه سيطاردهم ولو وحده لأنه لا يذكر لهم سوى الشر له ولآبائهم من قبل فقد قتلوا منهم ومثلوا ببعضهم أشنع تمثيل وضرب خزعل أيضا على هذا الوتر . أما الشيخ جابر وقد عرف بميوله الدينية المحافظة فقد أبى أن يسائر الأميرين وأعلن موقفه المؤيد للأتراك العثمانيين باعتبارهم مسلمين^(١) وقد بذل السير برسي كوكس جهودا كبيرة في التخفيف من الشعور الموالي للإنجليز والذي لاحظته بالنسبة للشيخ جابر اذ حرص ألا يفض المؤتمر حتى يقسم كل من ابن سعود وجابر وخزعل بتحالفهم مع بريطانيا ضد العثمانيين^(٢) وانتهى المؤتمر بتقليد السير برسي كوكس كلا من الأميرين عبد العزيز والشيخ جابر نجمة وسام الهند وقد أبلغ الشريف حسين نتائج مؤتمر الكويت الثاني فاستحسنه وقوى عزمه به وطلب من الحكومة البريطانية ابلاغ الأمراء شكره وتهانيه كما أبرق الى عبد العزيز بواسطة برسي كوكس يشكره على ما دار في المؤتمر ويحثه على الاتحاد وجمع كلمة العرب ويوصيه بمراعاة حيرانه من أمراء الجزيرة العربية والأحسان اليهم وعلى الأخص أمير الكويت .

وبعد انتهاء المؤتمر وصل كل من عبد العزيز والشيخ خزعل الى البصرة في ٢٦ نوفمبر ١٩١٦ بدعوة من السير برسي كوكس حيث أنعم كوكس على الأمير عبد العزيز بسيف مرصع وقد نزل الأمير ضيفا عليه وعلى القائد العام لقوات جيش العراق وكانت هذه أول مرة يسافر فيها عبد العزيز خارج الجزيرة العربية وقد تأثر لدى رؤيته لذلك العدد الوافر من المعدات الحربية وربما أثر في نفسيته

(١) عبد العزيز الرشيد - تاريخ الكويت ج ٢ ص ١٩٨

(٢) Graves, op. cit. P. 213

أن تكون امرأة واحدة من أعظم مضيعيه وهى جرتدبل^(١) وفى اجتماع البصرة تم الاتفاق على أن يتسلم شهريا خمسة آلاف جنيها مع أربعة رشاشات وثلاثة آلاف بندقية مع كميات ضخمة من الذخيرة تكفى لتجهيز ما يقرب من أربعة آلاف مقاتل لمحاربة ابن الرشيد ومهاجمته فى عاصمته^(٢) كما حرص برسى كوكس أن يعقد اجتماعا بينه وبين الأمير عبد العزيز والشيخ فهد حاكم عنيزه وكان هذا الاجتماع بهدف استغلال الحكومة البريطانية لحليفها عبد العزيز بغية التوسط بينها وبين الشيخ فهد ويبدو بالفعل أن مساعدة عبد العزيز لبريطانيا لدى حاكم عنيزه كانت على درجة كبيرة من الأهمية بحيث قررت حكومة الهند أن تزيد الاعانة السنوية التى كانت تصرفها له الى ٦٠,٠٠٠ جنيها ثم رفعتها بعد ذلك الى ١٠٠,٠٠٠ جنيه ومن المحتمل أن يكون ذلك قد تم عن طريق اتفاقية جديدة .

والأمر الذى لا شك فيه أن اجتماعات العقير والكويت والبصرة أدت الى تحسن موقف الحكومة البريطانية خاصة بعد أن تم الاتفاق مع الشيخ فهد الذى كان يسيطر على الطريق الصحراوى بين دمشق وبغداد بحماية المواصلات بين الهند وبين المناطق التى وصل اليها النفوذ البريطانى فى العراق . وقد استمرت حكومة الهند فى توطيد علاقاتها بالأمرء العرب بإيفادها البعثات المتتالية لدى كل من الشريف حسين والأمير عبد العزيز (١٩١٧) وكان الغرض من ذلك إزالة أسباب الجفوة بين الحليفين الرئيسيين لبريطانيا فى الجزيرة العربية . وبفضل تلك الجهود استطاعت بريطانيا طيلة سنوات الحرب أن تحمى الإمارات العربية فى الخليج وأن توفر لها جانب الحماية من اطماع عبد العزيز بن سعود برا ونشاط المدرعات الألمانية التى حالت بينها وبين الدخول الى مياه الخليج بفضل التعزيزات البريطانية القوية اذ كان من المعروف نشاط الغواصات الألمانية فى منطقة المحيط الهندى مما يدل على احكام بريطانيا سيطرتها على الخليج خلال الحرب رسالة بعث بها اللورد كيرزون وزير الخارجية البريطانية الى السير برسى كوكس فى ٢٢ يناير سنة ١٩١٧ جاء فيها : « . . . لقد قمتم بكل (نبل) بالمهمة التى وكلتها اليكم منذ ثمانية عشر عاما . . . لقد جعلت من نفسك

(١) فيلبى - تاريخ نجد ودعوة الشيخ عبد الوهاب السلفية مترجم ص ٣١٩ - بيروت .

(٢) Philby, Sa'udi Arabia, P. 274

ملكا على الخليج وعندما تنتهى الحرب فسوف نعزز تلك المملكة ونعمل على ألا يقوم أحد بانتزاع هذا التاج منكم»^(١) .

ومما يغنيننا عن التعليق على هذه الفقرة من الرسالة أن هذا كان تصريحاً من وزير الخارجية البريطانية الى الموظف البريطانى المسئول فى الدرجة الأولى عن معالجة الشؤون السياسية والعسكرية فى العراق والخليج العربى .

وفى خلال الحرب العالمية الأولى وصلت العلاقات السعودية الكويتية الى درجة كبيرة من التوتر وبدأت منذ أواخر أيام مبارك على الرغم من الصداقة الشديدة التى كانت تربط بين الحاكمين^(٢) . اذ اتضح من تصرفات مبارك أنه لم يكن مطمئناً الى تضخم قوة الأمير عبد العزيز خاصة بعد استيلائه على القصيم وعنيزة ثم الاحساء وخشى مبارك على أمارته من جراء التوسع السعودى^(٣) . وسرعان ما تكشف لعبد العزيز نوايا مبارك ويقال أن الموقف بدأ يتوتر بين الأميرين فى أعقاب معركة اجراب عندما غنم ابن الرشيد حقيبة أوراق عبد العزيز وكان بداخلها رسالة سبق للشيخ مبارك أن بعث بها الى الأمير عبد العزيز آل سعود يحرضه فيها على كل من ابن الرشيد والحكومة العثمانية ويؤكد فى رسالته أن الدولة العثمانية ذاهبة لا محالة وأن الغلبة فى ميدان الحرب سيكون لخصومها الانجليز ويخبره أيضاً بعزمه الأغارة على شمر . وبطبيعة الحال أثر هذا فى علاقة مبارك بابن سعود اذ أن مبارك لم يغفر لعبد العزيز اهماله المراسلات السرية التى كانت تدور فيما بينهما حتى اتهمه بأنه عمد الى تسليم تلك الرسالة لآل الرشيد ليوقع بينه وبينهم^(٤) ثم كانت الحادثة الثانية التى أدت الى زيادة التوتر بين الأميرين وهى تلقى عبد العزيز

(١) Graves, op. cit. P. 231

(٢) تعود هذه الصداقة الى أيام استضافة آل صباح للأسرة السعودية فى الكويت وكان الشيخ مبارك يلقب عبد العزيز بولده كما كان الأمير عبد العزيز يلقب مبارك بالوالد وكثيراً ما كان كل أمير يفض الطرف عن أخطاء الأمير الآخر استجابة لدواعى المصلحة المشتركة فيما بينهما .

(٣) جمال زكريا قاسم — الخليج العربى — دراسة لتاريخ الإمارات العربية

ص ٢٢٨

(٤) عبد العزيز الرشيد — تاريخ الكويت ج ٢ ص ١٨٢

رسالة من مبارك يطلب منه فيها تأديب قبائل العجمان الذين أغاروا على أمارته ونهبوا مواشى عشائره ولكن عبد العزيز كان بعيد النظر اذ اعتذر عن تنفيذ ما جاء برسالة مبارك لحوفه أن يلجأ اليه العجمان بعد محاربته لهم فينقلب بذلك عليه غير أنه بعد معركة اجراب بدأ عبد العزيز يواجه ثورة العجمان في الاحساء وعندما تحرك لقمع ثورتهم رحل العجمان الى جهات قطر وهنا طلب ابن سعود النجدة من مبارك ولكن الأخير لم يسعفه وانما تعمد الابطاء الى أن أرسل له أخيراً مدداً على رأسه ابنه وولى عهده الشيخ سالم الصباح . وفيما يبدو أن الشيخ مبارك حينما تأخر عن ارسال المدد كان يتوقع أن تنهار قوى ابن السعود خاصة وأن ابن الرشيد انتهز فرص صراع عبد العزيز ضد العجمان لينقض الصلح الذى وقع بين الأمرين بعد معركة اجراب ولكن عبدالعزيز تمكن من السيطرة على الموقف فقمع ثورة العجمان بسرعة فائقة حتى لا يشغل نفسه بالقتال في جهتين في آن واحد . ولم يلبث أن اتضح لعبد العزيز أن مبارك لم يكن ينوى ارسال ابنه اليه رغبة في مساعدته وانما لمراقبة الموقف اذ جاء في التعليمات التى زود بها مبارك ابنه سالم « لقد أرسلتك مراقبا لا مقاتلا ... اذا غلبهم ابن سعود فنحن معهم واذا هم غلبوه فلا تساعدهم عليه » . وفى نوفمبر ١٩١٥ عزم عبد العزيز على مهاجمة العجمان وآل صباح معا خاصة وأن العجمان ارتحلوا الى الكويت حيث وجدوا فيها سوقا لبيع منهوباتهم التى استولوا عليها من أهالى الاحساء ومنحهم حكام الكويت حق اللجوء السياسى فى بلادهم . ولا شك أن الموقف الذى وقفه مبارك من قضية العجمان كان مسارا للاستياء الشديد من قبل الأمير عبد العزيز^(١) . وبينما كان ابن سعود يعد العدة لتسوية حسابه مع مبارك تلقى نبأ وفاته فأثر التراجع وكتب الى الشيخ جابر يعزيه فى وفاة والده وينصحه بعدم السير على سياسته . على أن الحكومة البريطانية أبدت توجسها من وفاة مبارك وتولى جابر لميوله الدينية من ناحية ولضعفه من ناحية أخرى وما يترتب على ذلك من عدم قدرته على السيطرة على الموقف فى بلاده بعد ارتفاع المعارضة الوطنية ضد الانجليز وبالفعل اضطر جابر أن ينحاز الى زعماء قومه ولكن لم يلبث أن

(١) صلاح المختار - تاريخ المملكة العربية السعودية ج ٢ ص ١٦٨ حافظ وهبة .

واجه ضغطا من قبل حكومة الهند ويتضح ذلك في الرسالة التي بعث بها اليه نائب الملك في الهند اللورد شلسفد الذي عاصر ولايته^(١) مهنتا له وصوله الى حكم الامارة ومؤكدا أن الحكومة البريطانية تلتزم له بما سبق أن التزمت به لوالده بشرط أن يلتزم بنفس الالتزامات لدى الحكومة البريطانية واقترح السير برسي كوكس لدى حكومة الهند أن تمنحه وسام نجمة الهند من درجة فارس ووافقت الحكومة مبدئيا على ذلك وبالفعل أهده النيشان العالى S. A. G. I. وان كان تقليده لذلك الوسام لم يتم الا حينما عقد مؤتمر الكويت الثانى على نحو ما أشرنا . ومع ذلك فلا نستطيع أن نحكم على طبيعة العلاقات التي قامت بين جابر والحكومة البريطانية ولا بينه وبين ابن سعود لأن جابر لم يعمر في الحكم الا شهورا قليلة ولكن العلاقات لم تلبث أن ظهرت واضحة في عهد الشيخ سالم بن الصباح^(٢) . وساعد عبد العزيز بن سعود على محاولة تحقيق أطماعه في الكويت ، الموقف الذى وقفه سالم واتجاهه الموالى للأتراك مما أعطى الفرصة للأمير عبد العزيز أن يواصل أطماعه وهو مطمئن الى تجاوز الحكومة البريطانية عن أعماله نظرا للموقف المشار اليه ومع ذلك فان عبد العزيز لم يستطع أن ينال التأييد البريطانى المطلق فالمعروف أن السياسة البريطانية كانت تحول دون التوسع السعودى في امارات الخليج العربى .

ومما يستلفت النظر أن العلاقات المتدهورة بين نجد والكويت كانت تعنى بصفة خاصة الحكومة البريطانية والمندوب السامى البريطانى في بغداد لأن توتر العلاقات من شأنه أن يخلق اضطرابا قد يسهل عمليات التهريب التي كانت تقوم بها العشائر البدوية من سلاح وذخيرة ومواد غذائية عبر الطرق الصحراوية المتجهة الى معسكرات الأتراك العثمانيين في بادية الشام ولما كانت قبائل العجمان هي التي تقوم بأعمال التهريب هذه فقد تلاقت وجهة نظر عبد العزيز بن سعود مع وجهة نظر الحاكم المدنى في بغداد لاتخاذ اجراءات ضد هذه القبائل التي كانت تحتمى بأمانة الكويت وهكذا استطاع عبد العزيز أن يجد مساندة من بريطانيا في التخلص من ثورات هذه القبائل عليه واحتمائهم المتوصل بامارة

(١) حسين خرعل - تاريخ الكويت السياسى ج ٣ ص ١٧ - ١٨ شبه جزيرة

العرب ص ٢٥٨

(٢) حسين خرعل - تاريخ الكويت السياسى ج ٣ ص ١٢/١٣

الكويت . وكان هناك موضوعات أخرى عنى يبحثها كل من عبد العزيز بن سعود والمندوب السامي البريطاني في بغداد بهدف تهدئة العلاقات بين نجد والكويت أهمها تحديد قيمة الضرائب الجمركية التي تفرض في الكويت والبحرين على البضائع المصدرة الى نجد الى جانب امكانية وضع عملة معدنية صغيرة لتوفى باحتياجات المعاملات التجارية بين البلدين .

ومن ناحية أخرى كان موقف سالم المؤيد للأتراك موضع قلق الانجليز المتزايد ، خاصة وقد عرف عنه تزمته الشديد ، وتغلب الطباع البدوية عليه وقد زعم بعض الكتاب أن سالما كان يعتقد أن الحكومة البريطانية تمالئ ابن سعود عليه مما جعله ينحاز الى الأتراك في الحرب العالمية الأولى . وقابلت الحكومة البريطانية موقف سالم بتشديد الرقابة البحرية حتى أصبحت الكويت في حالة حصار تقريبا . وكان الهدف من ذلك منع وصول التجارة المهربة وأسلحة الحرب إلى الأتراك العثمانيين في الشام ، كما تم في عهد سالم انشاء الخط البرقي بين الكويت والعراق . وكان الحصار الانجليزي لأمانة الكويت سببا في سخط الأهالي الذين يشتغل معظمهم بالتجارة ، مما اضطر بريطانيا في نهاية الأمر الى وعد التجار بالتعويض عما لحقهم من خسائر فادحة بسبب عمليات الحصار . وبدأت عمليات الحصار في بداية عام ١٩١٧ بالحصار البحري لموانئ الكويت وبحصار بعض المراكز التجارية الواقعة على الطريق بين الكويت والعراق والمعروف أن تجارة التهريب كانت تجد أرباحا طائلة ، ذلك أن ندرة المؤن واختفائها في سوريا وارتفاع أسعار المواد الغذائية أوجد سوقا رائجة للمهربين ، اذ كانوا ينقلون البضائع المهربة عبر الصحراء الى دمشق من العراق وموانئ الخليج العربي ، وكانت هذه المؤن بدورها تأتي من الهند . وكان الشيخ سالم يغض البصر عن هذه العمليات التي تجري داخل بلاده ، وكان بطبيعة الحال يستفيد من فرض الضرائب . وعلى الرغم من أن ابن سعود كان مسئولا بدوره عن عمليات التهريب هذه ، اذ كان تجار القصيم وغيرهم ينقلون بضائعهم الى حائل ومن هناك تنقل الى الأتراك ، الا أنه ألقى بالمسئولية الأولى على سالم في ضرورة ايقاف عمليات التهريب من منابعها ، وكان ذلك في نقاش بينه وبين السير برسي كوكس أثناء اجتماعهما الثاني في العقير عام ١٩١٦^(١) .

والواقع أن تجار الكويت نشطوا في تسيير تجارتهم الى نجد والحجاز والشام والعراق والآستانة ، وقد سارت التجارة الى تلك الجهات في الوقت الذي كان فيه الحصار البحري مفروضا على سوريا ، مما اضطر حكومة الهند أن تنزل قواتها في الكويت بهدف احكام عمليات الحصار ، وان كان هذا الاجراء مؤقتا ، اذ لم يلبث أن انسحبت القوات الانجليزية من الكويت عقب توقيع الهدنة مع تركيا في نفس العام .

وقد يكون من المناسب أن نعرض بشيء من التفصيل لظروف هذه الأزمة التي وقعت بين بريطانيا والكويت والتي حاول عبد العزيز أن يستفيد من وقوعها في تحقيق مشروعاته الخاصة ، ذلك أنه بعد انسحاب الجيوش العثمانية من البصرة أخذت القوات البريطانية تطاردها في القرنة والشعيبة ثم العمارة والناصرية ولم تكتف الحكومة البريطانية بذلك وانما ضربت الحصر البحري على الدولة العثمانية ، ولما كانت عشائر البادية تعتمد على ما تكتاله من البصرة والكويت ، لذلك رأت الحكومة البريطانية أن تراقب الطرق البرية أيضا حتى لا يصل منها شيء الى الدولة العثمانية ولا الى العشائر الموالية لها ، فأسندت أمر مراقبة اكتيال عشائر البادية وتزويدها بالأطعمة الى عهدة أحد ضباطها العسكريين ليوقف بنفسه على كيفية خروج القوافل منها ، وبالفعل طلب الوكيل السياسي في الكويت من الشيخ سالم بعدم السماح بسفر القوافل الموجودة في ذلك الوقت في الكويت والتي كانت تابعة لأهالي زلفى وبريدة حتى وصول الكابتن سميث

. Cole Smith

وقد أخذت الحكومة البريطانية تعمل في تشديد قبضتها على الكويت خاصة وأن الأمانة كانت من أهم الأماكن التي تقصدها قوافل التجارة بغرض الاكتيال . وقد لاحظ الماجور هاملتون Hamilton الوكيل السياسي في الكويت أن جميع الأموال التي تخرج من الكويت بواسطة القوافل يتجه بها أصحابها الى ناحية ابن الرشيد في حائل . وأصدر السير برسي كوكس تعليماته الى الوكيل السياسي بمراقبة القبائل التي تفد الى الكويت بغرض الاكتيال والتأثير لدى شيخ الكويت بهدف منع هذه القبائل من الدخول الى الكويت^(١) وفي مارس ١٩١٨ وصل

(١) حسين خرزل — تاريخ الكويت السياسي ج ٣ ص ٢٠

جون فيلبى من الحجاز الى أطراف العراق وراح يجوب البادية وفى قافلته عدد كثير من الجمال وكان يحمل أكياسا من الذهب والفضة واستخدمها فى اغراء فريق من شيوخ العشائر للعمل لحساب القوات الانجليزية ، ومن بين الزعماء الذى نجح فيلبى استمالتهم ضارى بن طوالة شيخ عشائر شمر العراق ^(١) . والسبب فى هذه الأعمال التى قامت بها الحكومة البريطانية فى ذلك الوقت يرجع الى تقديرها أن وصول الامدادات الى القوات العثمانية من الكويت والبصرة ونجد مما يؤخر فى انتصار الحلفاء واتبعت حكومة الهند المراقبة البرية ، التى لم تستطيع السيطرة عليها ، بفرض الحصار البحرى على الكويت بعد استمرار وصول المؤن الى الأتراك فى دمشق عن طريق الصحراء ، وفى يوليه ١٩١٨ وجهت حكومة الهند تحذيرا الى الشيخ سالم بأن الضمانات التى قدمت له ولأسلافه من قبل والصداقة والحماية والمساعدة التى تقوم بها بالنسبة لأمانة الكويت لا يمكن أن تستمر ، مالم يكن قائما بالمسئولية التامة فى منع الأعمال غير المشروعة التى يقوم بها رعاياه أو غيرهم فى داخل ممتلكاته ، والتى قد يكون من شأنها أن تتعارض مع مصلحة الحكومة البريطانية ^(٢) .

ولا شك أن التحذير البريطانى الذى وجه الى الشيخ سالم كان نتيجة للنشاط المعادى الذى أحست الحكومة البريطانية به ^(٣) . والجدير بالذكر أن الموقف الذى اتخذه سالم من حيث تعااضيه عن حركات تهريب الأسلحة والمؤن الى العثمانيين ، كان تعاطفا منه قبل الوطنيين من ناحية ، فضلا عن أنه كان لميوله الدينية يكره الانجليز ، ويفضل الانحياز الى الدولة العثمانية باعتبارها مركز الخلافة الاسلامية ^(٤) ، وهكذا تميز عهد سالم بذلك الصدام الذى وقع بينه وبين ابن سعود من ناحية ، والحكومة البريطانية من ناحية أخرى ، نتيجة انحيازه الى الأطراف المعادية لها ، اذ أن الشيخ سالم انحاز الى جانب الدولة العثمانية ضد الانجليز ، كما انحاز الى آل الرشيد ضد عبد العزيز بن سعود ^(٥) . وقد

(١) صلاح الدين مختار - تاريخ المملكة العربية السعودية ج ٢ ص ١٩٥

(٢) Dikson, Kuwait and Her Neighbours P. 234

(٣) Dickson, Op. Cit. P. 234.

(٤) الفرحان - مختصر تاريخ الكويت ص ١٣٣

(٥) Dickson, Op. Cit. PP. 243-244

حاولت الحكومة البريطانية استخدام مساعيها لدى الشيخ سالم ، مستعينة في ذلك بشتى وسائل الضغط السياسى ، اذ أبلغ المستر بل Bell المقيم السياسى فى الخليج ، الشيخ سالم بأن الحكومة البريطانية ترغب فى تعيين موظفين من قبلها فى الكويت للاشراف على ما يخرج من الامارة من سلع الى الجهات المعادية لها^(١). ولكن سالم رفض هذا الطلب مبررا موقفه بأن الكويت ليست معادية لانجلترا حتى تضرب بهذا النطاق من الحصار ، فضلا عن أنه من المحافظين على المصالح البريطانية وأن أية قافلة لا تخرج من الكويت الا بعد حصولها على ترخيص من الوكيل البريطانى .

وأخيرا أكد سالم أنه لا يجوز للحكومة البريطانية القاء المسؤولية على امارته فيما يصل الى دول الأعداء من سلع ، اذ لا مانع من أن تكون هذه السلع مرسلة من نجد أو من سواها . ولكن (بل) أصر على موقفه وهدده بتعرض الامارة الى قذف المدفعية البريطانية ما لم يقبل مطالب الحكومة البريطانية ، ولم يجد سالم ما يتعلل به ازاء هذا التهديد السافر ، الا مراجعة زعماء آل صباح ، الذين رفضوا بدورهم مطالب المقيم البريطانى . غير أنه لدى وصول أبناء هذه الأزمة الى السيربرى كوكس ، لم يوافق على تصعيدها . اذ كانت ظروف الحرب لا تحتل اثارة موقف حرج فى ذلك الوقت ، ولذلك اتخذ كوكس موقفا ملائنا اذ أرسل للشيخ سالم رسالة ودية يرجوه فيها قبول ما اقترحتة الحكومة البريطانية بضرورة تعيين لجنة اشراف فى الكويت ، بعد أن قطع له التعهدات المؤكدة بأن تلك الهيئة التى تنوى الحكومة البريطانية ارسالها ، هيئة مؤقتة الى انتهاء الحرب . كما أبلغه أن حكومته سوف تعوضه عن الأضرار المادية التى يمكن أن تلحق به وبتجار الكويت من جراء عمليات الحصار الاقتصادى ، ولم يجد الشيخ سالم بدا من الموافقة ، وبالفعل أرسلت الى الكويت لجنة برئاسة الكابتن أمكلهم الذى عين مأمورا للحصار وأشرك معه موظفين من سكان الكويت ، حيث أقيمت عدة مراكز فى المنافذ المختلفة التى يمكن أن تخرج منها القوافل ، ولا شك أن الكويت أصيبت من جراء ذلك بعجز اقتصادى بالغ ، اذ وصل التضيق على معاملتها التجارية الى حد أن المؤن الضرورية لم تصل الى الكويت من الهند الا

cf. Montague Pell, Britain and The Persian gulf, Journal of the United Empire (١)
Vol VI

بمقدار ، وألزم كل تاجر أن يحمل وثيقة خاصة به ، وكاد التضيق يصل الى تفتيش المنازل واحصاء الأموال والمؤن . وفيما يبدو أن الحكومة البريطانية قدرت ما أصبحت تعانيه الكويت من ضائقة مالية ، اذ دفعت للشيخ سالم وللتجار الكويتيين الذين أضرخوا من عمليات المراقبة تعويضا ماليا بلغ ٤٨٧ ألف روبية ، كما أهدت الشيخ سالم نيشانا من درجة فارس قلده اياه المستر « بل » الذي كان قد هددته في بداية الأزمة .

والجدير بالذكر أن الخلاف الذي قام بين نجد والكويت ، وإن كان قد ظهر واضحا خلال سنوات الحرب ، إلا أن ذلك الخلاف لم يلبث أن استفحل خطره في أعقاب الحرب . وقد سبق الإشارة أن ابن سعود حاول انتهاز فرصة الحرب لتحقيق أطماعه التوسعية في الكويت مستفيدا بوقوع الأزمة بين سالم والحكومة البريطانية ، والحقيقة أن عبد العزيز بن سعود قد وجد من بعض الساسة الانجليز من كان مستعدا لمسايرته في ذلك ، اذ أن المنازعات السعودية الكويتية سببت لبريطانيا الكثير من الازعاج ، بدرجة خشيت منها على مركزها خلال سنوات الحرب ، ولما كان سالم معاديا لها فقد اقترح جون فيلبي — من قسم الشؤون السياسية بوزارة الهند — على حكومته الخلاص من هذه المشكلة المعقدة بضم الكويت الى ممتلكات ابن سعود في نجد مدافعا عن نظريته بأنها منفذ طبيعي لداخل الجزيرة العربية بيد أن الحكومة البريطانية لم توافق على هذا الاقتراح ، فلا شك أن احتمال تدفق البترول في الكويت جعلها تصر على وجوب احترام ابن سعود لسيادة الكويت وحدودها التي سبق للحكومة البريطانية أن تعهدت بحمايتها (٣) .

وعلى الرغم من أن عبد العزيز قد اضطر خلال سنوات الحرب أن يلتزم بتعليمات الحكومة البريطانية في التخلي عن مشروعاته التوسعية في الخليج ، إلا أنه أخذ يتحلل في أعقاب الحرب من القيود التي فرضتها عليه بريطانيا في معاهدة القطيف ، وقد ساعده على ذلك أن الحكومة البريطانية أخذت بدورها تتحلل

(١) عبد العزيز الرشيد — تاريخ الكويت ج ٢ ص ٢٠٢/٢٠٤ طبعة بيروت

(٢) عبد الله فيلبي — تاريخ نجد (مترجم) ص ٥٦/٥٧

(٣) عبد الله فيلبي — تاريخ نجد ودعوة محمد بن عبد الوهاب السلفية (مترجم ص ٥٦/٥٧) .

من التزاماتها المادية قبله . وكان توقف الحكومة البريطانية عن دفع الرواتب السنوية لابن سعود ضربة قوية وجهت اليه على الرغم من أنه كان يدرك أن الحكومة البريطانية لم تكن على استعداد في أن تستمر في مساعدته . ومع ذلك فقد كان توقف حكومة الهند عن الدفع فرصة لابن سعود لكي ينقض اتفاقية القطيف ، وبالتالي يعمل على التوسع في الحدود الشرقية لممتلكاته ، مبررا ذلك بحاجته المستمرة الى المال ، وقد صرح بقوله : « اننى حتى الآن (١٩١٩) كنت مقيدا بالتزام خاص وهو ألا أزعج الحكومة البريطانية بأية سياسة أتبعها ، وطالما كنت أتسلم منها مساعدة مالية ، فان على أن أتقيد بشروطها ، أما وقد شعرت بأنها مضطرة الى التوقف عن دفع المساعدة المالية الى ، فانه يحق لى فيما أعتقد أن أتبع السياسة التى أريدها ، وأن أعمل على تقرير مصيرى بالطريق الذى أراه . . . ! »^(١)

ولعل ذلك يفسر لنا ما قام به ابن سعود من توسعات اقليمية في الحجاز وعمان ومشارف الكويت ، حتى استطاع أن يوجد لنفسه كيانا أكثر قوة ، مما كان عليه من قبل ولم تجد الحكومة البريطانية في نهاية الأمر سوى الموافقة على تعديل معاهدة القطيف بمعاهدة أخرى تتفق والمركز الذى وصل اليه في الجزيرة العربية^(٢) . واستعان عبد العزيز آل سعود في توسعاته الاقليمية نحو الشرق ، بتحريضه لأتباعه من الاخوان على غزو الكويت ، وبالفعل اشتبك شيخ الكويت سالم بن الصباح ، في معارك طاحنة ضد الاخوان النجديين ، وبدأت الغزوات بمهاجمة فيصل الدويش معسكر سالم بن الصباح في حمض ١٩١٩ وفي العام التالى هاجم الاخوان الجهرة ، ونظرا لأهميتها العسكرية اذ أنها مدخل هام للكويت ، فقد وصل اليها سالم بنفسه ، ولكن الاخوان تمكنوا من محاصرته وكادوا يقضون عليه لولا نفاذ ذخيرتهم وقد خسرت الكويت من المهمات والذخائر والابل ، ما لا تقل قيمته عن ٣٠,٠٠٠ جنيه .

والواقع أن معركة حمض والجهرة كانتا على جانب كبير من الأهمية لما ترتب عليهما تدخل الحكومة البريطانية في الصراع السعودى الكويتى الذى اتخذ

(١) cf. Comment of Sir Percy Cox to the Lecture delivered by captian Eccles in the central Asian society 27 October, 1927.

(٢) معاهدة جدة ١٩٢٧

في هذه المرة غزو عسكري مباشر ، كما أن هذه المعارك ترتبط أشد الارتباط بموضوع الحدود الكويتية السعودية ، فمن المعروف أن اتفاقية يوليو ١٩١٣ الموقعة بين الحكومتين البريطانية والعثمانية ، على الرغم من أنها نصت على تخطيط حدود الكويت ، إلا أن عبد العزيز لم يكن على استعداد للالتزام بهذه المعاهدة على الرغم من اصرار الحكومة البريطانية على اعتباره الوريث الشرعي للدولة العثمانية في مناطق الخليج العربي ومن ثم حاولت الضغط عليه لقبول هذه التسوية ، ولكن عبد العزيز كان من الطموح بحيث حاول أن ينفذ من نطاق هذه التسوية معتمدا على أتباعه من الاخوان الذين كانوا أكثر حماسا من عبد العزيز لدرجة ثورتهم عليه عندما وجدوا منه تخاذلا في نهاية الأمر .

وقد بدأ النزاع الكويتي السعودي يتخذ الشكل العسكري المشار اليه عندما حاول الشيخ سالم تأكيد سيادته في حدوده الجنوبية في دوحة بلبول الواقعة على الساحل الشمالي من جبل منيف ، ولكن عبد العزيز اعترض على ذلك مدعيا أن دوحة البلبول تقع ضمن الأقاليم السعودية ، وأصدر تعليماته الى الاخوان بالاستيلاء على « قرية » التي كان يطالب بها الشيخ سالم ^(١) ، وبالفعل تمكن الدويش من الحاق الهزيمة بالجيش الكويتي ، وعندما وصلت فلول القوات الكويتية المنهزمة الى الكويت أدرك سالم خطورة الموقف فأمر ببناء السور المشهور حول الكويت ، وبالفعل تم بناءه بسرعة فائقة ، واشترك فيه جميع سكان الكويت . وكان الشيخ سالم يعتقد أن تحركات الاخوان نتيجة تحريض ابن سعود لهم بهدف القضاء على اتفاقية ٢٩ يولية سنة ١٩١٣ الانجليزية التركية مما دفعه الى احكام ادارته الصارمة على الامارة تفاديا لحالة التهديد ، كما حاول تقرير جزية سنوية على القبائل الواقعة الى الجنوب . وفشلت المفاوضات السعودية الكويتية ، اذ أصر الأمير عبد العزيز على عدم رد الأسلاب التي غنمها الاخوان ، وسجل ابن سعود مأخذه على سالم ، واتهمه بتحريض ابن الرشيد عليه ، وعلق رد الأسلاب على تنازل سالم عن العشائر القاطنة جنوب الكويت وتمعهده بالألا يخرج من الكويت جيشا مقاتلا ^(٢) ، والواقع أن

(١) عبد العزيز الرشيد - تاريخ الكويت ج ٢ ص ٢١٢

(٢) Dickson, Kuwait and Her Neighbours P. 252

الصراع الكويتى السعودى كان من أهم أسباب التقارب بين الكويت والانجليز ، ذلك التقارب الذى ظهر واضحا خلال الأيام الأخيرة من حكم سالم ، مما يفسر لنا رفض الحكومة البريطانية للادعاءات السعودية ، فعندما طلب عبد العزيز أن يمتد بأراضيه الى أسوار الكويت رفضت الحكومة البريطانية هذا الطلب وأبلغته أنها تعترف به فقط داخل الحدود المحدودة فى الاتفاق الانجليزى التركى ، الذى تضمن حدود الكويت وأن عليه أن يقبل التزامه واحترامه لهذا الاتفاق . والجدير بالذكر أن الحكومة البريطانية كانت لا تريد أن تلتزم بالاتفاق الانجليزى التركى فى علاقاتها بالكويت فى حين أنها كانت تصر على الزام عبد العزيز بذلك الاتفاق .

وازاء تدخل الحكومة البريطانية فى النزاع السعودى الكويتى ، دارت المراسلات بين الكويت ونجد ، والمندوب السامى فى العراق ، وفرضت بريطانيا نفسها بمثابة محكم فى هذا الصراع بعد أن حصلت من كل من الشيخ سالم وعبد العزيز آل سعود ، على تعهد كتابى بموافقتهم على قرارات التحكيم وان كان الاثنان لم يلتزما بتعهدهما ، اذ واصل الأمير عبد العزيز اعتداءاته المستمرة على الكويت معلنا أن سيادة شيخ الكويت منحصرة داخل أسوارها وقدم الشيخ سالم من ناحيته احتجاجا الى الحكومة البريطانية ضد تعديلات عبد العزيز وأطماعه فى امارته ، ومحاولته ضم قبائلها اليه محددا مطالبه على الوجه التالى :

أولا : أن تمتد حدود الكويت من جزيرة العمار جنوبا الى قرب انطاع ، والى جهرة واللهابة وقرعة واللصانة ، الى حفر الباطن ، وشمالا الى جبل سنام وسفوان وأم القصر .

ثانيا : أن يكون كل من حاكم نجد والكويت مسئولا مسئولية مباشرة عما يجرى فى حدوده من تعديلات البدو القاطنين هناك .

ثالثا : أن يكون لعشائر البادية الحرة التامة فى الانضمام الى أى حاكم يرويه أقدر من غيره على حمايتهم ، وأن يدفعون له زكاة أموالهم ، وأن يكون هناك ضمان لحرية التجارة .

رابعا : اذا حدث نزاع بين البدو ، فالفصل فيه يكون من سلطة الحاكمين ،
الا اذا عجزوا عن ذلك فيرجع الأمر الى وكلاء الحكومة البريطانية في الكويت
والبحرين ^(١) .

وبالاضافة الى تلك لمطالب التي حددها الشيخ سالم ، فقد طلب عون
الحكومة البريطانية رسميا ازاء اعتداءات الاخوان ، ورأت الحكومة البريطانية
الفرصة مواتية لايقاف أطماع ابن سعود ، وذلك بمؤازرتها لسالم ، وظهر ذلك
في التحذير الذي بعث به الوكيل البريطاني في الكويت الى فيصل الدويش
بضرورة انسحابه من أطراف الكويت تحت التهديد بضرب تجمعات قواته من
الجو بواسطة القوى الجوية التي تتخذ من البصرة قاعدة لها ^(٢) ، كما ذكر الماجور
مور Moore لمبعوث فيصل الدويش بأنه لا يعتقد أن يكون الاخوان يتصرفون
بايعاز من ابن سعود ، اذ أن الأمير صديق للحكومة البريطانية ، وقد أعطى
تعهدا لها بالألا يسبب أى متاعب للكويت .

وكرر الماجور (مور) تحذيره بأنه سوف يعارض أى هجوم يقوم به الاخوان
على الكويت ^(٣) .

ولم تلبث أن أسفرت الاتصالات الرسمية بين الكويت وبوشهر وحكومة
لندن والهند عن ارسال ثلاث مدرعات بريطانية رست في مياه الكويت ،
كما وصلت طائرتان من البصرة . في الوقت الذي كان فيه فيصل الدويش
يوالى ضغطه على الكويت ، وبوصول القوة البريطانية كان لدى سالم الجرأة
الكافية للاجتماع بفيصل الدويش في مقابلة حضرها الوكيل السياسى البريطانى
في الكويت الماجور (مور) الذي حاول أن يؤكد للدويش أن كلا من الشيخ
سالم وعبد العزيز صديقان لبريطانيا ، ولكن الدويش أجابه بأنه ما جاء الا بأمر
عبد العزيز ، ومع ذلك فقد أصر (مور) على موقفه وموقف حكومته انحيازاً للشيخ
سالم ، وبعث بتحذير شديد اللهجة الى فيصل الدويش جاء فيه : « ... ان
الحكومة البريطانية ترى أن أفعالكم هى بعكس ارادة وأوامر الأمير عبد العزيز ،

(١) الرشيد - تاريخ الكويت ج ٢ ص ٣١٦

(٢) Dickson, op. cit. PP. 311-312

(٣) Ibid, PP. 255-256

ولا شك أن سعادته سينهيكم عن ذلك عندما يعلم بأفعالكم ، فبناء عليه تنبهكم بأنه اذا تجربون أن تهجموا على مدينة الكويت ، فحينئذ ستحسبون مجرمين حرب ، ليس عند سعادة شيخ الكويت ، بل عند الحكومة البريطانية أيضا ، فالحكومة البريطانية لم تعتبر ذلك بل ستقابل هذا بأفعال عدائية بواسطة القوة التي تفتكر لاثقة . هذا ما لزم اعلانه لكم » .

وازاء هذا الانذار اضطرت جحافل الاخوان الى الانسحاب عن تهديد الكويت وان كان ذلك لفترة مؤقتة^(١) .

وكان لابد بعد ذلك من تهدئة العلاقات بين عبد العزيز والشيخ سالم ، فضلا عن ايجاد تسوية رسمية تحدد بها تخوم الامارتين ، وفيما يبدو أن الحكومة البريطانية توسطت في أمر الصلح بين الأميرين ، وعهد بالوساطة الى الشيخ خزعل حاكم المحمرة الذي أرسل ابنه الكبير جاسب الى الكويت ، للبحث مع الشيخ سالم عن يترأس وفد الصلح ، وبعد مداولات تعين الشيخ أحمد الجابر رئيسا للوفد ، وأبحرت البعثة وهي محملة بالهدايا والتحف على اليخت الخزعلي الى البحرين في طريقها الى نجد في فبراير سنة ١٩٢١ ، وما كادت البعثة تلتقي بعبد العزيز وتتفاوض معه حول تخطيط الحدود بين الامارتين ، حتى وصلت أبناء وفاة الشيخ سالم وآلت الأمور الى الشيخ أحمد الجابر ، وفيما يقال أن عبد العزيز سر سرورا بالغا عندما بلغه هذا النبأ ، ومزق محاضر المفاوضات التي كان قد سبق أن سجلها مع الشيخ أحمد الجابر ، وذكر ابن سعود (على سبيل المجاملة) ان حدود الكويت تنتهي عند أسوار الرياض وبعث المنادين ينادون أن سوق الكويت ونجد والاحساء : واحد ، ولا معارض لمن أراد السفر الى الكويت ، وحذر الاخوان من الاعتداء على من ينتسب لآل صباح ، كما سمح للنجديين بمسابلة أهالي الكويت . كما أكد عبد العزيز للشيخ

(١) لم يكف الاخوان عن ثوراتهم وقد وجهوها بعد ذلك ضد الأمير عبدالعزيز متهمين اياه بالتخاذل ، وقد استطاع عبد العزيز أن يقضى على ثوراتهم في نهاية الأمر في عام ١٩٣٤ cf. Dickson, op. cit. P. 328

راجع مجلة الكويت اصدار عبد العزيز الرشيد أعداد ١٩٢٦ ، ١٩٢٨

أحمد الجابر أنه لا توجد خلافات بين الامارتين الشقيقتين ، وطلب منه أن يعود الى بلاده ليتسلم مقاليد الحكم في امارته ^(١) .

ومع ذلك فان الخلاف لم يلبث أن ظهر مرة ثانية بين عبد العزيز والشيخ أحمد الجابر ، ويرجع هذا الخلاف الى عوامل اقتصادية نتيجة فرض عبد العزيز الحصار على التجارة بين ممتلكاته والكويت ، موجها بذلك ضربة اقتصادية للكويت ، اذ أن تجارة الكويت مع المناطق الداخلية كانت احدى العوامل الرئيسية لازدهار الامارة . وظلت الكويت ما يقرب من عشرين عاما تواجه الحصار الذي فرضه ابن سعود عليها مما شكل تهديدا لاقتصادها . صحيح أن بعض التجار كانوا يقومون بشراء البضائع من الكويت وتهريبها الى الداخل ، ولكن معظم هذه المحاولات كانت تبوء بالفشل بسبب العقوبات الصارمة التي كان عبد العزيز ينزلها بأولئك الذين يقبض عليهم بجرم مخالفة ارادته .

ولعل مادعى عبد العزيز الى التشدد في موقفه أن الكويت كانت تعد منفذا رئيسيا الى نجد ، الى جانب منفذها الآخر على البحر الأحمر ، ولذلك رأى ابن سعود تحويل رعاياه الى طريق البحر الأحمر ، طالما كان لا يستفيد من منفذ الكويت ، وبطبيعة الحال صادف رعايا ابن سعود صعوبات كثيرة ، اذ كانت نجد تستورد أكثر حاجياتها من الكويت ، ولذلك رأى حلا للمشكلة أن يطلب من شيخ الكويت بأن يكون للسعودية مركز جمركي داخل الحدود الكويتية السعودية ، يكون مديره سعوديا ، ولكن الشيخ أحمد الجابر رفض هذا الطلب اذ عده ماسا بسيادته ^(٢) ، مما حدا بابن سعود أن يتشدد في فرض الحصار الاقتصادي لكي تنحصر التجارة في جمارك الجبيل والعقير التابعة للسعودية ، أما الكويت فقد لحقت بها هي الأخرى أضرار اقتصادية بعيدة المدى من جراء هذا العمل الذي علله ابن سعود بعدم حصوله على الضريبة الجمركية

(١) Dickson, op. cit. P. 257

انظر أيضا عبد العزيز الرشيد - تاريخ الكويت ص ٢٢٧/٢٢٨

(٢) الرحان - مختصر تاريخ الكويت ص ٦٧ وكذلك زهرة فريث - الكويت

كانت منزلى ص ٣٣

من رعاياه الذين يتاجرون في الكويت ، في الوقت الذي هو في أشد الحاجة اليها^(١) .

ترتب على مشكلة المسابلة اذن ، تدهور اقتصاديات الامارتين معا ، هذا بالإضافة الى ما كان يلقاه النجديون من صعوبات نتيجة لذلك ، اذ كان أهالي نجد يفضلون الكويت للمسابلة لأنها أقرب اليهم من ناحية ، ولأنهم كانوا يجدون في أسواقها ما يحتاجون اليه من ناحية أخرى ، فضلا عن أن تجار الكويت كانوا كثيرا ما يتساهلون معهم ، خاصة وقد عرف عن البدو شدة وفائهم بالتزاماتهم . وكان لسلطنة نجد جمارك ثلاث في العقير والقطيف والجبيل ، وكان عبد العزيز يفضل بطبيعة الحال ، أن يجلب أهالي نجد حوائجهم من احدى هذه الأساكن النجدية في الاحساء ، ومن هنا كان تشديده في تحريم رعاياه من المسابلة في الكويت طالما كان لا يستفيد منها . وعلى الرغم من أن هذا الموقف كان موقفا لاغبار عليه من ناحية ابن سعود ، الا أن المشكلة هي أن أهالي نجد كانوا لا يستطيعون أن يدفعوا ثمن ما يشترونه من حوائج ، كما هي الحال غالبا ، اذا جاءوا الكويت للمسابلة ولما كان عبد العزيز يقدر ذلك ، فقد اقترح تسهيلات للفريقين المسابلين ، النجديون والتجار الكويتيون ، أن يعين في الكويت وكلاء له يجمعون رسما على كل ما يشتريه أهالي نجد — وطلب ان يكون هذا الرسم بواقع ٧٪ ، ولكن الشيخ أحمد الجابر رفض هذا الطلب محتجا بحق السيادة للكويت ، وحاول عبد العزيز أن يصل الى تسوية ، بأن يجعل شيخ الكويت يعين من قبله من يجمع الضرائب له ، ولكن زعماء آل صباح لم يقبلوا تلك التسوية وأكدوا أنهم ليسوا جباة خراج لسلطان نجد . وقد اقترح البعض أن يقيم ابن سعود نقطا جمركية على طول الطرق التي تجتازها قوافل التجارة الخارجة من الكويت في الجفرة والصيحية والدويش^(٢) . كما حاول الشيخ أحمد الجابر أن يؤثر على عبد العزيز بالهدايا ، ومع ذلك استمرت المشكلة — لعدة سنوات تالية —

(١) الفرحان — المصدر السابق ص ٩٨

(٢) أمين الريحاني — ملوك العرب أو رحلة في البلاد العربية ج ٢

دون حل تقريبا^(١) ، ولم تستطيع معاهدة العقير بين السعودية والكويت أن تصل الى حل للمشكلة على الرغم من أن هذه المعاهدة عنيت بتخطيط الحدود بين الامارتين ، ومعاهدة العقير ليست في تقديرنا الا واحدة من تلك التسويات العديدة التي فرضتها بريطانيا عقب الحرب العالمية الأولى ، فهي تشابه معاهدة السيب التي وقعت في عام ١٩٢٠ ، بين سلطنة مسقط وزعماء الامامة في عمان ، ومعاهدة البحر والحد ، ومعاهدة المحمرة ، مع ملاحظة أن المعاهدة الأخيرة التي وقعت بين السعودية والعراق قد اعترض عليها ابن سعود اعتراضا شديدا وحمل البعثة السعودية أنها غالت في تفسير تعليماته ، واقترح اعادة مناقشة موضوع الحدود مع السير برسي كوكس في مؤتمر تقرير عقده في ميناء العقير في شتاء ١٩٢٢ و ١٩٢٣ ، وقد حضر في هذا المؤتمر ممثلين عن السعودية والكويت والعراق ، كما هيمين السير برسي كوكس على جلسات المؤتمر ، وعلى الرغم من أن الأمير عبد العزيز بن سعود كان في قمة انتصاراته كسيد للجزيرة العربية خاصة بعد تخلصه من آل الرشيد في حائل عام ١٩٢٢ الا أن برسي كوكس استطاع أن يضمن في هذا المؤتمر من ابن سعود حماية العراق والكويت من اعتداءات السعوديين ، الى جانب حماية امارات الخليج الأخرى ، وتم ذلك بتوقيع بروتوكول العقير الذي ألحق بمعاهدة المحمرة^(٢) .

وقد عنى مؤتمر العقير — بصفة خاصة — بدراسة مشكلات الحدود بين نجد والكويت ، ومثل الكويت في المؤتمر الماجور « مور » الوكيل البريطاني في الكويت ، وهذا مما يدعم وجهة نظر الكويت في الاعتراض على الحدود التي وضعت بينها وبين السعودية وقد تمخضت الاتفاقية بين نجد والكويت على ما يأتي : —

أولا : تعيين الحد الجنوبي لأراضي الكويت .

(١) بقيت مشكلة المسالبة قائمة بين نجد والكويت ما يقرب من عشرين عاما جرت في خلالها مفاوضات عديدة بين الحكومتين السعودية والكويتية بوساطة ديكسون حتى تم الاتفاق بين البلدين ، ولا شك أن ظهور البترول كان لهما الأثر الحاسم في حل هذا الخلاف اذ عقدت بين البلدين معاهدة حسن جوار وصداقة عام ١٩٤٠ ، انظر الفرعان — مختصر تاريخ الكويت ص ٩٨ ، وفريث ص ٣٣

ثانيا : تعيين حدود الاقليم المحايد في الجنوب بين حدود الكويت الجنوبية وحدود الاحساء الشمالية .

ثالثا : الاتفاق على أن يمارس كلا من حاكمي نجد والكويت حقوقا متساوية ، وفي حالة اكتشاف البترول يقتسم دخله مناصفة ، ويتم التقاضي بواسطة مجالس عرفية مختلطة ، يقوم كل حاكم بتعيين عدد من أعضائها .

والواقع كما يقرر الكثيرون ، وكما هو واضح لدينا ، أن القرارات التي اتخذت في مؤتمر العقير ، كانت بمثابة قرارات فرضها السير برسي كوكس على كل من الكويت والعراق ونجد^(١) . وقد عرض لنا ديكسون الجو الذي كانت تسود فيه المحادثات التي يصفها بأنها كانت مثيرة للغاية ، وقد اعتبر برسي كوكس نفسه محكما بين نجد والعراق والكويت . وأكد أن المؤتمر لن يفرض الا اذا تم وضع التسويات الخاصة بالحدود . وحقيقة الأمر أنه لم تكن هناك مفاوضات منطقية ، وانما كانت كل أمانة تضع مطالب خيالية ، فقد أكد مبعوث العراق أن حدود بلاده تمتد جنوبا الى قرب العاصمة السعودية ، وتمتد غربا الى البحر الأحمر لتشمل حائل والمدينة وينبع ، وشرقا لتشمل الهفوف والقطيف على الخليج .

اما ابن سعود فقد ذكر أن مقاطعات نجد تمتد شمالا الى حلب في شمال سوريا ، كما تشمل جميع المقاطعات الواقعة على الساحل الأيمن للفرات من البصرة حتى الخليج .

واستمرت المحادثات يسودها المغالاة أحيانا ، والاعتدال أحيانا أخرى ، وعلى الرغم من أن ابن سعود كان على علاقات صداقة مع الحكومة البريطانية ، فانه وجد نفسه عقب الحرب محاطا بدول أوجدها حلفاؤه ، وكان يأمل في طرد الملك حسين من الحجاز ، وأن يصل بحدود ممتلكاته الى الأردن في الشمال الغربي ، والعراق والكويت في الشمال الشرقي ، ولكنه مع ذلك كان لا يرضى بالمجازفة في تحدى ائجلترا ، ولذلك حاول أن يحصل في المؤتمر على مكاسب اقليمية بموافقتها^(٢) . أما السير برسي كوكس ، وهو الذي سيطر على قرارات المؤتمر

Dickson, op. cit., PP. 272-273. (١)

Marlowe, op. cit. P. 75. (٢)

كما سبق أن أشرنا ، فقد ألحق بالحدود الجنوبية للعراق مقاطعات واسعة كانت تطالب بها نجد . كما حرم الكويت ثلثي مقاطعاتها وأعطاه لابن سعود ، وكان منطق « كوكس » في تصرفه هذا ، أن قوة ابن الصباح ، أصبحت أضعف مما كانت عليه عند توقيع الاتفاق الانجليزي التركي ، وذلك فيما يختص بعلاقاته مع البدو الضارين في الصحراء ، ومع ذلك فلم يكن عبد العزيز بن سعود قانعاً بهذه التسوية ، وحمل السير برسي كوكس مسؤولية حرمانه من الامتداد بحدوده الطبيعية في العراق ، أما شيخ الكويت فقد استاء بطبيعة الحال لقرارات مؤتمر العقير ، واعتبر « برسي كوكس » بدوره هو المسؤول عن استلابه لممتلكاته واعطائها لسلطان نجد ، وقد أكد له « كوكس » أنه لو لم يفعل ذلك لكان ابن سعود أثار نزاعاً واستولى عليها عنوة ولم يرض أن يضع توقيعه على اتفاق العقير ، الا بعد أن انتزع وعداً شفهيًا من « برسي كوكس » بأن يكون له الحق في العودة في المستقبل الى الاستيلاء على هذه المقاطعات عندما تزداد قوته . والى أن مات الشيخ أحمد الجابر كان يشعر أنه غبن في اتفاق العقير . وقد أكد لديكسون المقيم السياسي في الخليج أنه كان يعتبر « برسي كوكس » كوالده ، وأنه كان لا يعترض على اقتطاع بضع كيلومترات من ممتلكاته ، ولكنه فوجئ بارتفاع معظم هذه الممتلكات ^(١) ، وأشار ديكنسون أن الشيخ أحمد الجابر ، كان كثيراً ما يؤكد له أنه لا يزال يعتبر المنطقة المحايدة بين الكويت والسعودية جزءاً لا يتجزأ من ممتلكاته ، وأنه لا يوافق على أن يناصف ابن سعود امتيازات البترول فيها ^(٢) .

والجدير بالذكر أن تخطيط الحدود بين الكويت والعراق كانت تطابق الاتفاق الانجليزي التركي (١٩١٣) وهي الحدود المبينة باللون الأخضر . ومع ذلك كانت الحكومة البريطانية تحرص حرصاً شديداً على الإشارة الى هذه الاتفاقية في مباحثاتها مع شيخ الكويت ، ويفهم من ذلك أنها كانت لاتود الزام شيخ الكويت بمثل ما التزم به ابن سعود ازاء هذه الاتفاقية ، ومما يستلقت النظر أيضاً أنه على الرغم من أن مؤتمر العقير خطط الحدود بين نجد والكويت والعراق ، الا أنه لم يضع اتفاقاً بشأن الحدود الشرقية ، والجنوبية الشرقية

Dickson, op. cit. P. 278.

(١)

Ibid, op. cit.

(٢)

للسعودية ، مما سيثير نزاعا اقليميا حادا فيما بين الحكومتين البريطانية والسعودية فيما بعد ^(١) .

كانت تسوية العقير أهم التسويات التي وضعتها بريطانيا في أعقاب الحرب العالمية الاولى في منطقة الخليج العربي ، وقد مست حدود كلا من سلطنة نجد وامارة الكويت ، ويمكننا أن نضيف الى تلك التسوية معاهدة السيب ، التي عقدت بين امامة عمان ، وسلطنة مسقط ، وقد أبرمت هذه التسوية بوساطة الحكومة البريطانية كنتيجة من النتائج التي ترتبت على اشتعال الثورة الاباضية ابان الحرب العالمية الأولى ، غير أنه ينبغي أن تؤكد هنا أنه لا علاقة بين الثورة العمانية وبين الحرب العالمية الأولى ، لأن هذه الثورة قامت أساسا ضمن سلسلة المحاولات التي بذلها الاباضيون لاعادة بعث الامامة ، والأحرى أن نقول أن هذه الثورة قد استفادت من نشوب الحرب ، وكانت تمثل مركزا هاما من مراكز التصدي للنفوذ الانجليزي الذي حاولت الحكومة البريطانية فرضه على كل بقعة من بقاع الخليج ، وتعود أسباب هذه الثورة الى زيادة النفوذ البريطاني في مسقط خاصة بعد أن نجحت بريطانيا في القضاء على منافسة فرنسا ، واخضاع السلطان لمطالبها ، فيما يتعلق بأمور التجارة بالسلاح والرقيق ، وقبوله استغلال بريطانيا لموارد عمان الداخلية . واختلفت الثورة العمانية في هذه المرة عما سبقها من ثورات ، أنها لم تكن ثورة دينية صرفة استهدفت تطبيق التعاليم الاباضية ، كما أنها لم تكن انقلابا في أحد فروع الأسرة الحاكمة في مسقط ، وانما بدت فيها بوادر الحركة القومية واضحة . وقد حاول السلطان فيصل بن تركي تنصيب نفسه اماما على المذهب الأباضي ، على أن الخلاف بينه وبين زعماء الامامة ، يرجع الى تمسكه بأن يكون اماما وسلطانا ، فضلا عن رفضه الموافقة على الكثير من مطالبهم ، وأخذت الثورة تحرز تقدما هائلا ، بفضل التعاون الذي تم بين زعمائها ، وتمكين الصلح بين القبائل الغافرية والهناوية ، وأصبح الشعور ضد أسرة البوسعيد قويا ، الى درجة أن أحدا لم يهتم بانتخاب أي

(١) راجع نص المواد ٥ - ٦ - ٧ من الاتفاق الانجليزي التركي يولييه عام

١٩١٣

(٢) راجع التحكيم لتسوية النزاع الاقليمي بين مسقط وأبو ظبي وبين المملكة العربية السعودية ج ١ العرض التاريخي ج ٢ ، ٣ الوثائق والملاحق . ويمكن الرجوع أيضا الى العرض المقابل الذي تقدمت به المملكة المتحدة .

فرد من أفراد الأسرة الحاكمة في مسقط ، وإنما استقر الرأي على انتخاب الامام راشد الخروصي^(١) ، وزاد من خطورة هذه الثورة ، ما كانت تخشاه بريطانيا من استغلال الألمان لها ، وتذهب الكثير من المصادر أن الألمان قد ساعدوا الثوار الأباضيين بالفعل ضد السلطان الموالي للانجليز ، بل ذهب (مارلو) أن الوكلاء الألمان هم الذين حركوا هذه الثورة^(٢) ، على الرغم من أننا لانستطيع أن نستبعد خضوع تلك الثورة لمؤثرات أجنبية الا أننا لا نوافق على المغالاة في هذه المؤثرات ، استنادا على دراستنا لطبيعة الثورة الأباضية — وكل ما نستطيع أن نقوله أن الثورة ربما تكون قد تأثرت معنويا بالدعاية الألمانية ، التي نشطت من مراكزها في شرق أفريقيا ، تشجع الثوار ، وتؤكد لهم بأن النجدة الانجليزية لن تأتي ، بل وصلت الدعاية الى حد الادعاء بأن الامبراطور (ويهلم الثاني) اعتنق الاسلام ، وأن اسمه أصبح الحاج محمد غليوم وأن قواته تحرز انتصارات في كل مكان ضد المسيحيين .

وفي يناير ١٩١٥ ، تقدم الشيخ عيسى بن صالح ، والامام الخروصي ، على رأس ثلاثة آلاف مقاتل ، بهدف غزو مسقط والاطاحة بالسلطان . وعلى الرغم من أن مسقط لم تكن معززة الا بحاميات هندية صغيرة العدد ، الا أن هذه الحاميات استطاعت رد الهجوم غير المنظم الذي وجهه الثوار اليها ، وعلى الرغم من أن الثوار العمانيون ردوا على أعقابهم وانسحبوا الى الداخل ، الا أنهم مع ذلك لم يستجيبوا للصلح ، لاعتقادهم بانتصار الألمان في الحرب ، وكان من رأى زعمائهم الصمود حتى معرفة ما ستمخض عنه الحرب . حقيقة أن الثورة توقفت بعد قذف المدفعية البريطانية لكل من بركة وقریات ، وبفضل الدفاع القوى الذي قامت به القوات الهندية ونجاحها في احتلال بيت الفولاج واحكام السلطات البريطانية سيطرتها على مخزن السلاح في مسقط Warehouse وتحكمها في تصدير الأسلحة وبيعها ، ولكن استمر زعماء الامامة في صمودهم نتيجة لتأثرهم بالدعاية الألمانية من ناحية ، ونجاحهم في احتلال وادي سمائل من ناحية أخرى . وحول ذلك الوقت (فبراير ١٩١٥) وصل اللورد هاردنج الى

(١) مجلة لفة العرب — سقوط مسقط نقلا عن جريدة المنار ج ١٦ ، ١٣٣١

ص ٩٤٣/٩٣١

(٢) Marlowe, op. cit. P. 76 see also Sanger, The Arabian Peninsula P. 192.

مسقط ضمن رحلته العامة الى امارات الخليج العربى ، وعند التقائه بالوكيل السياسى فى مسقط أوضح له الأخير المصاعب الجمة التى يتعرض لها من جراء الثورة العمانية ولخص له الموقف على الوجه الآتى :

أولا : لا يزال الثوار قابضين على زمام الموقف باحتلالهم وادى سمائل وحصنة .

ثانيا : اكتسبت الثورة العمانية طابعا دينيا ، وأخذ الامام ينادى بالجهاد ، أضف الى ذلك أن القوات الهندية قتلت عددا كبيرا من الثوار مما أثار شعورا قويا من الاستنكار ، أصبح من الصعب تهدئته .

ثالثا : ان عرض منح على قبائل الداخل قد لا يكون فيه اغراء قوى اذ أن الامام قد يمنعه الحرج الدينى من قبول أية رشوة ، كما أن زعماء الامامة يتمتعون بدخل طيب بفضل استيلائهم على الكثير من الأراضي .

رابعا : ان خفض قوة الحاميات الهندية الى مستواها الطبيعى سيترك السلطان دون أى سند ، خاصة وأن السفن البريطانية ليست ، نظرا لظروف الحرب على مقربة من مسقط ، كما جرى عليه الحال فى زمن السلم .

ولهذه الأسباب التى أوضحها الوكيل السياسى ، نصح اللورد (هاردنج) السلطان تيمور بن فيصل ، وهو الذى خلف أباه فيصل بن تركى ، أن يسالم الثوار ، وأن يعقد معهم صلحا ، بعد أن أعلن له صراحة أن الانجليز لن يتمكنوا من تقديم ما يحتاج اليه من حماية الى أجل غير مسمى ، بسبب سيطرة قوات الامامة على وادى سمائل ، فضلا عن أن دعوة الامام بالجهاد الدينى قد تكون دعوة خطيرة فى تلك الظروف الدقيقة على الأقل ، لأن الانجليز كانوا يفاوضون الحسين بن على ، لاعلان الجهاد المقدس ، ضد العثمانيين ، ولا بد أن تؤدى دعوة امام عمان للجهاد ، الى مصاعب بالغة ، لا سيما فى الهند وجزيرة العرب وشمال أفريقيا ، وعلى أى حال فقد أصبح الوضع مجمدا طيلة سنوات الحرب ، ولم يكن الانجليز فى خلال تلك السنوات يهتمون ، الا بأحكام السيطرة على موانئ مسقط . وعندما انتهت الحرب ، بذلوا كل ما فى وسعهم لاقرار الأوضاع بين الامامة والسلطنة ، فقد حاول القنصل البريطانى فى مسقط تنظيم مقابلة بينه وبين الشيخ عيسى ، نائب الامام للتفاوض فى عقد

الصلح ، كما بعث القنصل البريطاني رسالة الى زعماء الامامة يطلب منهم وقف اطلاق النار وجاء في هذه الرسالة : « . . . أكتب اليكم بالخصوص لأخبركم أن ارادتنا هي أن نساعد على تأليف حكومة في كل البلاد العربية ، لتحكم حسب عوائدها ، وحيث تخلص العرب من ربة جور الأتراك ، فالرجاء وثيق أنهم سيتقدمون في أمورهم على الطريقة العربية الطيبة ، وبما أن الفرصة قد سنحت الآن لكى نلتفت الى عمان ، فانه من الواجب أن أشرح لكم سياستنا .. » ، وبعد أن أوضح القنصل البريطاني أنه يريد التباحث مع العمانيين لاقرار السلام في المنطقة فانه أخذ يهددهم بقوله :

« ... ان لدينا خمسمائة ألف من العساكر المدربة على الحروب في العراق ، وقد فرغوا من أعمالهم الحربية ، ولا حاجة لنا بهم هناك ، وبضعة آلاف منهم تكفى للاستيلاء على عمان بأسرها ، لو أننا أردنا بكم سواء ، والسيد تيمور يخالفكم في أنه يحاول أن يكون على صداقة معنا .. » . كما تضمنت الرسالة تهديدا اقتصاديا باحكام سيطرة بريطانيا على السواحل ، جاء فيه : « ... ان الحاكم المتولى على السواحل لا يعجز عن فرض الخراج على ما يذهب اليكم ... وتعلمون كذلك أن زمام أمور البحر في أيدينا ، فان كنتم تريدون مناصبتنا العداء فلن نسمح أن يباع لكم الأرز أو القمح أو الأثواب التى تلبسونها ، ولن نبيع لكم بيع تموركم ، مع العلم بأن كل تجارتكم لا تجرى الا في بلادنا ، ولكن اذا كنتم مستحسنون صداقتنا ، فانا سوف نقوم بمساعدتكم ، كما نساعد الآن السيد تيمور ... لكن ان لم ترضوا الآن أن تعاونونا ، فالعواقب الوخيمة ستحل بكم ، وليس بنا ، ومن المتعذر أن نكون أصدقاء لمن لا يريد صداقتنا »^(١) .

وعلى الرغم مما يبدو من الحاح بريطانيا ولجئها الى التهديد لاقرار الوضع بين الامامة والسلطنة ، فان زعماء الامامة حرصوا من جانبهم على عقد هذه المعاهدة ، وكانوا أكثر تقديرا لحقيقة الموقف الذى ترتب على سيطرة بريطانيا

(١) Question of oman, Report of the Ad-Hoc Committee on Oman, United Nation General Assembly distr. General A 5846, 1956 PP. 80FF.

كنا قد أخذنا هذه الوثيقة من مكتب امامة عمان بالقاهرة كما يوجد نصها باللغة الانجليزية الى جانب غيرها من الرسائل التى تبودلت بين الشيخ عيسى والقنصل البريطاني فى مسقط فى المصدر المشار اليه .

على الساحل ، وما قد يؤدي اليه ذلك من تضيق الحصار على الامامة ، اذ
بوسع بريطانيا في هذه الحالة أن تخلق الامامة سياسيا واقتصاديا^(١) .

وعلى الرغم ما في هذه الرسالة من عبارات التهديد ، فانها تتضمن أيضا
الاعتراف باستقلال عمان ، وقد تأكد هذا الاعتراف في العام التالي بتوقيع اتفاقية
السيب التي وقعها نيابة عن الامام مثله الشيخ عيسى بن صالح الحارثي ،
ومن قبل السلطان المستر (وينجت) Wingate القنصل البريطاني في مسقط
وقد تعهد السلطان بموجب هذه المعاهدة بعدم التدخل في شئون عمان الداخلية ،
كما تعهد ممثلو الامامة من جانبهم ، بأن يمتنعوا عن الهجوم على مسقط . وقد
رحبت الحكومة البريطانية بهذه الاتفاقية ، التي عقدت بواسطتها ، واعتبرتها
نهاية لصراع طويل بين الامامة والسلطنة ، وبداية لعهد مستقر لسلطنة مسقط
التي كانت تتعرض دائما للتهديدات والغزوات من عمان الداخلية .

والجدير بالذكر أن معاهدة السيب ، ظلت الى فترة طويلة ، تثير جدلا قويا
بين الحكومة البريطانية ، المتحدثة باسم سلطان مسقط ، وبين زعماء الامامة .
ومما يزيد التساؤل والغموض عدم وجود نص رسمي يمكن الاعتماد عليه لتلك
المعاهدة . ويؤكد زعماء الامامة أنهم وقعوا هذه المعاهدة باعتبارهم ممثلين عن
الامام ، بينما تؤكد الحكومة البريطانية أن دياجة المعاهدة لم ينص فيها على
الامام ، وانما كل ما جاء فيها : « ... هذا هو الصلح المتفق عليه بين حكومة
السلطان تيمور بن فيصل ، والشيخ عيسى بن صالح بن علي ، عن سكان عمان »
كما أنه لا يوجد تصديق من الامام على هذا الصلح المشار اليه . ولكن زعماء
الامامة يؤكدون أن هناك نص آخر للمعاهدة ، مصدقا عليه من قبل الامام .
وان كانوا قد عجزوا عن اظهار هذا النص بدعوى فقدهم له في احدى الاغارات
التي تعرضت لها امامة عمان من قبل مسقط .

وعلى الرغم من أننا لم نعثر على نص رسمي للمعاهدة ، اذ عملت كل من
الحكومة البريطانية ، وحكومة سلطان مسقط ، جاهدتين على تحاشي نشر

cf. Memorandum Submitted to the Committee by the United Kingdom of. The (١)
Relationship between the united kingdom & sultanate of Muskat and Oman, United
Nation official Records A/5846 Annexi P. 1.

المعاهدة ، الا أنه من المعروف أن معاهدة السيب قررت أربعة مواد لصالح الامامة ، وأربعة أخرى لصالح السلطنة ، ويمكن أن نعرض لهذه المواد فيما يأتى :

أولا : المواد الخاصة بالامامة :

- (أ) لا تفرض ضرائب أكثر من ٥٪ على البضائع الواردة من عمان الى موانئ مسقط ومطرح وصور .
- (ب) ترفع جميع القيود على دخول العمانيين موانئ مسقط ومطرح وغيرهما من موانئ الساحل .
- (ج) يتمتع العمانيون بالحرية والأمان عند ذهابهم الى مدن الساحل .
- (د) تتعهد حكومة سلطان مسقط بتسليم اللاجئين الهاربين من عدالة عمان .

ثانيا : أما المواد الخاصة بالسلطنة فهي :

- (أ) يتعهد شيوخ وزعماء قبائل عمان بعدم مهاجمة المدن الساحلية ولا يتدخلون في شئون الحكم في مسقط .
- (ب) يتمتع أهالى مسقط المشتغلون بالتجارة ، بالحرية والأمان في مقاطعات عمان .
- (ج) تسليم اللاجئين الهاربين من مسقط .
- (د) تقرر مطالب التجار للعمانيين على أساس تعاليم الاسلام^(١) .

والجدير بالذكر أن هذه المواد ، تم استنتاجها من اقوال الرحالة والموظفين الرسميين الذين زاروا مسقط ، وقد أكد هؤلاء استقلال عمان عن سلطنة مسقط . ذكر « ولفرد ثيجر » Thesiger في كتابه (رمال العرب) وقد وضع هذا الكتاب بعد أن قضى وقتا طويلا في الطواف بعمان وما جاورها ، أنه في عام ١٩٢٠ وقعت معاهدة بين السلطان والعمانيين وافق السلطان بمقتضاها

(١) انظر دراستنا عن الأصول التاريخية لقضية عمان مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد الثانى عشر ١٩٦٤/١٩٦٥

على ألا يتدخل في شئون عمان الداخلية^(١) — أما الكابتن G. Z. Eccles^(٢) وكان متوليا قيادة قوات السلطنة في بيت الفولاج ، فقد أشار الى اتفاق السيب بقوله : « . . . أن ثمة معاهدة وقعت عن طريق وساطة الوكيل السياسى في مسقط » أما المستر « برترام توماس » Bertram Thomas وهو الذى كان وزيرا ومستشارا ماليا لسلطان مسقط في الفترة من ١٩٢٥ الى ١٩٣٠ ، فكان أكثر تحديدا فيما كتب ، اذ قال : « أمكن الوصول الى تسوية تقوم على أساس الحالة الراهنة وبمقتضاها ظل السلطان من الوجهة القانونية على مسقط وعمان ، على أن تكون لقبائل الداخل حكومة من بينهم ، تعتمد على أساس الأمر الواقع ، لتدير شئونهم المحلية البحتة »^(٣) . وعلى الرغم من أن « برترام توماس » كان أكثر تحديدا ، كما أشرنا ، الا أن العبارة التى أوردها ، يحتمل تفسيرها بأكثر من تفسير واحد ، فقد تعنى أن السلطان ظل سلطانا على مسقط وعمان لا لسبب سوى أنه كان يدعى هذا اللقب لنفسه منذ زمن بعيد ، وأن الحكومة البريطانية كانت قد اعترفت بلبقه هذا منذ أمد طويل ، أو قد تعنى أن ممثلى الامامة أقروا قانونية هذا اللقب ، مما يضعف من مركزهم بطبيعة الحال وان كانت المبادئ التى قامت على أساسها الامامة الأباضية ، واصرار زعماء الامامة على أن السلطان لم يعترف به فى عمان ، كل هذا يلقي فى تقديرنا شكاً على التفسير الأخير .

أما القنصل الفرنسى R. Vadala الذى ذهب الى مسقط فى عام ١٩٢٠ ، ليغلق القنصلية الفرنسية هناك ، فقد كتب معقبا على اتفاق ١٩٢٠ بقوله : « كانت الحرب قد ظلت ناشبة سبع سنوات بين سلطان مسقط وداخلية عمان ، ولهم تنته الا فى ٢٥ سبتمبر ١٩٢٠ ، يوم وقعت وثيقة الصلح فى السيب بين السلطان تيمور بن فيصل ، والشيخ عيسى بن صالح » وذكر أن القنصل البريطانى فى مسقط ، كان الوسيط فى عقد هذه التسوية ، التى بمقتضاها ، حق لأهل مسقط وعمان ، أن يتاجروا ويسافروا بحرية وأمان ، ولكن فرضت ضريبة مقدارها ٥٪

Cf. Wilfred Thesiger, Arabian Sands London 1959. (١)

Le cture delivered by captain Eccles in the Central Asian Society 27 Oct. 1927. (٢)

Bertram Thomas, « Finance Minister and Wazir to H.H. The sultan of Muscat & Oman », (٣)

Arab Rule Under the Al Busaid Dynasty in oman and East Africa, London, 1934 PP. 24—26.

على جميع سلع الداخل عند وصولها الى مسقط . وبفضل هذا الصلح الذى كان ينتظر أن يعقبه اتفاق سرى ، يحظر كل تدخل أجنبى ، صارت عمان هادئة ، والواقع أننا لم نعر على نصوص هذا الصلح الذى أشار اليه Vadala غير أنه اذا سلمنا بتوقيع وثيقة الصلح هذه ، فان هذه التسوية مع ذلك لم تحل مشكلات السلطنة تماما ، اذ أخذ عرش السلطان يهتز حتى بعد توقيعها ، مما اضطر الانجليز للتدخل للحيلولة دون انهياره ، ويؤكد (برترام توماس) بصدد ذلك أن مساعدة بريطانيا هذه المرة (التى أعقبت معاهدة السيب) لم تنصرف الى رد الهجمات التى كانت تتعرض لها السلطنة ، انما جاءت فى شكل قرض قدمته حكومة الهند لتصفية ديون السلطنة وللعمل على تنظيم فيلق يتولى قيادته ضابط بريطانى ، كما اهتمت الحكومة باصلاح المحاكم وانشاء مجلس يتولى الحكم باسم السلطان فى حالة غيابه ، كما نصح السلطان بأن يستعين بخدمات وزير بريطانى ، كاجراء مؤقت^(١) ، كما تعهد السلطان بعد ذلك بالألا يمنح امتياز الزيت لأية دولة غير بريطانيا .

كانت هذه هى أهم المشكلات التى واجهت بريطانيا فى خلال وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، فى كل من الكويت ونجد ومسقط وعمان ، أما بقية مناطق الخليج فلم تحدث فيها مشكلات تذكر ، بل على العكس ، تمخضت الحرب العالمية الأولى وما لابسها من ظروف ، عن توطيد دعائم السيطرة البريطانية بصورة أقوى ، فالبحرين مثلا لم تتأثر بأحداث الحرب ، الا بقلّة دخلها من اللؤلؤ ، كذلك لم تتأثر بحركات التوسع السعودى^(٢) ، ذلك أن صناعة اللؤلؤ فى البحرين قد تعرضت الى التدهور خلال سنوات الحرب ، ثم عادت الى الانتعاش ، الى أن تعرضت للمنافسة اليابانية ، حيث أخذت تستعيز بعد ذلك عن قلة دخلها ، بتحولها الى عصر البترول وكانت البحرين خلال الحرب العالمية الأولى مركز تجمع للقوات الهندية ، وقاعدة بريطانية هامة ، استخدمت لحشد الجنود للاعداد لحملة العراق ، حقيقة أن بريطانيا تعرضت لبوادر حركة

(١) علم الرغم من ان تعيين الوزير البريطانى كان اجراء مؤقتا الا انه استمر لفترة طويلة فى سلطنة مسقط .

(٢) Marlowe, op. cit. P. 76.

وطنية في البحرين ، الا أنها استطاعت أن تخمد هذه الحركة التي قامت نتيجة لمحاولة بريطانيا تطبيق القانون الهندي على البحرين والذي عرف باسم Bahrein Order in Council ^(١) ، ولكن ظروف الحرب اضطرت بريطانيا الى تأجيل ذلك ، ولما انتهت الحرب وشرعت في تنفيذ القانون ، ثار شعب البحرين وكونوا مجلسا يضم رؤسائهم ويخول لهم حق انتخاب القضاة الشرعيين ، ورؤساء الدوائر ، وعزل غير الوطنيين ، واتخاذ الأسباب اللازمة لحفظ حقوقهم ، ولما وجدت بريطانيا أن هذا المجلس قد يضر بنفوذها ، بدأت تثير العصبية العنصرية والمذهبية بين السنة والشيعة ، والفرس والعرب ، مما ترك الفرصة للتدخل الفارسي الذي زاد الأمور اضطرابا . وعندما بلغ الاضطراب حدا بالغاً ، طلب المقيم السياسي في بوشهر عزل الشيخ عيسى ، لاستجابته للحركة الوطنية وموافقته على تشكيل جمعية تشريعية ، وتنظيم بوليس وطني ، والموافقة على اللائحة الاصلاحية ، التي تقدم بها اليه الوطنيون ، وبالفعل اضطر الشيخ عيسى الى التنازل عن الحكم لابنه حمد ، وتبع العزل سلسلة من الاجراءات التعسفية ، استبد الماجور (ديلي) Duliey فيها بالأمر ، وقد أجاب الوطنيون على ذلك بالدعوة الى مؤتمر البحرين الذي انعقد بالفعل في ٢٦ يونية ١٩٢٣ ، وحدد مطالبه على الوجه الآتي :

- أولا : عدم الاعتراف بعزل الشيخ عيسى .
- ثانيا : عدم تدخل القنصل البريطاني في حكومة البحرين .
- ثالثا : رفض القانون الهندي ، والاصرار على أن تجري الأحكام طبقا للشريعة الاسلامية .

وقد انتهى المؤتمر بانتخاب هيئة تنفيذية ، تقوم بتنفيذ تلك القرارات ، ولكن استطاعت بريطانيا أن تقمع هذه الحركة سريعا وهي ما زالت تتعثر في خطواتها الأولى ^(٢) .

أما اماره قطر ، فقد بدأت مرحلة جديدة في العلاقات بينها وبين بريطانيا ، فعند نشوب الحرب أجلت المدرعات البريطانية الحامية التركية من مدينة الدوحة ،

(١) ارجع الى مواد هذا القانون في :

Bahrein order in Council, 1913 Ind. Off. Political & External File Vol. 520 File 951 Part. 1

(٢) الريحاني - ملوك العرب ص ٢٤٠/٢٤٨

وفي معاهدة (دارين) التي وقعتا بريطانيا مع عبد العزيز آل سعود ١٩١٥ أشير فيها الى شيخ قطر بأنه واقع تحت الحماية البريطانية ، على الرغم من أنه لم تكن هناك معاهدة تربطه بالانجليز ، باستثناء الاتفاقية الانجليزية التركية ، التي لم يصادق عليها ، والتي أشير فيها الى مشيخة قطر بأنها امارة مستقلة يتوارث حكامها من آل ثاني الحكم ، وفي ٣ نوفمبر ١٩١٦ وضعت قطر رسميا تحت الحماية البريطانية ، اذ اشترك عبد الله بن قاسم في المعاهدات والاتفاقيات التي ارتبط بها أمراء ساحل عمان الخاصة بمكافحة القرصنة ، وتجارة الرقيق ، والمحافظة على سلامة الملاحة في الخليج ، وفي الوقت نفسه وقع الشيخ عبد الله وثيقة منفصلة تضمنت قيودا معينة تحرم استيراد الأسلحة وتصديرها وشرائها ، الا بموافقة الانجليز على أن يكون للامارة حق شرائها بموافقة بريطانيا من مخزن الأسلحة بمسقط ، أو من أى مكان آخر توافق عليه بريطانيا ، وقد حددت حاجة قطر من السلاح بخمسمائة قطعة سنويا ، كما نصت الوثيقة على عدم تبادل الممثلين السياسيين مع أية دولة أخرى غير بريطانيا . وألا تعقد الامارة أى معاهدة مع أية دولة أخرى ، الى جانب عدم التنازل عن أراضي الامارة أو بيعها أو تأجيرها بأى شكل من الأشكال ، كما تضمنت الوثيقة بالاضافة الى ذلك قيودا اقتصادية ، خاصة بعدم منح امتيازات صيد اللؤلؤ أو أى احتكار آخر لأية دولة أو شركة أجنبية دون موافقة بريطانيا ، كذلك لا يجوز لحاكم قطر أن يفرض رسما على الرعايا الانجليز يزيد عما يدفعه رعاياه ، ولا يتجاوز بأية حال عن ٥٪ ، وأن يسمح باقامة مكاتب للبريد وشبكات برقية فى داخل أراضيه ، واقامة وكيل بريطانى بالبدعة . وتعهد الانجليز أن يبذلوا مساعيهم (الحميدة) فيما لو هوجم حاكم قطر أو رعاياه فى داخل أراضيههم مهاجمة بحرية دون استفزاز (١) .

وهكذا تمخضت الحرب العالمية الأولى ، عن تدعيم السيطرة البريطانية فضلا عن ايجاد معاهدات لتخطيط الحدود بين نجد ومناطق النفوذ البريطانى فى الشمال ، والشمال الشرقى من الجزيرة العربية ، الى جانب ايجاد تسوية بين منطقة النفوذ

(١) شركة الزيت العربية الأمريكية - ادارة العلاقات - شعبة البحث - عمان والساحل الجنوبى للخليج الفارسى ص ٣١١ و ٣١٢

البريطاني في سلطنة مسقط ، ومقاطعات عمان الداخلية ، ولاشك أن ظروف الحرب وما تبعها من اجراءات عسكرية قد ساعدت على تدعيم السيطرة البريطانية في الخليج العربي ، بصورة تفوق كثيرا عما كانت عليه في السابق ، وساعدت الظروف الدولية بريطانيا أيضا على تحقيق تلك السيطرة ، إذ أن الدول التي نافستها النفوذ في الخليج لم تلبث أن خرجت من حلبة التنافس : ألمانيا لهزيمتها في الحرب ، وروسيا لتغير أوضاع الحكم بها ، ودعوتها الى التخلي عن الأطماع القيصرية . أما فرنسا حليفة بريطانيا ، فقد سلمت لخليفتها بالنفوذ ، وبأدرت الى اغلاق قنصليتها في مسقط في عام ١٩٢٠ كآخر مظهر من مظاهر النفوذ الفرنسي في الخليج العربي ، مكتفية بالنفوذ الذي آل اليها في الشام . وكان لاختفاء الدولة العثمانية سببا في أن أصبحت السيطرة البريطانية في الخليج تمتد من شط العرب شمالا ، حتى المحيط الهندي جنوبا . بينما كانت في وجود الدولة العثمانية وطبقا للاتفاق الانجليزي التركي تنتهي عند شبه جزيرة قطر .

وهكذا حق لكثيرين من الكتاب أن يصفوا الخليج بأنه أصبح بحيرة انجليزية British Lake كما أطلق اللورد كيرزون Curzon وزير الخارجية البريطانية في رسالة الى برسي كوكس بأنه قد أصبح ملكا على الخليج .

وعند انتهاء الحرب قامت وزارة الخارجية البريطانية باعداد سلسلة من المنشورات باشراف القسم التاريخي فيها ، يشار الى كل منشور منها عادة باسم دليل الصلح ، اذ كان القصد أنه يسترشد بها المندوبون الانجليز في مؤتمر فرساي الذي عقد في باريس سنة ١٩١٩ . ويهنا في دراستنا الدليل المعنون بالجزيرة العربية والمعنون بالخليج الفارسي .

وهما يؤكدان على النفوذ الذي وصل اليه الانجليز في الخليج العربي وأن جميع رؤساء الخليج قد خضعوا للسيطرة البريطانية لدرجة أنه بالرغم من قلة التدخل البريطاني في شئونهم الداخلية فانهم أضحوا خاضعين للنفوذ الانجليزي فيما يتعلق بشئون اتصالاتهم الخارجية وأنهم يحتفظون الى مدى بعيد بعائلاتهم وسلطتهم في الحكم فقط بفضل اتحادهم مع الانجليز^(١) .

(١) cf. Handbook Prepared Under the Direction of Great Britain Foreign office-
Historical section. Persian gulf No. 67.

أما الصعاب المحلية التي واجهتها بريطانيا من قبل القوى المحلية في الخليج ، فقد نجحت في قمعها لفترة مؤقتة بفضل التسويات التي عقدتها مع الرؤساء والتي سبق أن تعرضنا إليها كاتفاقية السيب من مسقط وعمان ومؤتمر العقير بين نجد والكويت والعراق ، كذلك استطاعت أن تقضى على بوادر الحركة الوطنية في كل من عمان والبحرين والكويت . وباتتءاء الحرب وملابسائها نصل الى بداية مرحلة جديدة من تاريخ الامارات العربية في الخليج العربى . يمكن أن نطلق عليها مرحلة ما بين الحربين العالميتين ، وتتميز هذه المرحلة بتدفق الثروة البترولية ، وما ترتب على ذلك من انقلابات سياسية واقتصادية واجتماعية ، نرجو أن نعود إليها في دراسة تالية .

عرض للأبحاث والدراسات الخاصة

بتاريخ ليبيا الحديث التي قدمت إلى مؤتمر ليبيا عبر العصور

للدكتور جمال زكريا قاسم

مدرس التاريخ الحديث بجامعة عين شمس

اقتصرت الدراسات التي قدمت الى مؤتمر ليبيا عبر العصور الذي نظمته كلية الآداب والتربية بينغازى في الفترة من ١٦ الى ٢٣ مارس سنة ١٩٦٨ على سبعة أبحاث في التاريخ الحديث من مجموع الدراسات التي قدمت الى المؤتمر والتي بلغ عددها سبعة وثلاثين بحثا تناولت مختلف العصور التاريخية التي مرت بها ليبيا ، ولما كان قد أتيح لى فرصة الاشتراك في هذا المؤتمر لذلك رأيت أن أقوم بعرض للأبحاث الخاصة بالتاريخ الحديث ويمكن ترتيبها حسب ترادفها الزمنى على النحو التالى :

- ليبيا بين الحسن الوزان ومارمول ، للدكتور نيقولا زيادة — الجامعة الاميريكية بيروت .
- علاقة منظمة القديس يوحنا بطرابلس ، للاستاذ فر . أ . فيلا — الجامعة الملكية بمالطة .
- حالة ليبيا كما ذكرها الحاج أبو سالم العياش في رحلته ، للأستاذ عوض السعداوية .
- الظروف التي أدت الى احتلال على الجزائرلى لمدينة طرابلس الغرب . — ١٧٩٣ — ١٧٩٥ ، للأستاذ عمر بن اسماعيل .
- ملامح تاريخ ليبيا في القرن التاسع عشر للأستاذ مصطفى بعيو وزير التربية والتعليم بالمملكة الليبية .
- موقف مصر من الحرب الليبية الايطالية سنة ١٩١١ — ١٩١٤ ، للدكتور جمال زكريا قاسم — جامعة عين شمس .

— السنوسية في الحرب العظمى الأولى — للسيردنكان — كمنج .

والدراسة الأولى لم تطبع في الطبعة التمهيدية التي وزعت على الأعضاء خلال جلسات المؤتمر كغيرها من الدراسات وإنما اكتفى الأستاذ نيقولا زيادة بالقائها — واعداد باعداد صياغتها — وارسالها الى سكرتارية المؤتمر حينما يأتى دور نشرها . وعلى ذلك فاتى سأعتمد هنا على تسجيل بعض النقاط التي أبرزها الباحث خلال عرضه لموضوع دراسته ..

ذكر الأستاذ نيقولا زيادة أن القرن السادس عشر يحتاج الى عناية خاصة من المؤرخين لأن هذا القرن عرف مجموعة من الرجال قل أن تجتمع في عصر واحد . ففي القسطنطينية كان سليم الأول وابنه سليمان يشغلان أكثر سنوات هذا القرن ، وفي المغرب كانت تقوم الدولة السعدية خاصة في عهد أقوى سلاطينها أحمد المنصور الذهبي ، وفي أسبانيا كان فرديناند الكاثوليكي ، يضاف الى ذلك ظهور قواد من الدرجة الأولى من أمثال علوج وبربروسا وسانن باشا ، وعلى ذلك فانه يجدر التركيز بمزيد من الدراسات على تلك الشخصيات التي ظهرت سواء في الشرق أو الغرب أو في الشمال أو في الجنوب .

وذكر الباحث أيضا أن أهم الأحداث المتعلقة بليبيا في القرن السادس عشر يمكن ابرازها على النحو التالي :

أولا : محاولة ليبيا الاستقلال عن الدولة الحفصية بتونس .

ثانيا : احتلال الأسبان لمدينة طرابلس في عام ١٥١٠ .

ثالثا : تخلى الأسبان عن طرابلس الى فرسان القديس يوحنا في عام ١٥٣٠

وأشار أن أهم الوثائق الخاصة بهذه الفترة تتمثل في كتاب وصف افريقية وتاريخها الذي وضعه الحسن الوزان الذي تعرفه المصادر الأوروبية باسم ليو الافريقى .

وقد تعرض الباحث الى ترجمة موجزة للوزان ذكر فيها أنه من غرناطة أو من المغرب ولعله من مدينة فاس ، كما كان يطيب له أن يلقب نفسه في بعض الأحيان باسم « الفاسى » وقد أسر وهو صغير وتصر أو أجبر على اعتناق

المسيحية وعاش في كنف البابا ليو العاشر وتسمى باسمه ، ومن ثم صار يعرف باسم ليو يوحنا افريكانس .

ومع أنه ابتعد عن بلاده الا أنه زارها مرات كثيرة ، وفيما يبدو أن الحسن الوزان كان يعتز بافريقية ، ففى وصفه لأحوال البلاد التى زارها كان يسجل بعض العبارات التى يظهر منها اهتمامه بهذه المناطق وأسفه لما صارت اليه من سوء كأن يقول « يؤسفنى كافريقى » « أن أتحدث عن بلد بهذا الشأن » . وان كنا نجده فى بعض الأحيان يذكر بعض ألفاظ نائية عن الأفارقة ، ويستدل من كتابات الوزان أنه زار طرابلس فى عام ١٥١٨ وتردد على مختلف مقاطعات الشمال الافريقية خلال الفترة من عام ١٥١٨ الى ١٥٢٦ وعنى بوجه خاص بوصف المدن والشعوب التى شادت هذه المدن كأن يقول « وهذه من بناء البربر أو من بناء الرومان أو من بناء المسلمين » . غير أنه اذا جاء الى تهديم المدن وتخريبها فهو يلوم الأعراب فى ذلك .

ثم أورد الباحث الوثيقة الثانية التى يمكن الاعتماد عليها فى دراسة أحوال ليبيا فى القرن السادس عشر . وهى ما كتبه الرحالة الهولندى مارمول ويقرر أنه يتفق مع الوزان فى وصفه لبعض الأشياء لدرجة توحي أنه قد نقل عنه ، وان كان يختلف عنه فى بعض الأحيان ، وتدل اختلاف الاحصائيات التى أوردها مارمول من حيث عدد السكان أو تقدم التجارة عن مدى الانتعاش الذى شهدته ليبيا بين زمن الوزان وزمن مارمول ، مما يؤكد التطور السريع الذى مرت به البلاد ، خاصة وأن الفترة بينهما لا تتجاوز بضع عشرات من السنين ومن الأوصاف التى أوردها كل من الوزان ومارمول ذكر لنا الباحث بعض النواحي التى تميزت بها ليبيا كشهرة طرابلس بالحرير أو الى غنى بعض أقاليمها بالفاكهة . أو كما ذكر الوزان أن أكثر السكان فى جبل نفوسة ليسو سنيين وأنهم يتبعون شيخ القيروان ، ولما كنا نعرف أن شيخ القيروان كان فى ذلك الوقت سنيا لذلك لم يضبط الوزان وصفه هذا وأكد كل من الوزان ومارمول أن فزان ومصراته كانتا متصلتين بالتجارة مع دول السودان الغربى . وركزا على الطريق الصحراوى التجارى الذى كان يصل شنقيط بمصر . وعن غنى غريان بالزعفران هذا الى جانب تسجيل الرحالتان نواحي كثيرة من حياة الناس ومعيشتهم فى هذه المناطق .

ثم يختتم الباحث دراسته بالإشارة الى بعض الوثائق التى يمكن الرجوع اليها لدراسة هذه الفترة خاصة تقارير البعثات السياسية الى جانب أعمال كل من الوزان ومارمول .

أما الدراسة الثانية فموضوعها « علاقة منظمة فرسان القديس يوحنا بطرابلس » وقد وضع هذه الدراسة الأستاذ فر . أ . فيلا رئيس قسم التاريخ بالجامعة الملكية بمالطة .

وقسم الباحث دراسته الى ثلاثة أقسام تعرض فى القسم الأول الى نشأة المنظمة والمناطق المختلفة التى تنقلت اليها قبل وصولها الى طرابلس وهى الفترة من ١١١٣ — ١٥٣٠ .

وفى القسم الثانى الى تنازل الامبراطور شارل الخامس المنظمة عن كل من مالطة وطرابلس فى عام ١٥٣٠ ، أما القسم الثالث فقد تعرض فيه الى حكم الفرسان لطرابلس فى الفترة من عام ١٥٣٠ حتى انسحابها فى عام ١٥٥١ بوقوع طرابلس فى قبضة الأتراك العثمانيين .

ويذهب فيلا فى دراسته الى أن منظمة القديس يوحنا التى صارت تعرف فيما بعد باسم المنظمة الملكية بمالطة كانت نتيجة من نتائج الحروب الصليبية الأولى وقد أنشئت بمقتضى مرسوم بابوى منحه البابا بسكال الثانى لمؤسسيها جيرار فى عام ١١١٣ ، وكانت فى بداية نشأتها كمنظمة استنارية تستهدف أغراضا انسانية بحتة لعل أبرزها مساعدة فقراء المسيحيين من الحجاج عند مجيئهم الى بيت المقدس ، ثم وكل الى المنظمة بعد ذلك الدفاع عن بيت المقدس حتى عام ١١٨٧ حينما أرغمت على الانسحاب بعد هزيمة الصليبيين الى مارجات . ثم نقلت مركزها الى عكا فى الفترة من ١١٩١ — ١٢٩٢ حيث استمر فرسان المنظمة يظهرون مؤخرة الجيوش الصليبية حتى سقوط المدينة فى أيدي المسلمين ومن ثم تحولوا الى جزيرة رودس فى الفترة من ١٣١٠ — ١٥٢٢ وأخذوا من هناك يمارسون نشاطهم البحرى ضد القوى الاسلامية فى منطقة شرق البحر المتوسط . وقد علل فيلا الظروف التى أدت الى استيلاء المنظمة على طرابلس ، ذلك أنه بعد طرد الفرسان من رودس على أيدي الأتراك العثمانيين أصبحت المنظمة بلا مأوى ، ولذلك أصدر الامبراطور شارل الخامس امبراطور الدولة الرومانية

المقدسة وملك أسبانيا فرمانا فى عام ١٥٣٠ بمنح المنظمة كل من جزيرة مالطة وقوزو وطرابلس ، ومن المعروف أن طرابلس كانت خاضعة لأسبانيا منذ عام ١٥١٠ ولكن شارل الخامس بالنظر الى حروبه المستمرة مع فرانسوا الأول ملك فرنسا وانشغاله بالحروب الايطالية أصدر قراره بالتخلي عن طرابلس حتى يكسب الى جانبه رأى العام المسيحى . ولعله أراد أيضا التفرغ للحروب الايطالية من ناحية ، فضلا عن استفادته بجهود المنظمة من ناحية أخرى .

وقد يكون المهم فى بحث فيلا أنه ينبهنا الى الوثائق الخاصة التى يمكن الرجوع اليها من دراستنا لبعض الموضوعات المتعلقة بالمنظمة وبطرابلس خلال خضوعها للفرسان ، ومن أهم هذه الوثائق التقرير الذى أعده مبعوثو المنظمة الى طرابلس ومالطة قبل استيلاء المنظمة على هذه المناطق ولا يزال هذا التقرير محتفظا به فى الأرشيف الخاص بمنظمة الفرسان فى فالتة .

وفى عرض فيلا لحكم المنظمة لطرابلس فى الفترة من ١٥٣٠ الى ١٥٥١ يعتمد فى الوقائع التى يذكرها على مؤرخ رسمى عاصر المنظمة فى هذه الفترة وسجل مادة متوافرة عن حكمها لطرابلس وهو المؤرخ Jacomo Basmio ، على أننا نختلف مع الباحث فى بعض الجوانب التى حاول أن يبرزها ، من ذلك ما ذكره أن سكان طرابلس « أيدوا المنظمة وحاربوا الى جانب فرسانها بل واستخدمهم الفرسان عيونا لهم وقد فعلوا ذلك خوفاً من تسلط الأتراك العثمانيين عليهم » .

ولكن من المؤكد أن حظ فرسان القديس يوحنا فى طرابلس لم يكن بأحسن من حظ الأسبان فيها اذ اشتدت بمقدمهم غارات الأهالى على المدينة حتى يأس الفرسان من البقاء فيها ، بل أنه من المعروف طبقا لما ذكره بعض المؤرخين الطرابلسيين أن وفدا من أهالى تاجورا ذهب الى دار الخلافة طالبين من السلطان العثمانى فجدتهم وأن السلطان استجاب لهذا النداء وبالفعل أرسلت حملة عثمانية الى طرابلس فطردت الفرسان وسجلت انتصارا على القوى المسيحية فى البحر المتوسط التى كانت تزعمها أسبانيا فى القرن السادس عشر ، وربما يكون فيلا قد استند فيما ذهب اليه الى بعض حوادث فردية أو أنه اعتمد على الجهود التى بذلها الفرسان فى محاولتهم كسب الناس الى جانبهم عن طريق نشاطهم المتزايد فى المجال الاستبارى بصفة خاصة .

ويقرر فيلا أن فرسان القديس يوحنا قد استقروا في طرابلس في بداية الأمر واعتبروا أن طرابلس أهم لهم لخدمة مخططاتهم التي هدفوا بها الى إعادة السيطرة على رودس بل أنهم ترددوا في الاستيلاء على طرابلس ومالطة في آن واحد لأن ذلك يعنى تمزق قواهم على الرغم من أنه لم يكن هناك ما يفصل بين مالطة وطرابلس سوى مائتين وعشرين ميلا ، ولكن ينبغي أن نلاحظ أن هذا الفاصل في ذلك الوقت كان يمنع من ارسال النجدة السريعة في حالة الضرورة .

وعلى أية حال فقد ألقى على كاهل المنظمة في طرابلس مسئوليات كبيرة أهمها حراسة الطريق البحرى بين مالطة وطرابلس ومساعدة الأسطول الأسباني والبندقى والبابوى ضد القوى الاسلامية في الحوض الجنوبي للبحر المتوسط ، هذا فضلا عن المتاعب التي كانوا يتعرضون لها من (القرصان) خير الدين بارباروسا . وقد استخدم فيلا لفظ قرصان وان كان المؤرخين المسلمين لا ينظرون الى أعمال خير الدين على أنها أعمال قرصنة وانما كانت نوعا من أعمال الجهاد في البحر ضد القوى المسيحية في شرق البحر المتوسط .

ومن الثابت أن فرسان القديس يوحنا على الرغم من أنهم كانوا لا يدفعون أية جزية للامبراطور شارل الخامس نتيجة استحواذهم طرابلس وغيرها ولم يتعد الأمر أكثر من الاعتراف بالولاء الا أنهم أحسوا أن طرابلس تكلفهم كثيرا وأخذوا يطالبون الامبراطور بمزيد من المساعدة لهم خاصة في انشاء الاستحكامات في طرابلس نظرا لتفاقم خطر الأتراك من ناحية وتفاقم الخطر الوطنى عليهم من ناحية أخرى . وأعتقد أن فيلا يعترف هذه المرة بما لاقاه الفرسان من متاعب من قبل السكان في طرابلس ، على أن الامبراطور لم يستطع أن يجيب الفرسان الى مطالبهم على الرغم من السفارات التي بعثوا بها اليه بين عامى ١٥٣٩ — ١٥٤٣ وكذلك لم يستجب لهم البابا في السفارة التي بعثوا بها اليه في عام ١٥٤٧ — ولذلك بدأ الفرسان يفكرون في التركيز بقواتهم في طرابلس ، وفي ذلك الوقت برز لافالت كزعيم للمنظمة في جزيرة مالطة وكانت خطته تقوم على اخضاع طرابلس جميعها للفرسان باعتبارها مكانا صالحا للتمركز في وسط البحر المتوسط وبدأ فرسان المنظمة بالفعل يضعون استحكامهم في طرابلس ويحاولون تخليصها من التهديدات التي كانت تتعرض لها من قبل سنان باشا

ولكن سنان القائد البحرى التركى بمساعدة درغوٲ وهو مغامر بحرئ ظهر فى طرابلس استطاعا خلال هذه الفترة هزيمة الفرسان واجبارهم على الانسحاب الى مالطة ، وعبثا حاول لافالت استعادة طرابلس فى الحملة الكبرية التى بعث بها فى عام ١٥٥٩ بمساعدة فيليب الثانى ملك أسبانيا اذ ووجه بهزيمة شنيعة فى جربا فى عام ١٥٦٠ بل وصل الأمر الى حصار الأسطول التركى لجزيرة مالطة فى عام ١٥٦٥ ، بيد أن لافالت أبدى مقاومة باسلة فى تخليص الجزيرة من الأتراك العثمانيين الذين انسحبوا بعد مقتل درغوٲ خلال عمليات الحصار .

ومنذ ذلك العام صمم لافالت على أن يتخذ من مالطة مركزا لقوة الفرسان فى وسط البحر المتوسط وبالفعل قام بتحسين الجزيرة فى عام ١٥٦٥ واعادة بنائها من جديد وفيما بعد أطلق على عاصمتها اسم فالتا تمجيدا للدور الذى قام به فى هذا الصراع .

والدراسة الثالثة هى الدراسة التى قدمت فى تاريخ ليبيا الحديث وهى التى أعدها الأستاذ « عوض السعداوية » عن حالة ليبيا كما ذكرها الحاج أبو سالم العياشى فى رحلته وهى دراسة توضح ما كانت عليه ليبيا فى خلال الحكم العثمانى فى القرن السابع عشر ، ذكر الباحث أن العياشى مر بليبيا مع ركب الحاج فى رحلاته للحج وقد بلغت رحلاته ثلاث ، وبذلك يكون قد مر بليبيا ثلاث مرات وكانت ليبيا تخضع خلالها للوالى العثمانى عثمان باشا الساقلئ خلال مدة ولايته من ١٦٤٩ الى ١٦٧٢ — ويتفق ما أورده العياشى مع من سبقه من الرحالة فى وصفه لطرابلس من حيث تمتع المدينة بالرخاء والأمن وكثرة المساجد والمباني ورواج كثير فى التجارة ، غير أن اشاداته بازدهار طرابلس لم يتعد أسوار المدينة الى الخارج حيث كانت القوضى ضاربة أطنابها وقد اعتمد الباحث فى دراسته على رحلة العياشى وهى تقع ، كما رجعت اليها ، فى مجلدين كبيرين كتبنا بالخط المغربى الذى يحتاج الى متخصص لقراءته ، وقد استطاع الباحث أن يستخلص من وصف العياشى ، حالة المناطق التى مر بها فى ليبيا ، وعن حالة الولاية السياسية والاقتصادية والاجتماعية . فمن الناحية السياسية ، ذكر خضوع ليبيا لسلطة العثمانيين ، ولكنه أكد أن سيطرة العثمانيين كانت لا تتعدى المدن الساحلية الى الداخل ، وكانت طرابلس هى مقر الوالى العثمانى ، وله عامل فى كل من بنغازى ودرنة وبعض المدن الأخرى ذات الأهمية ، وعلى الرغم

من أنه كان هناك نظام للحكم في المدن ، الا أن العياشي لم يذكر هذا النظام بالتفصيل ، أما في الداخل فلم يكن للوالى العثماني أية سلطة فعلية فمثلا : منطقة الجبل الأخضر لم يكن أهلها يخضعون لصاحب طرابلس خضوعا تاما ، وانما كانت القبائل تتنازع السلطة في هذه المنطقة الى جانب اتاوة كان يفرضها صاحب أوجلة عليهم ، كذلك اقليم فزان لم يكن للعثمانيين أدنى سلطان عليه .

ومن وصف العياشي أمكن للباحث أن يستخلص حالة التأخر التي كانت عليها منطقة الجبل الأخضر ، كذلك اقليم برقة والمناطق الداخلية من طرابلس ، اذ كثرت عصابات قطاع الطرق الذين كانوا يستولون على ما يحمله الركبان والقوافل التي تمر بتلك المناطق ، ولم تنعم منطقة الجبل الأخضر بالاستقرار الا خلال فترة قصيرة استطاع فيها أحد الزعماء ويدعى « سيد روحة » من القضاء على قوة الأعراب ، ولكن هذه الفترة كانت بسيطة قصيرة أعقبتها فوضى شاملة حتى أن الحجاج والمسافرين الذين كانوا يمرّون بليبيا كانوا يخشون من تلك المناطق التي تبدأ من قصر أحمد غربا الى الإسكندرية شرقا .

ويؤكد الباحث أن الفوضى لم تقتصر على الداخل بل أن بعض المدن كانت تنتابها الثورات من حين الى آخر ، ويستند في ذلك على ما ذكره العياشي من ثورة درنة ، حينما ثار سكانها ، وكان أكثرهم من المغاربة ، وطرّدوا الأمير العثماني ، وأن ما يذكره العياشي عن تلك الثورة وصعوبة قمعها ، انما يدل على سوء الادارة العثمانية دلالة واضحة .

ويفهم من كتابات العياشي أن الادارة العثمانية كانت تتمتع بشيء كبير من الحرية في ادارتها لشئون البلاد ، ويعزى في ذلك بعد المسافة بين مركز الادارة العثمانية في استنبول ، والادارة العثمانية في طرابلس ، مع صعوبة المواصلات في ذلك الوقت كما تبرز أهمية كتاب العياشي أنه ذكر شيئا عن الجهاد البحري ، وما يجنيه اللييون والحكام من غنائم ، كما أن هذا الجهاد كان يلقى تشجيعا من الحكام ، لأنه كان حركة ضد الفرنجة ، بل أن حكام طرابلس كانوا يستعدون له بالسفن القوية الضخمة .

وهناك بعض المعلومات التي أوردها العياشي ، خاصة بأوضاع ليبيا الاقتصادية ، سواء من ناحية زراعتها ، أو من حيث نشاط سكانها في الصناعة

أو التجارة ، ومن ذلك أن العياشي مدح بعض الأراضي الليبية ، مثل أراضى جبل مسلاته ، والجبل الأخضر ، وذكر بعض الصناعات القائمة كصناعة الزيوت في مسلاته ، وصناعة القرب ، الا أنه ذكر عنها أنها رديئة لا تحفظ الماء نقيا ، أما التجارة فقد أشاد العياشي بازدهارها كما مدح الجمال الطرابلسية ، وإن كان لم يتعرض كثيرا لتجارة القوافل التي كانت تعد موردا هاما بالنسبة لاقتصاديات ليبيا في ذلك الحين ، كما تحدث العياشي أيضا عن نظام الضرائب والمكوس ، وإن كان للأسف لم يتعرض لذلك النظام بالتفصيل .

أما من الناحية الاجتماعية فقد قسم العياشي الشعب الليبي الى طبقتين ، من حيث مستواهما الثقافي . ووضعهما الاجتماعى : الطبقة الأولى من سكان المناطق العمرانية المأهولة بالسكان ، وهى على حظ من الثقافة الدينية والأدبية ، أما الطبقة الثانية ، وهى التى تسكن المناطق الداخلية ، وهى تتميز بالتنازع والتأخر الاجتماعى .

وأخيرا يصل الباحث الى النتيجة التى انتهى اليها من بحثه وهى أن العثمانيين عندما فتحوا ليبيا عام ١٥٥١ لم يسيطروا الا على بعض المناطق الساحلية ، بينما خرجت مناطق كبيرة فى الداخل عن سيادتهم واتخذت لنفسها طابعا خاصا فى حياتها ، وكان هذا الطابع يتميز بالقوضى ، مما أثر على المجتمع الليبى وما احتواه من تأخر ثقافى واجتماعى ، اللهم الا تلك الأعداد القليلة المثقفة التى كانت تعيش فى المدن ، والتى اشتغل بعض أفرادها بالتعليم الدينى والأدبى .

أما الموضوع الرابع من موضوعات تاريخ ليبيا الحديث ، الذى قدم الى المؤتمر ، فكان عن الظروف التى أدت الى احتلال على الجزائرلى لمدينة طرابلس الغرب (١٧٩٣ - ١٧٩٥) للأستاذ عمر بن اسماعيل ، المحاضر بالجامعة الليبية ، الذى تخصص فى دراسة الأسرة القرمانيّة ، وأعد رسالة لدرجة الماجستير عن انهيار هذه الأسرة بليبيا (١٧٩٥ - ١٨٣٥) وقد أوضح فى الدراسة التى أعدها للمؤتمر الظروف التى أدت الى ضياع طرابلس من هذه الأسرة خلال سنتين ، تولى فيها على الجزائرلى الحكم ، ثم عادت الأسرة بعد ذلك الى الحكم من جديد ، حتى سقطت فى أيدي الدولة العثمانية فى عام ١٨٣٥ .

وقد بدأ الباحث بتمهيد مفصل عن وصول مؤسس الأسرة الى الحكم في ليبيا ، ثم التخلخل والصراع الأسرى ، الذى أتاح لعلى الجزائرلى الوصول الى الحكم في ليبيا ، وفرار أعضاء الأسرة القرمانيلى الى تونس ، وقد رحب الديوان الطرابلسى بعللى الجزائرلى ، بعد أن سئم الليبيون حوادث العنف والفوضى .

والموضوع الذى يثيره الباحث أن الباشا الجديد وصل الى الحكم بالخديلة ، اذ أن السلطان العثمانى ، لم يكن يعلم بما حدث فى طرابلس ، وانما استخدم على الجزائرلى فرمانا مزورا للوصول به الى السلطة ، وقد استند الباحث فى ذلك على تقرير عثر عليه فى دار الوثائق التاريخية بطرابلس ، رفعه الصدر الأعظم الى السلطان العثمانى بخصوص أحداث استيلاء الجزائرلى على مدينة طرابلس ، وبدراسة هذه الوثيقة اتضح أن السلطان والصدر الأعظم كانا لا علم لهما بما قام به الجزائرلى ، وأن فرمان الذى أبرزه الى الديوان كان فرمانا مزورا . وبعد أن اتضح للسلطان العثمانى حقيقة الأمر ، لم يقيم بعمل أى شىء ، ولعل مرجع ذلك الى أن السلطان العثمانى كان لايهتم بأسماء الأشخاص الذين يتولون الحكم فى ولايته ، بقدر ما يهمه أن تبقى تلك الولايات خاضعة له حتى ولو كان ذلك من الناحية الشكلية ، ومسايرة لهذا المبدأ أصدر السلطان العثمانى فرمانا اعترف فيه بولاية على الجزائرلى ، كما أصدر أوامره الى والى تونس بالامتناع عن تقديم أية مساعدة عسكرية للقرمانيين الذين التجؤا اليه . ثم اتجه الباحث بعد ذلك الى دراسة الوضع فى طرابلس فى زمن ولاية الجزائرلى ، سواء من حيث الوضع الداخلى ، أو علاقة طرابلس بالدول الغربية ، أو بالأقطار المجاورة لها ، وخاصة تونس ، وفى الناحية الداخلية خيم على البلاد جو من الارهاب الشديد ، لم تعرف له البلاد مثيلا من قبل ، واضمحلت الناحية الاقتصادية ، كما اضطهد اليهود اضطهادا كبيرا كما أن العلاقات لم تسر فى وئام بين طرابلس والدول الأوروبية ، وأخيرا دخل الباشا فى صراع بينه وبين باى تونس ، ويحتمل أن يكون زعماء طرابلس هم الذين دفعوه الى هذا العداء ، بهدف التخلص منه . وكان منشأ الخلاف بين الحاكمين ، مدينة جربة ، اذ حاول الجزائرلى استردادها من باى تونس ، ورد باى تونس على ذلك بفرقة عسكرية قادها أحد أفراد الأسرة القرمانيلى اللاجئة فى تونس ،

وحاصر باى تونس بنفسه مدينة طرابلس ، فى الوقت الذى ووجه فيه الجزائرلى بشورة داخلية ، اضطر على أثرها الى مغادرة طرابلس فى ١٩ يناير سنة ١٧٩٥ ، وباتهاء عهد الجزائرلى عادت من جديد الى حكم الأسرة القرمانلية ، اذ وصل يوسف باشا القرمانلى الى الحكم ، واستطاع أن يسجل لطرابلس عهدا من التقدم والازدهار لم تعرفه البلاد من قبل .

والموضوع الخامس من الدراسات التى قدمت للمؤتمر ، هو ملامح تاريخ ليبيا فى القرن التاسع عشر ، للأستاذ مصطفى بعيو ، وزير التربية التعليم ، بالملكة الليبية ، وقد استهل بحثه بأنه سيجاول اثاره بعض الجوانب البارزة فى تاريخ ليبيا فى (القرن ١٩) وأكد أن الجوانب التى سيثيرها يمكن أن يكون كل منها موضوعا للدراسة والتخصص فى الأقسام التاريخية ، اذ أن تاريخ ليبيا لا يزال يكشف فيه كل يوم شيئا جديدا والموضوع الأول الذى أبرزه هو علاقة يوسف باشا ، أبرز الولاة القرمانليين بالفرنسيين أثناء وجود الحملة الفرنسية فى مصر عند مطلع (القرن ١٩) اذ نجح بونابرت فى توطيد علاقات الصداقة بينه وبين يوسف باشا ، وكانت أولى خطواته فى هذا السبيل هو اطلاق سراح الأسرى الليبيين ، مع غيرهم من أبناء الشمال الأفريقى . الذين وجدهم فى مالطة ، بعد أن تم له الاستيلاء عليها وهو فى طريقه الى مصر ، فكانت هذه الخطوة بادرة طيبة من نابليون نحو يوسف باشا فى ليبيا ، والواقع أن نابليون كان يعمل على تهيئة المناخ الودى الصالح له فى الشرق ، وقد استفاد نابليون من هذه العلاقات الودية التى أوجدها مع والى ليبيا ، فعندما حوصر بجيشه فى مصر ، وانقطعت اتصالاته بفرنسا أمام الحصار الذى ضربه الأسطول الانجليزى على الشواطىء المصرية ، لجأ نابليون الى يوسف باشا ، ووجد فيه عوناً فى أزمته ، اذ سمح له باتخاذ ليبيا ممرا للاتصال بفرنسا ، وبالفعل استطاعت الحملة الفرنسية أن تتلقى بعض المعونات الأساسية من فرنسا ، عن طريق ليبيا وموانئها وقوافلها ، وأثار موقف يوسف باشا استياء كل من الدولة العثمانية والانجليز ، ولقد حاول السلطان العثمانى أن يجبر يوسف باشا على تجهيز قوة للهجوم على مصر من الغرب ، فى الوقت الذى كانت فيه القوات العثمانية تستعد للزحف عليها من الشرق ، وفى الوقت الذى كانت فيه البحرية البريطانية تستعد للهجوم من الشمال والجنوب ، كما طلب نيلسون قائد البحرية الانجليزية من يوسف باشا ، الكف

عن تقديم أية مساعدة للحملة الفرنسية ، واعتقال القنصل الفرنسى والحد من نشاط الجالية الفرنسية فى طرابلس ، وعمل نيلسون على احكام الحصار البحرى على يوسف باشا ، حتى اضطره فى نهاية الأمر الى الاستسلام ، وبالتالي منع تقديم أية مساعدة لرجال الحملة الفرنسية المحاصرين فى مصر ، ويرى الباحث أن الموقف الذى وقفه يوسف باشا القرمائلى فى بداية الأمر ، يفسر فشل الأسطول الانجليزى فى احكام الحصار على الفرنسيين ، وهذا أمر لم يفسره الكثيرون ممن أرخوا لهذه الفترة ، كما يفسر أيضا اضطراب الفرنسيين الى التسليم عندما انقطعت الاتصالات بين فرنسا والحملة عقب الضغط الانجليزى على يوسف باشا ، ولكننا نختلف مع الباحث فى اتخاذ حوادث ثانوية لتفسير أحداث تاريخية كبيرة ، فلا شك أن انسحاب الفرنسيين من مصر أمر مرتبط بعوامل أبعد وأعمق من ذلك .

والموضوع الثانى الذى أثاره الباحث ، هو ربط المقاومة الوطنية التى تعرض لها نابليون فى زحفه من الاسكندرية الى القاهرة ، وبين النجدة التى ذكر أن أهالى ليبيا بعثوا بها الى مصر برئاسة رجل من أهالى درنة ، استطاع أن يثير حماس المشتركين فى المعارك ضد قوات نابليون الزاحفة ، بعد أن اعلن أنه المهدي المنتظر وأنه جاء لتخليص مصر من الغزاة .

والموضوع الثالث الذى تعرض اليه الباحث هو الخلاف الذى كان قائما بين يوسف باشا والولايات المتحدة الأمريكية ، وقد حدث حول عدم الاتفاق على تقدير قيمة الجزية التى تدفعها الولايات المتحدة الأمريكية لحكام ليبيا ، حتى تضمن لنفسها حرية الملاحة فى البحر المتوسط ، ولما تعثرت المفاوضات كانت الحرب بين البحرية الليبية والبحرية الأمريكية ، واستطاع يوسف باشا أن يحرز بعض الانتصارات الأولية ، خصوصا عندما وقعت السفينة الأمريكية الكبيرة فيلادلفيا فى الأسر بطاقمها الكبير . الأمر الذى أغضب الولايات المتحدة وقد اعتمدت على أحد مغامريها وهو الجنرال ايتون Eaton فى استغلال النزاع الذى كان قائما بين يوسف باشا وأخيه أحمد باشا ، الذى لجأ الى مصر ، وبالفعل سار ايتون مع أحمد باشا فى الصحراء الغربية ، على رأس قوة كبيرة ، فى الوقت الذى كانت فيه البحرية الأمريكية تحاصر السواحل الليبية ، واستطاع ايتون أن يصل الى درنة ويرفع العلم الأمريكى عليها ، وكان هذا الحادث حافزا للولايات

المتحدة الأمريكية للاهتمام بتدعيم قوتها البحرية ، وقد سجلت البحرية الأمريكية هذا الحادث في نشيدها الذى لا تزال تتخذه شعارا لها حتى اليوم .. ثم يعود الباحث الى التأكيد بأن انتصار الولايات المتحدة على ليبيا ، هو الذى أغرى الدول الأوروبية على ايقاف النشاط البحرى ، الذى كانت تزاوله بلدان الشمال الأفريقى ، بمقتضى قرارات مؤتمر فينا (١٨١٤ — ١٨١٥) وهو اتجاه آخر من الباحث للتركيز على أهمية الدور الذى كانت تقوم به ليبيا فى منطقة الشمال الأفريقى ، كما أكد على استقلال الشخصية الليبية فى العهد القرمانلى ، مستندا على الاتفاقية التى وقعت بين يوسف باشا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، والتى لم تشترك فيها الدولة العثمانية على الاطلاق ، ومن الجوانب الهامة التى أثارها الباحث ، النفوذ الذى تمتعت به انجلترا لدى يوسف باشا القرمانلى بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر ، وقد قابل ذلك بالنفوذ الذى حظيت به فرنسا لدى محمد على والى مصر ، وان كان النفوذ الذى حظيت به انجلترا لدى الأسرة القرمانلية لم تستخدمه لحماية هذه الأسرة ، اذ لعب وارنجتون ، القنصل الانجليزى فى طرابلس ، دورا كبيرا فى انهاء الحكم القرمانلى ، خاصة عقب استيلاء فرنسا على الجزائر سنة ١٨٣٠ ، اذ قدر الانجليز أن هذا الحادث يمكن أن يخل بتوازن القوى فى البحر المتوسط ، اذا ما استطاعت فرنسا بالتعاون مع محمد على ، الاستيلاء على ليبيا ، ولذلك رأت انجلترا أن تسهل وقوع طرابلس فى أيدي العثمانيين خوفا من وقوعها فى أيدي محمد على ، أو فرنسا ، وأشار الباحث الى الوثائق التى يمكن أن يرجع اليها من يريد ، دراسة مشروعات محمد على فى ليبيا ، فالى جانب أرشيف قصر عابدين بالقاهرة ، توجد مذكرات محمد بك بيت المال ، الوزير الأول ليوسف باشا ، والتى توجد حاليا عند أسرة السيد على الفقيه حسن بطرابلس .

ثم عرض الباحث لمساهمة ليبيا فى حركة الكشف الجغرافية الأفريقية فى القرن التاسع عشر ، تلك الكشف التى كانت تتجه فى ذلك الوقت ، الى غرب القارة لتحقيق مشكلة اتجاه النيجر ، وقد وجد الرحالة والمستكشفون فى عهد يوسف باشا ، التشجيع والحماية الكافية ، واستخدموا من مدن ليبيا وموانئها نقطا للوصول الى الداخل ، بواسطة طرق القوافل التى كانت تربط الساحل بالداخل .

وأخيرا يختتم الباحث دراسته بظهور الحركة السنوسية في أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ويشيد بجهودها في خلق ادارة محلية بزواياها وبنظامها الاخواني ، ساعدت على حفظ الأمن وتوطيد العلاقات بين القبائل وتأمين تجارة القوافل ، وقد استطاعت ليبيا بفضل نشاط الحركة السنوسية أن تكون الدولة الحاضرة بين النفوذ البريطاني ، في وادي النيل ، وبين النفوذ الفرنسي في الشمال الأفريقي ، بعد أن احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ ، وامتدت منها جنوبا الى السودان مع وادي النيل ، وبعد أن فرضت فرنسا حمايتها على تونس سنة ١٨٨١ ، وأخذت تتوغل منها جنوبا الى الصحراء الكبرى ، في اتجاه غربي شرقي بالنسبة للقارة الأفريقية ، وكان لابد لهذين الاتجاهين المتعارضين ، أن يتصادما في النهاية ، وهو ما حدث فعلا في أزمة فاشودة ١٨٩٨ ، التي كان من جرائها اثاره أزمة حادة بين الدولتين وبين هذين الاتجاهين المتصارعين ، ظلت ليبيا محتفظة باستقلالها ، وكانت تمثل آخر بقايا الدولة العثمانية في الشمال الأفريقي ، وقد ساعد هذا الصراع على بقائها بمنجاة من الوقوع في أيدي بريطانيا ، أو فرنسا ، وبالتالي تأجيل مصيرها ، واثاحة الفرصة لاطاليا للاستيلاء عليها فيما بعد .

أما الدراسة السادسة من دراسات التاريخ الحديث التي قدمت الى المؤتمر ، فهي الدراسة التي تقدمت بها بعنوان موقف مصر من الحرب الليبية الايطالية سنة ١٩١١ — ١٩١٤ ، وقد بدأت الدراسة بالتأكيد على الجهود التي بذلتها ايطاليا لايجاد مصالح لها في ليبيا منذ السنوات الأولى من القرن العشرين ، وكانت ليبيا آخر الولايات العثمانية في الشمال الأفريقي ، التي لم تسقط في أيدي الاستعمار الأوروبي الذي أخذ يجتاح ولايات الدولة في السنوات التي أعقبت مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ ، وقد استغلت ايطاليا اهمال الدولة العثمانية لشئون ولايتي برقة وطرابلس ، في التأكيد على مصالحها في هاتين الولايتين ، ولاشك أن الدولة العثمانية كانت مخطئة في تقديرها بأن ايطاليا لن تجرؤ على احتلال ليبيا ، لأن انجلترا لن تسمح لها بذلك ، ولن تترك لها الفرصة التي تمكنها من تحقيق أطماعها ، حتى لا تثير عليها سخط العالم الاسلامي ، وقد كانت هذه الفكرة خاطئة في تقديرنا لسببين :

الأول : أن حركة الجامعة الاسلامية أخذت تتراجع مؤقتا في أعقاب الحركات الدستورية التى أخذت تجتاح العالم الاسلامى ، مع التسليم فى نفس الوقت أن العدوان الايطالى على ليبيا ، كان بعثا جديدا لحركة الجامعة الاسلامية . . والسبب الثانى : ان ايطاليا استطاعت أن تنال موافقه كثير من الدول الأوربية على احتلال ليبيا ، وبينما كان من الأجدى على الدولة العثمانية أن تشجع السنوسيين على حكم البلاد سارت على عكس هذه السياسة ، اذ اتجهت الى التضيق عليهم ، لحوفها من هذه الحركة وما قد تجره عليها من عداء مع الدول الأوربية ، وبخاصة فرنسا ، التى كان السنوسيون مشتبكين معها ، بهدف إيقاف توسعها الأمبريالى فى غرب أفريقيا فى السنوات الأولى من ذلك القرن ، وعلى الرغم من أن الاحتلال الايطالى لليبيا ، حدث فى وقت بلغت فيه الموجة الامبريالية أقصى مدى لها ، فان كثيرا من المؤرخين يحملون الاتحاديين ، مسئولية فقدان ليبيا ، وتفريط الاتحاديين فى كثير من الأراضى العريضة قد يكون موضوعا قابلا للمناقشة ، هل كان ذلك التفريط بقصد التنازل عن مناطق لا يمارس فيها الاتحاديون نفوذا فعليا نظير حصولهم على تأييد الدول الأوربية ، أو اغانتها لهم فى أزماتهم المالية أو فى اصلاح شئون الدولة الادارية والعسكرية ، أم كان ذلك التفريط نتيجة لفساد رجال الدولة أنفسهم واستهتارهم ، خاصة حينما وصلت الى الصدارة العظمى ، وزارة ابراهيم حقى باشا ، اذ يعتقد الكثيرون ، أن حقى باشا كان متواطئا مع الايطاليين ، الذى ربطته بهم روابط عديدة أبرزها صداقته لبعض الشخصيات الايطالية ، ثم زواجه من احدى الايطاليات ، وظهر ذلك واضحا فى اهماله شئون الدفاع عن الولاية ، فى الوقت الذى كان التهديد الايطالى لطرابلس بالغ الشدة ، وفى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩١١ ، وجهت الحكومة الايطالية انذارها الى الدولة العثمانية ، ونجح الأسطول الايطالى فى قطع المواصلات بينها وبين طرابلس ، وقد قدم المندوبان الليبيان فى مجلس المبعوثان طلبا لمحاكمة وزارة حقى باشا ، واتهامها بالخيانة العظمى ، لتركها طرابلس وبنغازى عاجزتين عن الدفاع ، ولكن حال دون هذه المحاكمة انتماء بعض أعضاء الوزارة الى حزب الاتحاد والترقى ، صاحب الأغلبية فى المجلس الذى اكتفى بسحب الثقة من الوزارة ، وحاولت الوزارة الجديدة معالجة الموقف فلجأت الى الدعاية فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى ، والحقيقة أن الدولة

العثمانية لقيت التفافا من الأقطار الاسلامية ، ومن ولاياتها العربية ، حتى الولايات المنشقة عليها .

أما في مصر فقد كان للحرب التركية الايطالية أثر بالغ في السياسة المصرية ، ولذا رأينا تسهيلا للدراسة تقسيم موقف مصر من هذه الحرب الى عدة أقسام :

أولا : موقف سلطات الاحتلال والحكومة المصرية .

ثانيا : موقف الحديو عباس حلمي الثاني .

ثالثا : موقف الشعب المصرى .

كما تعرضنا لأهم المشكلات التى أثّرت فى بداية الحرب ، والتى كان أبرزها مسألة مرور الجيش العثماني في مصر ، اذ حاول الوطنيون استغلال ذلك لتأكيد سيادة الدولة العثمانية على مصر دفعا لتسلط الانجليز .

أما الموقف الذى اتخذه اللورد كتشنر ، المعتمد البريطانى في مصر ، والذى وصل الى منصبه ، في نفس الوقت الذى أعلنت فيه الحرب ، فقد كان يمثل وجهة النظر الانجليزية ، التى كانت ترحب بالاحتلال الايطالى لليبيا ، على اعتبار أنه يساعد في ايجاد دولة عازلة في طرابلس ، تمثلها ايطاليا لتعزل بين الانجليز في مصر ، والفرنسيين في تونس ، كما أن فرض الحماية الفرنسية على مراكش ، استتبعه ترحيب انجلترا بالاحتلال الايطالى لليبيا ، بعد أن أقدمت فرنسا على قلب ميزان القوى في منطقة البحر المتوسط ، ولذلك اعترض الانجليز على مرور القوات العثمانية ، أو اتخاذ الدولة العثمانية مصر قاعدة لمحاربة الايطاليين ، على الرغم من أن مصر كانت تعتبر أصلح قاعدة للعمليات العسكرية ضمن الغزو الايطالى لطرابلس ، ويستدل من الوثائق التى تناولناها ، أن ايطاليا كانت تخشى بحكم حرج مركز الانجليز في العالم الاسلامى من ناحية ، وفي مصر من ناحية أخرى ، أن يسمح الانجليز للقوات العثمانية بالمرور من مصر ، ولكن الدوائر البريطانية نفت ذلك نفيا قاطعا وأبدى السير ادوارد جري ، وزير الخارجية البريطانية رأيه في الموقف بأنه لا يمكن لبريطانيا أن تسمح لبلدة خاضعة لاحتلالها ، أن تكون مسرحا لعمليات عسكرية ، وأعلنت انجلترا وقوف مصر على الحياد من هذه الحرب ، على الرغم من تأجيج الحماس الوطنى في مصر تأييدا للدولة العثمانية ، وقد حاول المصريون رغم ظروف الاحتلال استمالة

الحكومة المصرية ، الوقوف الى جانب الدولة ، مستخدمين في ذلك جميع الوسائل كما حفلت الصحافة الوطنية بالأسانيد القانونية ، كما طالبوا بارسال المدد والذخيرة من مصر الى طرابلس ، ومقاطعة المصالح الايطالية ، وضرورة اجلائهم عن البلاد ، وبينما كانت الحكومة البريطانية تتخذ هذه السياسة على المستوى الدولى ، الا أنها كانت على المستوى الشعبى ، تعمل على تشجيع حركة التبرعات المادية والعينية لنجدة الدولة العثمانية ، لأنها كانت تخشى في حالة تعرضها للشعور العاطفى بشأن دولة الخلافة الى مساس بوضعها ، ليس في مصر فحسب ، وانما في مستعمراتها الاسلامية الأخرى وقد تعرضت أيضا لمدى تأثير الحركة الوطنية بالحرب الطرابلسية ، فالمصريون كانوا يرون في ضياع مصر ، ضياعا لآمالهم في الاستقلال ، وأن دفاعهم عن طرابلس ، هو في نفس الوقت دفاعا عن مصر ، وعلى الرغم من آراء لطفى السيد التى ظهرت في ذلك الوقت في مقالاته المشهورة « سياسة المنافع لا سياسة العواطف » الا أن هذه الآراء لم تجد من اندفاع الوطنيين بل اضطر لطفى السيد نفسه الى الاحتجاب فترة عن الحياة السياسية في مصر ، كما عنيت في هذه الدراسة بالتركيز على أن مساعدة المصريين للدولة العثمانية في الحرب كان تأكيدا للشعور الروحى ومحاولة استغلال الموقف للمصالح الوطنى ، فضلا عن تأكيد علاقات الجوار والأخوة بين مصر وليبيا ، أما عن الحديو عباس حلمى الثانى ، فقد وقف مترددا ، ففى البداية سهل ارسال الاعانات والبعثات الى المجاهدين في ليبيا ، ولكن على أثر تحول الحرب لصالح الايطاليين عقب توقيع معاهدة لوزان ، تغير موقفه تبعا لذلك ، بل ان ايطاليا حاولت استغلاله للواسطة بينها وبين السنوسيين ، وفى تنازله لها عن سكة حديد مريوط ، اذ أنها كانت تخشى من استخدام هذا الخط في تسهيل ارسال الامدادات الى ليبيا ، وأخيرا أنهت هذه الدراسة بأنه على الرغم من جميع الصعوبات والمعوقات التى واجهها الشعب المصرى لنجدة اخوانه الليبيين ، سواء من قبل سلطات الاحتلال أو من موقف الحديو والحكومة المصرية ، الا أن دور الشعب كان واضحا فى التطوع فى صفوف المجاهدين ، وفى تأسيس جمعيات الهلال الأحمر ، وفى دعوة الوطنيين الى القضية الليبية فى المحافل الدولية ، وفى مقاطعة المصالح الايطالية فى مصر ، ونشر المقالات الحماسية فى الصحف ، على أنه بعد اعلان الحرب العالمية الأولى وما تبعها من فرض

الحماية البريطانية على مصر (سنة ١٩١٤) تدخل الحرب الليبية الإيطالية في طور جديد ، اذ أحكمت انجلترا اغلاق الطريق المصرى كما طبقت الأحكام العسكرية واستبدلت المأمورين المصريين على الحدود بضباط انجليز ، كما حدث تحول هام ، اذ حاولت الدولة العثمانية الاعتماد على الليبيين في محاربة الانجليز في مصر ، وهذا الموضوع عنى به السير دنكان كمنج في بحثه عن السنوسية في الحرب العظمى الأولى ، وكانت هذه الدراسة خاتمة للدراسات التى قدمت في تاريخ ليبيا الحديث ، كما كانت ختاماً لجلسات المؤتمر في الوقت نفسه ، والسير دنكان كمنج كان يعمل حاكماً لولاية برقة عند طرد القوات الإيطالية ، واحلال الادارة الانجليزية في تلك الولاية عام ١٩٤٣ ، وقد أشار كمنج بأن الحرب العالمية الأولى كان لها تأثير كبير في مناطق مختلفة من العالم ، فحينما أعلنت الحرب في أغسطس سنة ١٩١٤ ، كان الليبيون في حرب ضد الإيطاليين بقيادة السيد أحمد الشريف السنوسى ، وقد قام هؤلاء بتأييد الحاميات التركية في برقة وطرابلس ، وأبلوا بلاء حسناً ، وأن المقاومة الباسلة التى قام بها السكان العرب في ليبيا أثبتت عدم صحة اعتقاد الإيطاليين بأن احتلالهم لليبيا لن يكون أكثر من نزهة حربية أو مجرد اجراء عسكرى شكلى .

وقد قسم الباحث الفترة من الغزو الإيطالى لليبيا في اكتوبر سنة ١٩١١ الى نشوب الحرب العالمية الأولى ، الى مرحلتين هامتين .

المرحلة الأولى : وتشمل نزول القوات الإيطالية طرابلس .

المرحلة الثانية : حينما وقعت الدولة العثمانية ، معاهدة لوزان بينها وبين إيطاليا حول نهاية عام ١٩١٢ ، وانسحاب الوالى التركى من طرابلس تبعاً لذلك .

وفى خلال المرحلة الأولى كان الليبيون يحاربون الى جانب القوات التركية وكانت الزوايا السنوسية تقوم بدور كبير في سير القتال ، وترتب على هذه المقاومة أن الإيطاليين لم يتمكنوا من التقدم بسهولة ، الى أبعد من الأماكن التى نجحوا فى السيطرة عليها ، وقد استطاع بعض الضباط الأتراك أن يصلوا الى برقة عبر مصر ، من أمثال أنور باشا ، حيث عملوا على تدريب الليبيين وتجهيزهم للقتال ، وقد جذبت المقاومة العربية أنظار المسلمين فى كافة الأقطار الاسلامية ،

بل الى بلاد أخرى خارج نطاق العالم الاسلامى ، ولكن اضطرت الدولة العثمانية ، على الرغم من التأييد المادى والمنعوى الذى حصلت عليه ، الى توقيع الصلح مع ايطاليا نظرا لانشغالها بمشكلاتها المتعددة .

ويعتقد كمنج أن الحرب البلقانية كان السبب الذى جعل الأتراك يوقعون الصلح مع ايطاليا ، وليس فى النجاح الذى حازته العمليات العسكرية الايطالية ، وفيما يبدو أن الطرفين ، ايطاليا وتركيا ، كانا على استعداد لتقديم تنازلات لانهاء حالة العداء بينهما ، فتركيا كانت مستعدة للانسحاب من ليبيا بشرط أن لا تقطع الصلات القائمة بين ليبيا وبين الخلافة الاسلامية ، أما ايطاليا فانها أعلنت سيادتها على ليبيا ، وفى أكتوبر سنة ١٩١٢ ، بعد توقيع معاهدة لوزان أو معاهدة أوشى كما عرفت ، بذلك تبدأ المرحلة الثانية من المقاومة الليبية التى تميزت بانسحاب القوات التركية ، وتمكن الايطاليون من طرابلس ، وحول عام ١٩١٥ أصبحت المعادل الرئيسية فى فزان فى حوزة الايطاليين ، وان كان الوضع قد اختلف بالنسبة لبرقة ، فقبل توقيع معاهدة لوزان بوقت قصير ، كان السيد أحمد الشريف السنوسى ، قد نقل مراكزه من الكفرة الى الجغبوب ، ويعمل السير دنكان كمنج السبب فى ذلك ، الى أنه أراد أن يكون على مقربة من العمليات العسكرية ، فضلا عن أهمية جغبوب بالنسبة للنظام السنوسى ، وأيضا أنه يمكن أن يتم الاتصال بينها وبين مصر ، لأن مصر على الرغم من ظروف الاحتلال الانجليزى ، الا أنها قدمت مساعدات للسنوسيين أكثر من جيران طرابلس الآخرين ، وقبل أن يغادر أنور باشا برقة ليشارك فى الحرب البلقانية ، فى اكتوبر سنة ١٩١٣ ، وصل الى جغبوب كى يحرض السيد أحمد الشريف على مواصلة القتال ، ولكن حينما قابل السيد أحمد الشريف ، لم يجده فى حاجة الى تحريض ، فقد كانت الرسائل من جغبوب تحمل خاتم « الحكومة السنوسية » ، وعندما أوشكت الحرب العالمية على الاندلاع ، كان الايطاليون قد نجحوا فى السيطرة على الموقف نتيجة لتعرض الليبيين لقلة الأمطار ، وتفشى الأوبئة والطاعون ، ومع ذلك فقد استمر تصميمهم قائما ، وفى يولية سنة ١٩١٤ ، قابل الوكيل الايطالى فى القاهرة اللورد كشنر ، وأكد له فى هذه المواجهة أن ايطاليا ستقوم بعملية عسكرية كبيرة ضد السنوسيين اذا فشلت فى الحصول على تفاهم معهم ، وعقب اعلان الحرب أصبحت المشكلة

الهامة بالنسبة لليبيين ، هل ستساق تركيا وايطاليا في هذا الصراع ؟ ولو حدث ذلك فالى أى جانب ينحازون ؟ ولما كان من هدف السنوسيين طرد القوات الايطالية من ليبيا ، فان هذا كان يعنى ارغام الجيش الايطالى على الجلاء عن المناطق الساحلية الحصينة ، التى استقرت بها القوات الايطالية ، وأصبح من الضرورى في نظر الليبيين ضرورة التطلع الى القوة التى ستتحالف مع تركيا ، وبهذه الطريقة يمكن طرد الايطاليين من بلادهم .

ولما كانت هناك مجموعتان من القوى الأوروبية في الفترة السابقة لنشوب الحرب ، وهما دول الوفاق الثلاثى (روسيا — بريطانيا — فرنسا) ودول التحالف الثلاثى (المانيا — النمسا — ايطاليا) ، ولما كانت ايطاليا قد جددت تحالفها مع ألمانيا والنمسا في السنة السابقة لنشوب الحرب ، فقد كان من المعتقد أنها ستتحاز الى دول الوسط ، وعلى هذا الأساس يمكن أن تتعرض ايطاليا للهجوم من مصر وتونس في آن واحد ، وأن تصادر الامدادات المرسلة الى القوات الايطالية في ليبيا بواسطة الأسطولين الانجليزى والفرنسى في البحر المتوسط . أما موقف تركيا فقد كان موقفا غامضا على الرغم من أن الحوادث كانت تشير الى رغبة تركيا أن تحتفظ بحيادها خلال ذلك الصراع الأوروبى ، ولكن ينبغى أن يلاحظ أن موقف ليبيا كان أكثر سوءا في حالة انضمام ايطاليا الى دول الوسط ، اذ أنها ستعد في هذه الحالة من أراضى العدو ، خاصة بعد أن أصدر السلطان فرمان بتعيين السيد أحمد الشريف حاكما على ليبيا ، وفي نوفمبر سنة ١٩١٤ ، أعلنت الحرب بين تركيا وبريطانيا ، ولكن الحرب بين ايطاليا وتركيا ، أو الحرب الجديدة بين تركيا وايطاليا تأخرت حتى أغسطس ١٩١٥ ، وفي الفترة من نوفمبر ١٩١٤ ، الى أغسطس سنة ١٩١٥ ، كانت الحوادث في طرابلس قد شجعت أعمال المقاومة العربية ، فحول نهاية أغسطس ١٩١٤ ، حينما حدث الهجوم الألمانى على فرنسا ، استطاع أتباع السنوسية في فزان تحطيم القواعد الايطالية ، وهذا الحادث يؤرخ بداية عملية المقاومة التى بذلت خلال الحرب ، والتى نتج عنها اضطراب الايطاليين ، خلال عام واحد الى الانسحاب من جميع الأماكن التى احتلوها في فزان وطرابلس أيضا ، وأن كان الايطاليون قد تمكنوا في خلال العام التالى من استرجاع مراكزهم في طرابلس ، والتمركز بقواتهم في كل من بنغازى ودرنة وطبرق ، كما تركزت القوات الايطالية في

المناطق الداخلية كالمرج وبنيّة ، ومع بعض المكاسب التى استطاع السنوسيون احرازها الا أن السيد أحمد الشريف كان مواجهها ببعض المشكلات فى شرق برقة ، حيث كان مقيما بها خلال هذه الفترة ، وكانت خطة تركيا هى توثيق الصلات بين السلطان وأتباعه العرب ، وايجاد حالة من المعارضة ضد بريطانيا ، بين المسلمين عامة ، وليس فقط فى مصر والهند ، وعلى هذا الأساس أعلن السلطان العثماني الجهاد أو الحرب المقدسة ، ولكن اعلان الجهاد لم يكن له أى تأثير فى مصر ، بعد اعلان الحماية البريطانية عليها ، وقطع العلاقات بينها وبين تركيا ، وركز الأتراك على السيد أحمد الشريف باعتباره قادرا على ايجاد حالة موأمة لهم غرب مصر ، فى الوقت الذى كانوا يقومون فيه بالهجوم على قناة السويس من فلسطين وسيناء ، وفى الحقيقة أنه فى خلال هذا الوقت بالذات قدم أنور باشا تعهدات سرية لايطاليا على أساس أن يعمل الأتراك على عقد الصلح بين الايطاليين والسنوسيين ، حتى يتمكن الجيش السنوسى من التفرغ للجهة الغربية ، وكانت الدولة العثمانية تعتقد أن السيد أحمد الشريف ، يمكن أن ينال المساعدة العسكرية من أتباع السنوسية فى مصر وأن يحرض على قيام ثورة ضد الانجليز ، وحول بداية عام ١٩١٥ ، نقل السيد أحمد مراكزه من جغبوب الى مساعد ، التى تقع على مقربة من الحدود المصرية وميناء السلوم الذى كانت تحتله قوات مصرية انجليزية ، وحول ذلك الوقت ، وصل كل من أنور باشا وجعفر العسكرى الى مساعد ، حيث عملا على تنظيم الجيش السنوسى على نمط الجيوش الحديثة ، وقد عرف هذا الجيش باسم المحافظة ، وكان من المنتظر أن تتألف قوة المحافظة من ١٦ فرقة ، وتتكون من خمسة ضباط وأربعمائة جندي و٣٥٠٠ رجل ، وكانت هذه الفرق مشكلة من القبائل الليبية ، ثلاث فرق من العبيدات ، وواحدة من كل من قبائل الحسة - دورسا عواكير ، عرقة ، مينياف ، بارسا . وأربعة من أولاد على فى مصر ، وفرقتان من السودانيين ، وواحدة من الطلاب ، ويعتقد كمنج أن المحافظة كان ينقصها العدد الكافى والامدادات المستمرة ، فلم يكن فى الواقع سوى رجل واحد لكل عشرة أفراد ، ولم يكن لديها سوى تسعة من الأسلحة الثقيلة ، ويرجع السبب فى قلة العتاد ، الى حصار الحلفاء ومصادرتهم وسائل التموين التى حاولت الدولة العثمانية أن تبعث بها الى جيش المحافظة ، وعلى الرغم

من القصور الواضح فان المحافظة كانت كافية لأن تسبب قلقا بالغا للانجليز في مصر ، الذين كانوا يوجهون اهتمامهم الى حملة الدرنيل ، لكن السيد أحمد ، لم يستطيع أن يصل الى قرار نهائى بشأن عبوره الحدود المصرية وانما أبقى على اتصالاته مع كبار الأعيان في مصر ، ومع الضباط الانجليز في الجيش المصرى ، الذى كان يدعوهم الى زيارته بين آونة وأخرى ، وبواسطتهم تمكن من ارسال عدد من الرسائل الودية الى قائد الجيش الانجليزى في مصر ، ورسائل تهنئة الى السلطان حسين كامل ، عقب وصوله الى العرش ، خلفا للخديو عباس حلمى الثانى ، وفى نهاية أكتوبر ١٩١٥ ، كتب أحد الضباط الانجليز ، بعد زيارته (لمساعد) يؤكد أن السيد أحمد ، لا يزال مترددا فى اتخاذ قراره ، على الرغم من أنه كان من الواضح فى ذلك الوقت بأن الحلفاء يحاولون غزو الدردنيل ، وكانت هناك آراء مختلفة حول القيادة السنوسية ، وهذه الآراء تعكس وجهات النظر التركية ، التى كانت ترغب فى أن تستمر فى الحرب ضد الايطاليين والانجليز ، وكان السيد ادريس السنوسى ، فى ذلك العام غائبا عن ليبيا ، ولكنه صمم على أن يذهب الى مصر فى خلال عودته ، وبالفعل وصل الى الاسكندرية من حيفا فى بداية عام ١٩١٦ ، وأصبح فى يقينه أن الغزو السنوسى لمصر لن يصادف نجاحا ، والى جانب ذلك فان السيد ادريس السنوسى ، كان يميل الى وضع نهاية للحرب ، وكان يقدر مدى ما تحمله الشعب الليبى من متاعب بالغة ، ولكن لم يلبث أن حدث توتر على الحدود فى خريف عام ١٩١٥ ، حينما وصلت الحرب العظمى الى ذروتها فى كل من أوروبا والعراق والدردنيل ، ونظر الانجليز الى الموقف نظرة حذرة ، لأنهم كانوا يعلمون أن الخطة التركية تستهدف الهجوم على قناة السويس ، فى الوقت الذى تهاجم فيه حدود مصر الغربية من ناحية ليبيا ، وتأكد ذلك كما يذكر السير كمنج ، عندما حاصرت احدى السفن الفرنسية فى يونيو ١٩١٥ ، سفينة تركية كانت فى طريقها الى برقة ، حاملة معها ضابطين تركيين وخمسة آلاف جنيتها ذهبيا ، وزيا موحدا لجيش المحافظة ، ورسالة من السلطان الى السيد أحمد الشريف ، يؤكد له فيها تعيينه واليا على ليبيا مع تعليمات خاصة تقضى بتشجيعه على مهاجمة جيوش الحلفاء .

وفي نهاية يونية سنة ١٩١٥ ، حدث هجوم من المحافظة على السلوم ، ويؤكد كمنج أن هذا الهجوم حدث دون أمر من السيد الشريف السنوسي ، بل أنه عاقب المسؤولين عن وقوعه ، ولم تلبث بعد ذلك أن حدثت أحداث أخرى من سوء التفاهم ، حينما أطلق السنوسيون النيران على سفينة بريطانية ، وأخذ من بها أسرى الى بير حكم ، وقد بعث القائد البريطاني في مصر برسالة احتجاج الى السيد أحمد على هذا العمل ، وقد أجابه بأن الهجوم على السلوم لم يحدث بموافقته ، وفي نوفمبر سنة ١٩١٥ ، حدث هجوم المحافظة على السلوم بتحريض من أنور باشا ، وانسحبت القوات البريطانية الى مرسى مطروح ، ولكنها تمكنت من مهاجمة المحافظة في العقاقير جنوب سيدى برانى ، وتمكنت من القبض على جعفر باشا العسكرى ، وفرت الجيش السنوسي ، وأعادت احتلال السلوم في مارس سنة ١٩١٦ ، حيث انسحب السيد أحمد الى سيوة ، ثم استقر به المطاف أخيرا الى تركيا حيث بقى هناك حتى وفاته ، وكان السيد أحمد قد تنازل عن جميع سلطاته العسكرية والسياسية ومسئوليته الى ابن عمه السيد محمد ادريس السنوسي ، الذى بدأ قيادته الطويلة في عام ١٩١٦ ، وكان السيد ادريس ، يرغب في السلم ولكن نوري باشا ، والقيادة التركية كانت لا تزال ترغب في الحرب ، الى جانب الذين بقوا من جيش المحافظة ، وكان هؤلاء يعارضون بطبيعتهم السيد ادريس ، بل انهم ذهبوا الى طرابلس لكي يتصلوا بالقادة الطرابلسيين في مصراته .

أما في طرابلس فقد كانت الأحداث تسير بوضع مخالف لما كانت تسير عليه في برقة ، اذ وصل أنور باشا الى مصراته بعد هزيمة الأتراك في برقة ، وفي عام ١٩١٧ ، دعى الطرابلسيون الادريس ، لكي يتسلم قيادة الأمور في طرابلس أيضا ، والمهم أن الادريسى ايمانا منه بضرورة اقرار الوضع في ليبيا ، وربما تقديرا منه للموقف ، بدأ مفاوضاته في الزويتينه جنوب بنغازى مع الانجليز والايطاليين ، وقد صاحب بعثة التفاوض الانجليزية بعض الأعيان المصريين ، الذين كان يعرفهم الادريس معرفة شخصية ، ولكن هذه المفاوضات تعثرت ، فأعيدت في عكرمة على مقربة من طبرق في العام التالى ، حيث تم تبادل الأسرى السنوسيين والايطاليين واتفاقية عكرمة لها جزئين : الأول ، للتطبيق السريع ، والجزء الثانى لمفاوضات مقبلة مع السلطات الايطالية ، ويختلف الادريس عن

obeikandi.com

نقد الكتب

السيد أحمد الشريف ، فى أنه عقد المعاهدة كمفاوض عن ليبيا ، وليس عن السلطان العثمانى ، وفيما يبدو أن الايطاليين كانوا متأثرين بمبادئ ولسن الأربع عشرة . . فاعترفوا باستقلال ليبيا ، مع ابقاء مصالحهم الاقتصادية بها ، وأخيرا أنهى السير دنكان كمنج دراسته بمقارنة الدور الذى لعبته السنوسية فى الحرب الأولى بدورها فى الحرب العالمية الثانية ، وأبدى تقديره لصلاية الشعب الليبي وتماسكه ، نتيجة للقرارات التوحيدية التى أصدرها السيد ادريس السنوسى خلال الحرب العالمية الأولى ، ثم قراره الأخير بتوحيد المملكة الليبية .

Oman, A History

By

Wendell Philips

London, 1968

اسم الكتاب :

اسم المؤلف :

لعل وندل فيليبس يضيف في كتابه هذا اضافة جديدة للمصادر التي تعرضت لداخلية عمان ، وهو يشابه في ذلك جيمس موريس في كتابه الذي أصدره قبل ذلك بسنوات بعنوان « سلطان في عمان » . ولكن وندل فيليبس يدين برأى آخر وهو الأخذ بوجهة نظر السلطنة بالنسبة لسيطرتها على عمان الداخلية .

والمؤلف بحكم وظيفته مستشارا اقتصاديا لسلطان مسقط وبحكم جنسيته أيضا يتخذ هذا الرأي ويديه في فصلين هامين من كتابه وهما الفصل السابع الذي يعرض فيه الى مشكلة البوريمي والفصل الثامن الذي يتعرض فيه الى ثورة الجبل الأخضر .

وفي كلا الفصلين يؤكد سيطرة السلطنة على البوريمي وداخلية عمان ويتخذ موقفا معارضا للسعودية في تأييدها لثورة الامامة وفي ادعاءاتها على واحات البوريمي داخضا بذلك جميع ما قدمته السعودية من أوله ومفندا ما قدمته شركة الزيت العربية الأمريكية من تأكيدات لصالح السعودية وذلك في الأبحاث التي نشرتها خاصة بذلك .

والكتاب على الرغم من أننا لا نستطيع أن نسلم بوجهة نظر مؤلفه التي يظهر فيها اتخاذ جانبا واحدا فضلا عما يتعمده من تضخيم شأن حادثة أو التهوين من شأن أخرى مما يجعل كتاباته تحتاج الى تحقيق في وقائعها المختلفة الا أن الكتاب مع ذلك يعد في تقديرنا الخاص واحداً من الدراسات الهامة عن تاريخ عمان اعتمد فيه على عدد كبير من المصادر الأولى ويزيد من أهمية ذلك رحلاته الكثيرة الى عمان الداخلية التي أفرد لها مؤلفا خاصا نشره في عام ١٩٦٧ بعنوان

Unknown Oman

وينقسم الكتاب الى تسعة فصول ، شملت الفصول السبع الأولى مسحاً عاماً لتاريخ عمان وعلاقته بشرق افريقية . فقد عالج في الفصل الأول تاريخ عمان القديم قبل ظهور الاسلام ثم عمان في العهد الاسلامي ، وهذا الفصل قد يهم بصفة خاصة المهتمين بالتاريخ الاسلامي بالنسبة لأحد أقاليم الجزيرة العربية . وقد ركز في هذا الفصل على تزعم عمان حركة المعارضة ضد الدولتين الأموية والعباسية وظهور هذه المعارضة في شكل حركتين سياسيتين دينيتين لقيتا انتشاراً كبيراً في عمان وهما الحركة الإباضية التي قدر لها أن تلعب دوراً هاماً في تاريخ عمان القديم والحديث وحركة القرامطة التي امتدت من البحرين الى عمان وان كانت لم تصب قدراً من النجاح مثلما أصابته الحركة الأولى . وفي هذا الفصل يركز المؤلف أيضاً على اقليم ظفار ويبدو من تأكيده على تاريخ الاقليم في أكثر من فصل من فصول الكتاب أنه جزء لا يتجزأ من عمان . ولعله يتعمد ذلك مناهضة للدعوة التي ظهرت في الأونة الأخيرة بشأن ضم ظفار الى جمهورية جنوب اليمن المستقلة حديثاً .

أما الفصل الثاني فقد عالج فيه المؤلف الامبراطورية العمانية في شرق افريقيا وقد عنى بصفة خاصة بتتبع مراحل انشائها مشيراً بصدد ذلك الى الهجرات العربية على الساحل الشرقي لافريقيا ومعتمداً على كتابات المصنفين العرب التي يفهم منها مدى ما كان عليه العرب من تفوق ملاحى وتجارى في المحيط الهندي ، وان كان غزو البرتغال في نهاية القرن الخامس عشر قد أطاح بهذا التفوق . وقد استمر البرتغاليون القوة المسيطرة في الخليج وشرق افريقيا حتى بداية القرن السابع عشر حينما بدأوا يتعرضون لتحديات قوية من قبل الهولنديين والانجليز بالاضافة الى أن قوتهم الذاتية تعرضت للاضمحلال وأصبح المجال ميسراً للامام ناصر بن مرشد الذي أسس الأسرة اليعروبية لطرد البرتغاليين من عمان ، ثم يكمل خليفته سلطان بن سيف الدور الذي قام به في التخلص من بقايا السيطرة البرتغالية في الخليج وشرق افريقية .

ثم ينتقل المؤلف في الفصول التالية الى تأسيس أسرة البوسعيد وهي الأسرة التي خلفت أسرة اليعاربة في الحكم عارضا بصفة خاصة لأقوى حكامها سعيد بن سلطان أو ما أسماه سعيد الكبير اذ أفرد له فصلاً خاصاً معتمداً فيه على مؤرخي سيرته من العرب والسواحليين والأوربيين ويتفق مع هؤلاء في أنه كان واحداً

من أهم الشخصيات التي أنجبتها الجزيرة العربية منذ عهد النبي . ويؤكد بصفة خاصة على الدور المجيد الذي قام به بشأن التشريعات التي أصدرها للحد من تجارة الرقيق في الممتلكات التابعة له ، وإن كنا نجد تحاملا واضحا من المؤلف على القسوة والعنف التي أدان بها التجار العرب بالنسبة لمعاملتهم لارقائهم اذ رسم صورة كئيبة لوسائل تعذيبهم ولأسواق الرقيق التي كانت منتشرة في كل من مسقط وزنجبار . ولذلك فقد أثنى على السيد سعيد تعاونه مع الانجليز للحد من تجارة الرقيق على الرغم من أنه كان يعد أكبر تاجر رقيق في عصره ، وقد استمرت التجارة قائمة في الشرق الافريقي حتى أوائل القرن الحالي وإن كان ذلك على نطاق محدود وغير رسمي .

ولم يكن ما تميز به سعيد بن سلطان من السجايا الانسانية قاصرا على الحد من هذه التجارة البشعة وإنما تميز الرجل بسماحته واستنارته ، وكان ذلك عوناً لدفع عمليات التبشير والارتياح الأوربي اذ تحققت في عهده عدة اكتشافات جغرافية هامة كاكشاف الأوربيين لجمال كينيا وكليمنجارو والبحيرات الاستوائية ، كما اشتهر في عهده المبشر لوديج كرايف الذي يقترن اسمه بترجمة الانجيل الى اللغة لسواحلية .

ويمضي الكتاب بتتبع تاريخ عمان بعد انفصاله عن زنجبار حتى يركز على الحديث الهامين اللتين شهدتهما عمان في الآونة الأخيرة وهما المشكلة الخاصة بالبورمي ثم انفجار ثورة الامامة الأباضية في عمان الداخلية .

وكما سبق أن ألمحنا في بداية عرضنا للكتاب أن المؤلف يأخذ وجهة نظر السلطنة من ذلك تأكيداً أن اتفاقية السيب المؤرخة في عام ١٩٢٠ والتي ارتكزت عليها الامامة في مرحلتها الأخيرة كانت اتفاقية بين حكومة السلطان تيمور وبين ثمانية عشر من الشيوخ الثائرين في الداخل ، ولا تعني اطلاقاً أنها تربط خلفاء السلطان تيمور بها وهذا الرأي سبق لنا أن ناقضناه في بعض دراساتنا .

أما البورمي فيؤكد المؤلف خضوعها لعمان استناداً على الأصول التاريخية التي تربط الاقليم بعمان . ويبدو من كتاباته اعتماده في جانب كبير على تنفيذ عرض الحكومة السعودية للتحكيم في تسوية النزاع الاقليمي بين مسقط وأبو ظبي وبين المملكة العربية السعودية وهي مجلدات ثلاث قدمتها الحكومة

السعودية في عام ١٩٥٥ لمحكمة العدل الدولية عند مناقشة المشكلة في ذلك العام ، وأخذته بوجهة نظر المذكرة البريطانية المقدمة من قبل الحكومة البريطانية معارضة للادعاءات السعودية .

ويؤكد وندل فيلبس بصدد ذلك على تبعية البوريمي لعمان منذ العصور الاسلامية وعن استقرار قبيلة النعيم التي هاجرت من اليمن الى البوريمي في النصف الأول من القرن السادس عشر وعن ارتباط البوريمي بعمان خلافا لبعض الفترات التي تعرضت فيها الواحة للمناوشات السعودية عقب انتشار الدعوة الوهابية بين سكانها خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر الى أن خضعت الواحة لحكومة مسقط في عهد امامة عزان بن قيس ١٨٦٨ / ١٨٧١ . ولم يلعب السعوديين دورا يذكر في تاريخ الواحة من ١٨٦٩ حتى ١٩٥٢ باستثناء بعض الفترات التي قام بها عبد الله بن جلوى الحاكم السعودي في الاحساء بارسال عملائه لجباية الزكاة .

ويذهب المؤلف في رأيه أن تضخم مشكلة البوريمي ترجع الى تصادم المصالح الاقتصادية فضلا عن أن المشكلة ظهرت في وقت ما في صورة صراع بين القومية العربية وبين الامبريالية خاصة وأن اذاعة القاهرة لعبت دورا بارزا خلال هذه الأزمة .

أما دراسة فيليبس لثورة الجبل الأخضر ، فاعتقادنا الشخصي بصرف النظر عن نوازع المؤلف أو آراءه فيما يختص بهذه الثورة ، انها تضيف اضافة جديدة للمتبعين لتاريخ الامامة خاصة وأن اهتم اهتماما كبيرا بتفصيل الصراعات الداخلية بين الهناوية والنافرية وبعض رؤساء المقاطعات العمانية كسليمان بن حمير وصالح بن علي ... هؤلاء الذين كانوا — كما يقول المؤلف — يأملون في استغلال الموقف لتحقيق ملك مستقل عن الامامة والسلطنة معا .

وقد ذيل المؤلف كتابه ببعض الملاحق أهمها قيام الثورة في زنجبار في ديسمبر سنة ١٩٦٣ التي أدت الى انهيار وضع سلطنة زنجبار وقيام الجمهورية ، ولعله

obeikandi.com

تعرض لهذه الثورة باعتبارها انهياراً لأحد فرعى أسرة البوسعيد على الرغم من تسليمه بأن الصلة قد انقطعت بين الفرعين تماماً منذ تحكيم كانتج عام ١٨٦٦ .

كما وضع المؤلف دراسة للرساليات التبشيرية في شرق افريقية والجزيرة العربية وقد ركز بصفة خاصة على الدور الذي قام به المبشر الأمريكى صمويل زويمر Zwemer في عمان وبعض امارات الخليج العربى . وقد عنى بصدد ذلك بتحليل أسباب نجاح عمليات التبشير في شرق افريقية وأسباب فشلها في الجزيرة العربية باعتبارها كانت — ولا تزال — مهد للإسلام .

د . جمال زكريا فاسم

G. G. Lorimer

The Gazetteer of the Persian Gulf,
Oman & Central Arabia

Calcutta, 1915

الترجمة العربية بعنوان :

دليل الخليج

ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر

الدوحة ١٩٦٧/١٩٦٨

أخرج المكتب الثقافي بديوان حاكم قطر الترجمة العربية للقسم التاريخي من كتاب لوريمار ، وقد صدرت الترجمة العربية بعنوان دليل الخليج تحاشيا من النص على عنوان الكتاب الكامل الذي يعرف بدليل الخليج (الفارسي) عمان وأواسط الجزيرة العربية .

وبمناسبة صدور هذه الترجمة رأينا أن نعرض لهذا المصدر الهام من مصادر الخليج والتعريف به وبالموضوعات التي تناولها . والجدير بالذكر أن الترجمة العربية لم تراع الشكل العام للكتاب اذ جاءت في سبعة مجلدات في حين أن الأصل الانجليزي يتكون من مجلدين كبيرين الحجم يحتويان على ما يقرب من ٢٧٠٠ صفحة والهدف واضح من اخراج الكتاب في عدة مجلدات وهو سهولة تداول أجزائه المختلفة والملاحظ أيضا أن الترجمة العربية اقتصرت على اخراج القسم التاريخي للدليل اذ أن هناك الى جانب القسم التاريخي قسما جغرافيا يعرض للنواحي الجغرافية ويظهر في شكل معجم جغرافي للمنطقة التي تعرض لها الدليل بالوصف والدراسة .

وأملنا بعرضنا للقسم التاريخي لدليل الخليج التنويه بالاختيار الموفق لترجمة هذا المصدر وبالتالي بالجهد الذي بذله المترجمون لاجراجه بالصورة التي وصلت اليها . ولسنا هنا في معرض ابداء الملاحظات على الترجمة العربية للكتاب ولكن من الانصاف أن نذكر أنها تبدو في اطارها العام وبانطباعنا عنها ترجمة علمية وان كان يلزم اعادة تحقيق بعض الأسماء والمواقع والرجوع بها الى أصولها

الصحيحة ، ونرجو أن تتوفر في مناسبة أخرى على مطابقة الترجمة العربية على الأصل الانجليزى للكتاب بشئ من التفصيل .

وقد صدرت الترجمة العربية حديثا (١٩٦٧/١٩٦٨) وطبعت على نفقة الشيخ أحمد بن على آل ثانى حاكم قطر . وقد حرص المترجمون في صدر كل مجلد من المجلدات التى تم نشرها على التأكيد بأن ما ورد ذكره في الكتاب لا يلزم حكومة قطر بشئ وانما هو تعبير عن آراء المؤلف الشخصية ، وان ما دفع الى ترجمة الدليل تقديمه هدية من حاكم قطر الى الباحثين في تاريخ الخليج العربى .

وليس هناك خلاف فى أن الدليل يعد أهم مرجع لتاريخ الخليج العربى والجزيرة العربية خاصة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ويستمد هذا المصدر الهام صفة الرسمية أنه وضع بتكليف من حكومة الهند وكانت منطقة الخليج تتبع هذه الحكومة فى كل شأن من شئونها . أما الدافع لوضع هذا الدليل هو توزيعه على الادارات المختلفة والموظفين الرسميين العاملين فى حكومة الهند للتعرف على ما يهمهم من مناطق الخليج من زواياها السياسية والجغرافية والقبلية ، بمعنى أن الكتاب حين أصدرته حكومة الهند فى كلكتا بين عامى ١٩٠٨ و ١٩١٥ لم يكن للتداول العام ولذلك لم يطبع فى ذلك الوقت الا بأعداد قليلة ولم تتجاوز نسخه المائة . وبقي الدليل يعتبر فى حكم الوثائق لم يتجرد من سرية الا فى السنوات الأخيرة حينما أذنت الحكومة البريطانية بنشره بعد أن انقضت المدة القانونية التى تفرضا الحكومة البريطانية فيه على وثائقها الخاصة .

وعلى الرغم من أن دليل الخليج ينسب تأليفه الى ج . ج لوريماى أحد المسؤولين فى حكومة الهند ، الا أن هذه الموسوعة الضخمة لا يمكن أن تكون من اعداد فرد واحد والذى لا شك فيه أن فريقا من الباحثين والسياسيين والعسكريين عاونوا لوريماى فى تجميع المعلومات الخاصة بالدليل وقد أشار اليهم بالفعل كما سنرى . والأحرى أن تكون الصياغة النهائية من وضع لوريماى لما نلاحظه من تجانس الأسلوب والارتباط بين الموضوعات المختلفة .

ويعزى اصدار هذا الدليل الى اللورد كيرزون نائب الملكة فى الهند الذى أصدر أوامره فى عام ١٩٠٣ بجمع المواد الخاصة بوضع دليل جغرافى تاريخى للخليج وعمان وأواسط الجزيرة العربية . ويحتمل أن يكون كيرزون قد أصدر

أوامره هذه بعد زيارته المشهورة التي جاب فيها سواحل الخليج في ذلك العام . وكان لوريغار مصاحبه في تلك الزيارة . والهدف من اعداد الدليل تجميع معلومات يمكن أن يستفيد بها المسؤولون في وقت اشتدت فيه أهمية الخليج السياسية والعسكرية وتعرضت بريطانيا لخطر التنافس من قبل الدولة العثمانية وفرنسا وروسيا والمانيا .

وفي العام التالي ١٩٠٤/١٩٠٥ قام لوريغار بجولة خاصة في سواحل الخليج رافقه فيها بعض الموظفين والضباط في حكومة الهند من أمثال المسترج . س جاسكين Jaskin والليفتنانت C. H. Gabriel من أجل جمع المعلومات الخاصة . وقد زار لوريغار كل من مسقط وصحار والشارقة والبحرين والكويت وبغداد وكربلاء ثم عرج على السواحل الفارسية في المحمرة وبوشهر وبندر عباس وجاسكه وفي نفس الوقت قامت بعثة من حكومة الهند برئاسة السير جانج بعمليات مسح جغرافي في بعض مناطق الخليج نجحت بعدها في وضع خرائط تفصيلية لجزر البحرين ولامارة الكويت وما جاورها وشبه جزيرة بوشهر واقليم عمان . كما استعين في وضع الدليل بالجهود السابقة التي بذلت سواء بهدف اعداد الدليل بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من ذلك رحلة السير برس كوكس المعروفة الى اقليم عمان التي قام بها في عام ١٩٠١ وتمكن من أن يتحصل على معلومات خاصة باقليم الظاهرة وعمان الداخلية وكذلك جولته في ساحل الخليج من مسقط الى أبو ظبي ^(١) . كذلك رحلات الكابتن نوks Knox الذي كان يعمل وكيلا سياسيا في الكويت في بداية القرن العشرين .

وينبغي أن نؤكد هنا أن المعلومات أو الاستكشافات التي قام بها الانجليز في المناطق المجهولة في شرق الجزيرة العربية لم تكن استكشافات جديدة وانما الثابت أن معظم ما تحصل عليه هؤلاء كان يتم عن طريق الوطنيين من أصحاب البلاد .

وكما أشرنا أن الترجمة العربية صدرت في سبعة مجلدات في حين أن الأصل الانجليزي يتكون من جزئين احدهما جغرافي والآخر تاريخي . ويتضمن القسم التاريخي الأبواب التالية .

Cf. Cox (Perly)

(١)

Overland Journey from the Persian gulf to Muscat, Geog. Journal

October, 1902 Vol. XX No. 4

Some excursions in Oman, Geog Journal Vol. LXIV No. 3 Sept., 1915

التاريخ العام لمنطقة الخليج — تاريخ سلطنة عمان — تاريخ ساحل عمان —
تاريخ قطر — تاريخ البحرين — تاريخ الحسا — تاريخ الكويت — تاريخ شبه
وأواسط الجزيرة — تاريخ العراق التركي — تاريخ الساحل الايراني وجزره —
تاريخ مكران .

ثم يعرض الكتاب بعد ذلك عدة ملاحق خاصة بكل ما يتعلق بمنطقة الخليج
من نواحيها المناخية والجيولوجية والملاحية الى جانب الديانات والطوائف المختلفة
والارسلالات التبشيرية وتجارة الأسلحة والرقيق ومراكز البرق والبريد الى جانب
ايرادة الأنساب الخاصة بكثير من الأسر التي ظهرت الى السلطة كاليعاربة
والبوسعيد في عمان وزنجبار والقواسم في الشارقة والأسر الحاكمة في كل من
أبو ظبي والدبي وأم القوين وعجمان ولنجة وقطر والبحرين والكويت وآل سعود
وآل رشيد وآل أبي الخير وقبيلة سبيع والقادرية في البصرة هذا الى جانب
الخرائط المختلفة التي تخدم الناحيتين الجغرافية والتاريخية .

ولم تختلف الترجمة العربية عن هذا التقسيم الا في توزيعها الموضوعات المشار
اليها على المجلدات السبع التي صدرت بها وقد وردت بالشكل التالي :

المجلد الأول ويتطابق الباب الأول من النص الانجليزي ويتناول التاريخ العام
لمنطقة الخليج منذ وصول البرتغاليين الى مياهاه في بداية القرن السادس عشر
حتى بداية القرن العشرين وتشمل هذه الفترة التنافس الاستعماري الأول
في منطقة الخليج ١٥٠٠/١٨١٠ الذي اشتركت فيه عدة دول أوربية كالبرتغال —
هولندا — انجلترا — فرنسا وانتهت بتأكيد السيطرة البريطانية . وقد غنى هذا
المجلد بصفة خاصة بالمصالح البريطانية وتطورها في المنطقة منذ تأسيس شركة
الهند الشرقية البريطانية ١٦٠٠ وعلاقتها بايران ثم اصطدامها بالمصالح الفرنسية
والروسية الى جانب التنازع العثماني الانجليزي في الفترة من ١٨٧١ الى ١٩٠٥
في كل من العراق والخليج واصطدام بريطانيا بالسياسة الألمانية التي كانت تهدف
الى تحقيق مصالح خاصة بها من وراء خط سكة حديد بغداد . وقد استطاعت
بريطانيا أن تقضى على هذه المنافسات وتأكيد نفوذها مرتكزة على الجهد الذي
بذلته في عمليات المسح والحراسة وفرض الأمن على سواحل الخليج وعقد
المعاهدات مع اماراته المختلفة .

أما المجلد الثاني ويطابق الباب الثاني والثالث من النص الانجليزي فيختص بتاريخ سلطنة عمان ابتداء من حكم العثمانيين ١٥٦٦ وعلاقة سلطنة عمان بكل من الدولة العثمانية وفارس والهند وأواسط الجزيرة العربية ويعرض بصدد ذلك الى ظهور الحركة الوهابية وانتشارها في أقاليم عمان في الظاهرة والبوريمي ومن المفيد عرض لوريمار الفريد لتاريخ اقليم ظفار بشكل لا نجده متوافرا في أى مصدر آخر الى جانب عرضه لمعاهدات بريطانيا مع قبائل وزعماء الساحل العماني.

والمجلد الثالث ، ويطابق الباب الرابع والخامس والسادس والسابع يشمل تاريخ قطر والبحرين ووسط الجزيرة والكويت والحسا .

أما المجلد الرابع ويطابق الباب الثامن ، فيتعرض فيه للعراق الذي أسماه بالعراق التركي ويشمل جانبا عاما من تاريخ الولاية العثمانية في بغداد والبصرة وعلاقتهم بالنفوذ الانجليزي والفرنسي والروسي الى جانب علاقة العراق بجيرانه في ايران ونجد والكويت .

وأخيرا البلد الخامس ويطابق الباب العاشر والحادي عشر فيتناول فيه تاريخ الساحل الايراني والجزر الفارسية وسواحل مكران .

وتبرز أهمية دليل الخليج من اعتماده واضعيه على عدد كبير من المصادر العلمية والرسومية من ذلك التقارير والمراسلات التي كانت تتلقاها شركة الهند من موظفيها في الوكالات التابعة لها في بندر عباس وبوشهر والبصرة وما يعرض من أحداث في المناطق الموجودة بها تلك الوكالات . وقد جمعت مختارات من هذه التقارير في مجلد أصدرته حكومة بومباي في عام ١٨٥٦ وصدر بعنوان

Selection from the Records of the Bombay government Vol. XXIV

وتناول هذا المجلد تقارير عن السياسة البريطانية وقبائل الخليج من العتوب والقواسم وغيرهم كتبها المقيمون السياسيون في الخليج حتى عام ١٨٥٣ .

كما يظهر اعتماد الدليل على جانب كبير من مختارات المسترج . سالد انها من أوراق الدولة في بومباي عن شركة الهند الشرقية وعلاقتها بالخليج وهي تتناول أحداث الخليج في الفترة من ١٦٠٠ الى ١٨٠٠ :

Selections from state papers, Bombay, regarding the East Indio Company's connexions with the Percian Gulf. 1600 — 1800

الى جانب الاعتماد على تقارير السفارات والبعثات السياسية المختلفة ،
بالاضافة الى المصادر العلمية الاولى وأبرزها كتاب لو Low عن تاريخ البحرية
الهندية ومجموعة معاهدات أيتشيسون Aitchison ، وكتابات الرحالة الاوربيين
سواء كانوا من موظفى شركة الهند الشرقية أو من غيرهم من أمثال الرحالة
الدانيماركى كارشتن ينبور الذى يعتبر أول من فتح الجزيرة العربية للارتداد
الأوربى وتعتبر رحلاته خير مرجع عن الجزيرة العربية والخليج العربى فى النصف
الأول من القرن الثامن عشر .

وكذلك رحلة القرن التاسع عشر من أمثال بكنجهام Buckingham وولستر
Wellested وبالجراف Palgrave وغيرهم كثيرون . ومن الواضح أيضا استعانة
لوريان عند وضع هذا المؤلف الضخم بكافة التقارير والمعلومات السرية التى
وضعتها حكومة الهند تحت تصرفه . كما أنه أعين بعدد لا بأس به من الخبراء
لإنجاز هذا العمل التاريخى الجغرافى الضخم وان كان ما يؤخذ على لوريان رغم
تقريره الحقائق فى أحيان كثيرة أن النزعة البريطانية الاستعمارية كانت تغلب عليه
شأنه فى ذلك شأن غيره من الانجليز الذين تعرضوا لدراسة تاريخ الخليج فى القرن
التاسع عشر ، من ذلك تصويره بنى جلدته الانجليز أنهم حاملوا أمن وسلام
وتصويره القبائل العربية التى تصدت لمقاومة الانجليز قراصنة كذلك تصويره لأى
حركة من حركات الوحدة فى الخليج على أنها اعتداء من قبل الدولة التى تقوم بها
كما حدث بالنسبة لمصر والسعودية .

على أنه كان منصفا الى حد كبير فى تصويره ظواهر العداء للسياسة البريطانية
فى منطقة الخليج فى أنها كانت تبدو حقيقية تملها مشاعر دينية أو ثورية أصيلة وان
كانت هذه المشاعر قد صعب معرفتها وسط ركام ما كان يقذف به المكتب الاسلامى
فى وزارة الخارجية الفرنسية فى فترة حمى فيها التنافس الانجليزى الفرنسى فى
السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . كما يشير لوريان
أيضا الى المقالات العدائية للسياسة البريطانية فى منطقة الخليج وشمال شرق
الجزيرة العربية التى كانت تظهر فى جريدتى اللواء والمؤيد اللتين تخصصتا فى نشر
العداء ضد السياسة البريطانية . وان كان يشك فى أن أصحاب تلك الجرائد
كانت تحرضهم سلطات الأستانة . ومع ذلك فينبغى التجاوز عن نظرة لوريان

الاستعمارة اذا ما أخذنا في اعتبارنا أن هذا الدليل وضع أساسا لمصلحة المستعمرين الانجليز .

أما القصور الواضح في الدليل فيتضح في عدم رجوعه الى المصادر العربية الخاصة بالجزيرة العربية واعتماده التام على المراجع والوثائق المقدمة اليه من حكومة الهند . وقد يكون من الانصاف الاشارة الى رجوع لوريان الى بعض المصادر العربية المترجمة الخاصة بتاريخ عمان وربما أعانه على ذلك أن هذه المصادر قد حققت ونشرت باللغة الانجليزية وأهمها كتاب « كشف الغممة الجامع لأخبار الأمة » للشيخ سرحان بن سعيد الذي قام الكولونيل روس A. C. Ross بترجمة جزء منه تحت عنوان Annals of Oman ونشر في عام ١٨٧٤ ويرجع هذا الكتاب بأحداث عمان الى عام ١٧٢٨ ، كذلك ترد اشارات من جانب لوريان الى كتاب حميد بن رزيق المعروف بالفتح المبين في سيرة السادة البرسعيديين وهو الذي ترجمه الدكتور بادجر ونشره مع مقدمة تحليلية في عام ١٨٧٢ بعنوان « تاريخ أئمة وسادة عمان » . History of Immams and Seyyids of Oman

وانتهى به الى عام ١٨٧١ على حين أن الأصل العربي يقف عند عام ١٨٥٦ وسواء كان هناك قصور أو اتجاه معين للدليل فانه سيبقى على الرغم من ذلك منبعا لا ينضب للباحثين في تاريخ الخليج وأواسط الجزيرة العربية . مما يجعلنا نرحب بصدر الترجمة العربية للكتاب وبالجهود التي بذلت لاعدادها ، وان كنا مع ذلك في حاجة الى جهد من نوع آخر يفيدنا في محاولة سد الثغرة الكبيرة في تاريخ الخليج والتي نجمت عن اعتماد الباحثين - عرب وأجانب - على المصادر الأجنبية في حين أن هناك حقائق ذات أهمية بالغة تتطوى عليها صفحات تاريخ الخليج لا تزال مجهولة للباحثين . ولعل اصدار الترجمة العربية للدليل تكون فاتحة خير لاهتمام حكومات الخليج بجمع التراث التاريخي الخاص بالمنطقة ، بما يتضمنه ذلك من تسجيل للروايات المحلية وتجميع للوثائق والمستندات وتسهيل عرضها للباحثين . وحتى الآن لم تظهر الا مجهودات مفرقة لجمع المادة المحلية ونشير بصدد ذلك الى الجهد الذي قام به جورج رتنر رئيس شعبة البحث بشركة الزيت العربية الأمريكية في تجميع بعض الروايات المحلية وتحليلها ، واعتمد في جانب منها على الكتاب الذي أصدرته شعبة البحث بعنوان « عمان والساحل الجنوبي

للخليج الفارسي » وكذلك في كتاب آخر بعنوان « المناطق الشرقية لمقاطعة الاحساء » . وكما توارد الى علمنا أن أحد المهتمين بتاريخ الكويت وهو « سيف مرزوق الشملان » يبذل محاولة لتجميع الروايات المحلية من أفواه المعمرين . وعلى الرغم من أن هذه الطريقة لا تستقيم مع منهج البحث العلمي التاريخي الحديث الا أنها في تقديرنا تعتبر ضرورة حتمية في بعض المناطق التي أهملت فيها ، لظروف مختلفة ، الكتابة التاريخية أو المحافظة على المستندات والوثائق الخاصة بها ، غير أنه لا بد مع ذلك من اخضاع الروايات المحلية الى مراحل دقيقة من التحليل ومطابقتها على غيرها من روايات مشابهة وازالة ما بها من مبالغة وتوضيح ما بها من تصور حتى يمكن الوصول بها الى مستوى يفيد الباحث من الرجوع اليها .

أما الوثائق والمستندات العربية التي في حوزة الدوائر العربية في الخليج فتحتاج الى تجميع وتنظيم حتى يمكن تحقيق الاستفادة منها وبالتالي انجاز دراسات أكثر أهمية وذلك بعرض وجهتي النظر العربية والأوربية ، وهو أمر تفتقر اليه الأبحاث والدراسات التي صدرت عن تاريخ الخليج حتى وقتنا الحاضر باستثناء الأجزاء التي وضعها حسين خلف الشيخ خزعل عن تاريخ الكويت السياسي اذ أشار فيها الى مقتطفات من الوثائق العربية الأصلية وان لم يعرضها بشكل علمي فضلا عن أنه لم يشر الى المصادر التي نقل عنها .

أما الجزء الأول من كتاب تاريخ الكويت الذي أصدرته لجنة تاريخ الكويت والذي وضعه الدكتور أحمد مصطفى أبو حاكمه فعلى الرغم من أنه قرر في مقدمته أنه خالف جميع الباحثين الذين تعرضوا لكتابة تاريخ الخليج في اعتماده على المصادر العربية الا أننا لا نجد مع ذلك يشير الا الى المصادر العربية المألوفة التي يعرفها كل باحث في تاريخه الخليج والجزيرة العربية .

د . جمال زكريا قاسم

اسم الكتاب : رحلة طاغور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي

المؤلف : بيرو طاغور

ترجمة وتقديم : دكتور حسن حبشي

الناشر : دار المعارف ١٩٦٨

هذا فضل آخر يصفه الدكتور حسن حبشي الى المكتبة العربية صاحب هذه الرحلة « بيرو طاغور » تغلغل في أسفاده بين عامة الشعب التي لا تكاد نسمع عنها شيئا في المصادر التاريخية المعاصرة والحوليات التي تكون - غالبا - « قد دونت تحت دوافع معينة » ، كما يؤكد المترجم - وبحق - في مقدمته للترجمة العربية .

ولقد استغرقت رحلة هذا « القرطبي » ما بين ١٤٣٥ و ١٤٣٩ م ، تنقل خلالها بكثير من البلدان الأوروبية ومصر ، كما كانت لديه الجرأة لأن يصير على زيارة السلطان العثماني مراد الثاني في عقر داره ، الذي رحب به وأكرم وفادته . وقد سجل طاغور كل ما وقعت عليه عيناه وأحسه بوجدانه « مع أن هذا الوجدان كان بسيطا بل ساذجا في أكثر من موضع » . واهتمام هذا الرحالة في الدرجة الأولى منصب على النواحي الاجتماعية والاقتصادية لأهل عصره ، غير أنه يتعرض لكثير من الأمور الدقيقة في الجوانب السياسية ، ومن قبيل ذلك ما جرى بين « مجمع بازيل » وبين البابا يوجين الرابع (١٤٣١ - ١٤٤٧) الذي خلفه المجمع (الفصل الحادي عشر) . وهناك معلومات طريفة وقيمة عن القاهرة والاسكندرية لا نكاد نعرف عنها الا من كتابات طاغور . وللرجل براعة فريدة في فن المزاح والمداعبة تشد القارئ الى صفحات رحلته من ألفها الى يائها .

لم يقيض لرحلة طاغور أن ترى النور الا في سنة ١٨٧٤ عندما قام الأديب الأسباني Marcos Temerez بنشرها لأول مرة باللغة الأسبانية ، ورغم الاهتمام المجزوء بها منذ ذلك الحين لم تظهر لها سوى ترجمة واحدة كاملة باللغة الانجليزية قام بها مالكولم ليتس في سنة ١٩٢٦ . أما الترجمة الكاملة الثانية فهي ترجمة الدكتور حسن حبشي هذه .

السائل الجامعية

obeikandi.com

ولعل من أمتع ما تحويه هذه الترجمة العربية — في رأيي — ملحق الحواشي الذى يشغل ما بين صفحتي ٢٥٩ ، ٢٨٢ ، ويبلغ عددها ١٨٤ حاشية ، تناول فيها المترجم تحقيق وتوضيح من المصطلحات التى ذكرها طاغور فى رحلته . كما قدم الدكتور للقارئ أهم المصادر والمراجع التى يمكن الرجوع اليها للاستزادة العلمية عن هذا الموضوع أو ذاك .

وقد صدر المترجم ترجمته بامضاء لطافور من وثيقة محفوظة فى أرشيفات قرطبة ، كما ضمن الكتاب ثلاث لوحات آخر هى : خريطة كتلانية للعالم سنة ١٣٧٥ ؛ مبارزة من حولية هولندية ترجع الى أواخر القرن الخامس عشر ؛ ثم لوحة تمثل الامبراطور يوحنا الثامن باليولوغوس فى كنيسته قصر ريكاردى بفلورنسا .

هذا مجهود يستحق كل الاعجاب والتقدير .

ر . اسحق هير

الرسائل الجامعية

استعراض :

جامعة القاهرة

كلية الآداب

درجة الماجستير :

- الحكم المصري في بلاد العرب
اعداد : عبد الحميد محمد البطريق
اشراف : الأستاذ محمد شفيق غربال — ١٩٤٣

معهد الدراسات العربية العليا

التاريخ الحديث .

- الوحدة العربية بين فكرة انشاء الدولة الموحدة ونظام جامعة الدول العربية
اعداد : أحمد طرايين
اشراف : الأستاذ محمد شفيق غربال — ١٩٥٧
- المطامع الانجليزية في الجنوب العربي
اعداد : عبد الحميد عثمان
اشراف : د. عزة النص — ١٩٥٩
- المسألة المغربية (١٩٠٠ — ١٩١٢)
اعداد : محمد خير فارس
اشراف : الأستاذ محمد شفيق غربال — ١٩٦٠
- الترك والعرب في العهد العثماني (١٩٠٨ — ١٩١٤)
اعداد : توفيق برو
اشراف : الأستاذ محمد شفيق غربال — ١٩٦٠
- اليمن في عهد الامام يحيى
اعداد : السيد مصطفى سالم — اشراف : د. أحمد عزت عبدالكريم — ١٩٦٢
- مركز التزويد في الشرق الأوسط ودوره في التوجيه الاقتصادي العربي
اعداد : فتحى محمد الميز
اشراف : محمد محمود الصياد — ١٩٦٣
- الدولة السعودية الاولى
اعداد : عبد الرحيم عبدالرحمن — اشراف : د. أحمد عزت عبدالكريم — ١٩٦٩
- الحجاز في القرن الثامن عشر
اعداد : على معتوق عبد الله القط
اشراف : د. صلاح العقاد — ١٩٦٩

وفيما يلي نوالى نشر بيان الرسائل الجامعية
الجديدة التى لم تنشر فى العدد السابق للمجلة

جامعة القاهرة

كلية الآداب

أولا : درجة الماجستير :

التاريخ الإسلامى والعصور الوسطى

- السلطان الملك الصالح « نجم الدين أيوب » ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م
- اعداد : محمد محمد أمين على اشراف : د. السيد الباز العرينى - ١٩٦٨
- الشرق الإسلامى والدولة البيزنطية زمن الايوبيين
- اعداد : زبيدة محمد عطا اشراف : د. السيد الباز العرينى - ١٩٦٩

التاريخ الحديث .

- العلاقات الأردنية البريطانية ١٩٢٢ - ١٩٣٦
- اعداد : حسن عيد على ريان اشراف : د. محمد أحمد أنيس - ١٩٦٨
- الدولة السعودية ١٨٤٠ - ١٨٩١
- اعداد : عبدالفتاح حسن أبو عليه - اشراف : د. محمد أحمد أنيس - ١٩٦٨

جامعة عين شمس

كلية الآداب

التاريخ الإسلامى والعصور الوسطى

- العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس فى القرنين الثانى والثالث الهجرى
- اعداد : عبد الجليل عبد الرضا - اشراف : د. حسن حبشى - ١٩٦٨
- كتاب اعلام الورى بن ولى نائباً عن الأتراك بدمشق الكبرى لابن طولون الصالحى الدمشقى
- اعداد : عبد العظيم حامد اشراف د. حسن حبشى - ١٩٦٨
- الوزارة - نشأتها وتطورها فى الدولة العباسية
- اعداد : توفيق سلطان اليوزبكى اشراف : د. حسن حبشى - ١٩٦٨
- الحسبة فى المغرب مع بعض نصوص خاصة بها
- اعداد : اقبال موسى بن علاوة - اشراف : د. عبدالهادى شعيرة - ١٩٦٨
- تاريخ مخطوطة ذيل تاريخ دول الاسلام للسخاوى ٨٥٠ - ٨٩١ هـ
- اعداد : أحمد عبد الله الحسو اشراف : د. حسن حبشى - ١٩٦٨
- قيام دولة الموحدين
- اعداد : مراجع عقيله غنامى اشراف : د. حسن حبشى - ١٩٦٨
- علاقات الدولة الحمدانية بالدول الإسلامية المجاورة
- اعداد : أحمد محمد محمد عدوان اشراف : د. حسن حبشى - ١٩٦٨

ثانيا : درجة الدكتوراه :

جامعة القاهرة

كلية الآداب

التاريخ الاسلامى والعصور الوسطى :

- طرق التجارية الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب فى أواخر العصور الوسطى
- اعداد : نعيم زكى فهمى - اشراف : د. سعيد عبدالفتاح عاشور - ١٩٦٨
- التنظيمات السياسية والإدارية والاقتصادية فى العراق فى العصر البويهى
- اعداد : محمد حسين عبد الزيرى - اشراف : د. محمد جمال الدين سرور - ١٩٦٨

التاريخ الحديث :

- الكنيسة والحركات القومية الحديثة فى شرق افريقيا منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الثانية
- اعداد : يوسف عبده يوسف - اشراف : د. محمد أحمد أنيس - ١٩٦٨
- العلاقات بين أمريكا وليبيريا ١٨٢١ - ١٩٠٩
- اعداد : وهبى غبريال وهبى - اشراف : د. محمد أحمد أنيس - ١٩٦٨
- الاتفاق العثمانى ١٨٩٩ بين مصر وبريطانيا واثره فى تطور السودان السياسى والاقتصادى فى الخمسة والعشرين سنة التالية ١٨٩٩ - ١٩٢٤
- اعداد : عبدالفتاح عبدالصمد - اشراف : د. محمد أحمد أنيس - ١٩٦٨
- السياسة البريطانية فى السودان واثرها فى العلاقات المصرية السودانية ١٨٩٩ - ١٩١٤
- اعداد : ابراهيم شحاته حسن - اشراف : د. محمد أحمد أنيس - ١٩٦٨

كلية دار العلوم

التاريخ الاسلامى :

- الأوضاع الاقتصادية فى العراق والشرق ٣٣٠ - ٤٥٠ هـ
 - اعداد : محمد على حيدر - اشراف : د. محمد ضياء الدين الرئيس - ١٩٦٩
- (١٥)

ملخصات

للسائل الجامعية الجديدة

كلية الآداب - جامعة عين شمس

خلال العام الماضى نوقشت عدة رسائل فى التاريخ الاسلامى وفى تاريخ العرب الحديث . بعضها كان للحصول على درجة الدكتوراه وبعضها لدرجة الماجستير .

ومن هذه الرسائل اثنتان فى العصور الوسطى لدرجة الدكتوراه وتعرضان لجزء من تاريخ العراق فى عهد المغول وما حول هذا العهد وهما رسالتا : « الحياة السياسية فى العراق فى عهد المغول » للدكتور محمد صالح القزار ، و « امارة بنى ارتق » للدكتور عماد الدين خليل عمر . وثالثة لدرجة الماجستير تعنى كذلك بجزء من تاريخ العراق وخاصة الجزيرة وهى « العلاقات السياسية للدولة الحمدانية بالدول الاسلامية المجاورة » تلك الدولة التى قامت فى شمال العراق والشام .

وهناك رسالة رابعة تتعرض « للعلاقات بين الدولة العباسية والأندلس » للأستاذ/عبد الجليل عبد الرضا وأخرى خامسة « للوزارة » للأستاذ/توفيق اليوزبكى الذى عنى بدراسة نظام الوزارة فى العصر العباسى . وكل منهما كذلك يدرس فترة من تاريخ العراق فى العصر الاسلامى الوسيط .

أما فى التاريخ الحديث فقد حصل الدكتور سيد مصطفى سالم والدكتور جاد طه على درجة الدكتوراه فى التاريخ الحديث وكانت رسالة د . سيد سالم الفتح العثمانى الأول لليمن ١٥٣٨ - ١٦٣٥ ورسالة الدكتور جاد طه هى : سياسة بريطانية فى جنوب الجزيرة العربية ١٧٩٩ - ١٩١٨ وهناك محاولة تجرى حاليا لدراسة تاريخ عدن الحديث من زاوية جديدة هى دورها فى السياسة البريطانية فى البحر الأحمر وشرق افريقية ويقوم بهذه الدراسة الأستاذ/فاروق ابازة الذى كان قد حصل على درجة الماجستير فى « تاريخ اليمن من ١٨٧٢ - ١٩١٣ . والجدير بالذكر أن الدكتور سيد سالم كان قد درس تكوين اليمن الحديث » . وهى فترة الامام يحيى منذ عدة سنوات . وبذلك يكون تاريخ الجنوب اليمنى وعدن قد غطى معظمه تقريبا .

د . عبد العزيز سليمان نوار

اسم صاحب الرسالة : احمد محمد محمد عدوان
الاستاذ المشرف : د . حسن حبشي
عنوان الرسالة : العلاقات السياسية للدولة الحمدانية بالدول الاسلامية
المجاورة
الكلية : الآداب بجامعة عين شمس
الدرجة : جيد جدا ١٩٦٨

يرجع الحمدانيون في نسبهم الى أصل عربي صريح هو قبيلة تغلب العربية -
التي هاجرت كغيرها من القبائل العربية الأخرى - من موطنها الأصلي في
شبه الجزيرة العربية واستقرت في شمال الشام والعراق ، حيث استطاعت أن
تتغلب على بقية القبائل المجاورة .

ولقد عاصر الحمدانيون افول نجم الخلافة العباسية وضعفها وتفككها الى
دويلات مستقلة ، فاستغلوا الفرصة وحاولوا الاستقلال في منطقة الموصل بزعامة
حمدان بن حمدون - جد الامراء الحمدانيين - الا أنه وقع أسيرا في قبضة
الخلافة ، التي استعانت بأولاده فيما بعد ، وتمكنوا من اخماد كثير من الفتن
التي أقضت مضجع الخلافة مثل حركات القرامطة والخوارج والأكراد .

وهكذا يبدو أن دور أولاد حمدان قد اختلف عن دور والدهم ، ولقد
قدر لعبد الله بن حمدان أن يكون الأشهر بين اخوته فانجب الحسن (ناصر
الدولة) وعلى (سيف الدولة) فكانت على يدهم عظمة الاسرة الحمدانية ،
حيث تولى الحسن على ما كان بيد والده فحاول الاستقلال بالموصل عن
الخلافة ونجح في ذلك واستبد بها ، فاثار عليه هذا الموقف حقد الخليفة في
بغداد الذي وجد نفسه عاجزا عن القضاء عليه ، ولكن رغم هذا فان الحسن
وقف أحيانا الى جانب الخليفة يسانده ضد اعدائه ولا سيما البريديين الذين
حاولوا طرد الخليفة من بغداد .

الا أن دخول البويهيين الى بغداد سنة ٣٣٤ قد غير سياسة الحسن وبدأ
لصراع بين العنصر العربي الحمداني والفارسي البويهي ، ولم يتمكن الحسن
من المحافظة على استقلاله فبات تابعا للبويهيين يدفع لهم الضريبة ، وانتهى
الصراع بسقوط الموصل في يد البويهيين سنة ٣٦٩ ، الا أن أخاه سيف استطاع

أن يحافظ على استقلاله في حلب فتغلب على الأخصيين ولم تتدخل الخلافة في شؤنه الداخلية ، فمكنه من الوقوف في وجه الروم فحطم حملاتهم التي كان الهدف من ورائها إعادة هبة الامبراطورية التي حطمتها الخلافة العربية وسارت حربه معهم على مراحل ، مرحلة الهجوم ومرحلة الدفاع ثم مرحلة الهزيمة وتفوق البيزنطيين .

ولم تمض فترة طويلة على موت سيف الدولة . حتى أخذ المشرق العربي يتأرجح بين القوه السياسية الموجوده فيه ، فظهر الفاطميون كقوه رئيسه احتلت مصر سنة ٣٥٨ وتطلعت لاحتلال الشام فوقع في صراع مع الحمدانيين والقرامطة ، ثم مع القبائل العربية والخلافة العباسية وانتهى هذا الصراع الدامي بتفوق الفاطميين رغم ما حاوله الروم من منع امتداد النفوذ الفاطمي الى الشام ، وسقطت حلب في يد الفاطميين سنة ٤٠٦ وكانت آخر معقل للحمدانيين في بلاد الشام والعراق .

اسم صاحب الرسالة : عبد الجليل عبد الرضا
الأستاذ المشرف : د. حسن حبشي
عنوان الرسالة : العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس
(ق ٢ - ق ٢هـ)
الكلية : الآداب بجامعة عين شمس
الدرجة : جيد جدا (١٩٦٨)

تتناول هذه الرسالة مسألة العلاقات السياسية بين الأندلس والدولة العباسية ومحاولات الأخيرة استعادة هذا القطر الى حظيرتها وفشل هذه المحاولات .
وقد تضمنت خمسة فصول :

الفصل الأول : دراسة مختصرة لأهم المصادر التي اعتمد عليها البحث ،
القديمة منها والحديثة ، مع دراسة لمعنى كلمة تاريخ وكيفية جمع المواد التاريخية
ثم موقف الباحثين ، سواء المسلمين منهم والأجانب من تراث العرب التاريخي
في الأندلس واهتمام الباحثين المتأخر بهذا التراث .

أما الفصل الثاني فقد تضمن ثلاثة أقسام :

(أ) محاولات الولاة الذين تولوا حكم الأندلس بعد الفتح مواصلة
الفتوحات في أوروبا وخصوصا في فرنسا وأهم المعارك التي جرت كمعركة
تور بواتيه والعوامل التي أدت الى فشل الفتوحات وانحصر الحدود الاسلامية
الشمالية واستيلاء الفرنجة عليها .

(ب) الصراع بين الولاة على الولاية وما نتج من جراء هذا الصراع والتمسك
بالعصبية القبلية من نتائج سيئة على وضع المسلمين في الأندلس وتفكك وحدتهم
وبالتالى ضياع بعض المناطق مما مهد لضياع الأندلس كلها من أيدي المسلمين .

(ج) العلاقة بين البربر وعرب المشرق الذين وفدوا على الأندلس بعد الفتح
والتي اتسمت منذ أيامها الأولى بالتناحر والصراع والتي أدت بالتالى الى
نشوب حرب أهلية طاحنة بين هذين العنصرين وتأثير ذلك على مركز المسلمين
في شبه الجزيرة الأسبانية .

وتناول الفصل الثالث : كيفية هرب عبد الرحمن الداخل ودخوله الأندلس واستيلائه على الحكم وانشائه الأمانة الأموية ثم محاولات الدولة العباسية استعادة هذا القطر وفشل هذه المحاولات ، ثم العوامل التي أدت الى هذا الفشل ، وبالتالي سيطرة الداخل على الأندلس وقمعه الثورات المتتالية .

أما الفصل الرابع : اشتمل على دراسة — بصورة مختصرة — للعلاقات السياسية بين الدول البيزنطية والفرنجة من جهة ، وبين الأندلس والعباسيين وهي العلاقات التي نتجت عن العلاقات السيئة وغير الودية بين الدولتين الاسلاميتين . فنشأت المحاور السياسية بين أهم أربع دول في ذلك العصر كما حدث بين بيزنطة والأندلس ضد العباسيين الذين اتسمت علاقاتهم بالبيزنطيين بالعداء والفرنجة المجاورين للأندلس ومحاولاتهم استرداد الأندلس من أيدي المسلمين .

وفي الفصل الخامس : تناول العوامل التي أدت الى ضعف الدولة العباسية وتدهورها وفي مقابلها كانت دولة الأمويين في الأندلس تسير نحو القوة والمجد مما نتج عن هذه الحالة اعلان الناصر الخلافة واستقلاله نهائيا عن الدولة العباسية واعلان نفسه حاكما وخليفة للمسلمين — حسب اعتقاده — بعد أن تدهور مركز الخلفاء العباسيين في بغداد وضياع سلطتهم ونفوذهم وتسلط الأعاجم على الحكم .

اسم صاحب الرسالة : سلطان اليوزبكي
الأستاذ المشرف : د . حسن حبشي
عنوان الرسالة : الوزارة ، نشأتها وتطورها في الدولة العباسية
الكلية : الآداب بجامعة عين شمس (١٩٦٨)
الدرجة : جيد جدا

يعد منصب الوزارة من أهم مناصب الدولة العباسية بعد الخلافة ، ودراستها تلقي ضوءا على التطور التاريخي لحقبة في التاريخ الاسلامى . حيث تعتبر نقطة تحول في نظم الحكم عند المسلمين .

وهذه الرسالة مقسمة الى ستة فصول ، الأول يبحث في أصل كلمة الوزارة والمعاونة لأن الخليفة يحتاج الى الوزير ليحمل عنه بعض أعباء الدولة . وهى أيضا بمعنى الملجأ لأن الخليفة يلجأ الى رأى الوزير وتديره .

أما بداية نشأة الوزارة فقد أثبت هذا البحث أصالتها العربية عند ملوك العرب قبل الاسلام فى الحيرة واليمن والشام كما استعمل عند قدماء المصريين ، ووردت فى القرآن الكريم على لسان موسى وفى حديث محمد رسول الله وفى حديث السقيفة لأبى بكر وكان الصحابة يقومون بمهام الوزراء وان لم يتلقبوا بها ، كما كان الكاتب فى العصر الأموى بمثابة الوزير فى صدر العصر العباسى الأول .

ويتناول الفصل الثانى الوزارة فى العصر العباسى واستخدام الفرس فى الوزارة بسبب تأييدهم العباسيين فى اقامة حكمهم ولقدرتهم الادارية والكتائية .

وكان للوزير العباسى سلطات واسعة فكان الخلفاء على حذر منهم وينكبوهم اذا خشوا استئثارهم بالحكم كما حدث للبرامكة .

أما الفصل الثالث فتعرض للوزارة فى عصر السيطرة التركية ، واختصاصات الوزير وما لحق الخلفاء والوزراء من اضطهاد وقتل على يد الأتراك وما صاحب ذلك من اضطرابات سياسية وأزمات مالية وحركات انفصالية أضعفت الخلافة وهزت أركانها وعجز الوزراء عن توفر الأحوال لضعف مركزهم وتسلط الأتراك

على الأحوال وانفصال بعض الولايات والنفقات الكبيرة لتجهيز الجيوش للقضاء على الدولة ومطالبات الجند بزيادة مرتباتهم بالإضافة الى محاولة الوزراء الاستحواذ على الأحوال الكثيرة لأنفسهم .

ويبحث الفصل الرابع في الفترة التي استعادت فيها الوزارة قوتها على يد الخليفة المعتضد ، وتدخل الحريم ورجال الجيش في اختيار الوزراء وعزلهم الأمر الذي أدى الى التسابق على تقديم الرشاوى الى الحريم ورجال الجيش . ثم ازداد الموقف سوءا بظهور منصب أمير أمراء الذي جرد الخليفة والوزراء من سلطاتهم .

أما الفصل الخامس : فيتعرض للوزارة في العصر البويهى الذين الغوا منصب الوزير واتخذوا لأنفسهم وزراء ، كما أن البويهيين تأثروا بنظام الوزارة لدى الفاطميين تأثيرا واضحا .

وفي الفصل السادس : نصوص نظرية الوزارة التي أوردها الماوردى وأبو يعلى في أحكامها والدوافع التي جعلتهما يكتبان هذه النظرية ولعل ذلك كان بعض اثبات الحق الشرعى للخليفة العباسى في اختيار وزيره ولاستعادة هيئة الخلافة .

اسم صاحب الرسالة : عماد الدين خليل عمر
عنوان الرسالة : امارة بنى ارتق ٤٦٥ - ٨١٢ هـ / ١٠٧٢ - ١٤٠٩ م
الأستاذ المشرف : د . حسن حبشى
الدرجة : الشرف الأولى ١٩٦٨

تعد منطقة الجزيرة - وتدخل الموصل ضمنها - مجالا خصباً للدراسات التي يمكن أن تكشف حقيقة التطورات الكبرى التي وقعت في العالم الاسلامي عامة والعراق خاصة . وذلك بسبب الموقع الذي تحتله والذي أتاح لها أن تكون منطقة اتصال وتفاعل من مختلف أجزاء العالم الاسلامي والشعوب الأخرى . فضلا عن أنها كانت عرضة لتحركات بشرية كبرى مثل عشائر وسط آسيا ومنهم الديلمة والغز والسلاجقة والمغول والحوارزميين .

وعندما قامت الحروب الصليبية كانت منطقة الجزيرة من أهداف الصليبيين بسبب موقعها الاستراتيجي المشرف على ناصيتي العراق والشام وفعلا ظهرت امارة الرها الصليبية فأصبحت الجزيرة وجها لوجه امام مسؤولياتها ازاء الوجود الصليبي العدواني .

وهذه الدراسة تتعرض لامارة اسلامية هي « بنى ارتق » في الفترة الواقعة بين مطلع الدولة السلجوقية واضمحلال امبراطورية تيمورلنك وظهور امارتي الخروف الأبيض (آن قوينلو) وبذلك تكون هذه الامارة قد عاصرت الخلافتين العباسية والفاطمية والسلاجقة والايوبيين والمماليك والتتر والجلالريين والصليبيين . وتعرض المؤلف للظروف التي ادت الى نشأة هذه الامارة الارتقية وتحديد عوامل نموها وسقوطها وعلاقاتها بالدول والامارات التي عاصرتها . وتحليل حضارتها ونظمها المختلفة .

ويعود الفضل في ظهور الارتقية الى جدهم ارتق بن اكسك الذي لعب دوراً هاماً في قيام الدولة السلجوقية الأمر الذي أهله للوصول الى المناصب القيادية ووضع نواة لكيان الارتقية .

وقد تمكن أبناء ارتق من بعده أن يؤسسوا الامارة في منطقة ديار بكر في ماردين وفي حصن كيفا . وعندما اسس عماد الدين زنكي امارته في الموصل وحاول

أن يعيد توحيد الامارات الاسلامية لمجابهة الخطر الصليبي وقف الأراتقة منه موقفا معاديا حفاظا على ممتلكاتهم . الا أن هذا التوتر كاد أن يتلاشى في عهد ابنه نور الدين وعندما قامت الدولة الايوبية على يد صلاح الدين قدم له الأراتقة المساعدات ضد الصليبيين . ولكن بعد وفاة صلاح الدين دب النزاع بين الأراتقة والايوبيين وعند ظهور التتر خضع لهم الأراتقه . وعندما ضعفت الدولة الايلخانية قطع الأراتقه علاقتهم بهم وارتبطوا بالمماليك . ولكن ظهور تيمورلنك ثم امارتى الحروف الاسود والحروف الابيض سببا في توجيه ضربات قاصمة للامارة الارتقية حتى سقطت .

ومن حيث الحضارة ، فقد كانت لهذه الامارة شأو في المجالات الادارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وأصحاب حضارة متجانسة ضمن وحدة حضارية كبرى في المنطقة .

اسم صاحب الرسالة : د محمد صالح دلود القزاز
عنوان الرسالة : الحياة السياسية في العراق في عهد المغول
الأستاذ المشرف : د . حسن حبشي
الدرجة : الشرف الأولى ١٩٦٨
الكلية : الآداب بجامعة عين شمس

لم تحظ فترة الحكم المغولي في الوطن العربي بالعناية اللازمة . ومن الأمور التي تجعل الدراسة صعبة في هذه الفترة ضياع معظم الانتاج الفكري الخاص بهذه الفترة وضعت الحركة الفكرية التي عمت البلاد خلال فترة الاحتلال .

وقد عاجلت هذه الرسالة بعض جوانب هذا الغموض الذي احاط بتاريخا العربي في هذه الفترة التي استغرقت حقه طويلة ومن ذلك دراسة التكوين السياسي للحكم المغولي الذي اصبح العراق خاضعا له ، مع اهتمام خاص لمعرفة تصيب العراق منه .

والرسالة مقسمة الى خمسة أبواب . عالج المؤلف في الباب الأول موضوعين رئيسيين أولهما التعريف بالمغول كشعب بدائي يوج في منطقة صحراوية قاسية وظهور جنكيزخان ودرة في توحيد قبائله والخروج بها الى لغزو الأراضي المحيطة بتلك الصحراء . ثم تعرضه للبلاد الاسلامية حتى وصوله أطراف الخلافة العباسية ومحاولتهم الوصول الى مصر .

وفي القسم الثامن عرض الموقف في العالم الاسلامي من هذا الغزو وخاصة الخلافة وأشار الى أثر الانقسام والتفكك في أضعاف صحوره ثم سقوط أعداد وأثر ذلك على العالم الاسلامي .

وفي الباب الثالث درس نظم الحكم التي أقامها المغول واستعرض النظام السياسي للحكومة الجديدة التي عرفت باسم اللخانية ثم نظامها الاداري الذي جعل المؤلف من العراق نموذجا لبحته باعتباره أحد ولاياتها ثم تحدث عن نظامها الحربي والمالي .

وفي الباب الثالث بحث سياستها الداخلية وتوسع في شرح موقف المغول من طوائف الشعب المختلفة في العراق وتغير سياستهم بالنسبة للمسلمين وعنايتهم بأهل الذمة ومحاولاتهم لاغراء القبائل بالتعاون معها .

وفي الباب الرابع تحدث عن سياستها الخارجية فشرح موقفها من الحكم المملوكي في الشام ومصر ، وعن محاولتها للتعاون مع اوربا في تنظيم الحملات الصليبية الجديدة ، بالاضافة الى موقفها مع مغول القبجان ومغول الجنغاي .

وفي الباب الأخير بحث المؤلف نهاية الحكم الايلخاني في العراق وأشار الى النزاع على العرش وللفتن والعزلة بين الحكام والشعب وأثر وفاة أبي سعيد بلا وريث في تنازع الأمراء واستقلال كل منهم بما تحتيده من البلاد .

واعتمد المؤلف في بحثه على المراجع الأساسية قدر الامكان من ذلك اعتماده على المصادر الفارسية المعاصرة مثل الجويني في تاريخ جهانكشاي والجوز جاني في مؤلفيه طبقات ناصري وتاريخ جنكيز ، ورشيد الدين في مؤلفه جامع التواريخ المخطوط منه والمطبوع ثم ذيله لابرو وتاريخ وصاف والقزوين حمد الله في مؤلفيه تاريخ كريده ونزهة القلوب كما اعتمد على حبيب السير لخوانده وروض الصفاير خوند بالاضافة الى مؤلفات فارسية أخرى كذلك بعض التركية مثل تاريخ منجم باشي وشجرة تورك . واعتمد على المدونات الصينية المعاصرة التي ترجمت الى اللغات الافرنجية بالاضافة الى ما كينة كل من دوسون وهورث في التاريخ المغولي وبراييس عن التاريخ المحمدي والبحوث الأخرى مثل تاريخ كمبرج للعصور الوسطى .

أما المراجع العربية ذات العلاقة المباشرة فقليلة جدا لعل من أهمها مؤلفات ابن القوطي في تلخيص مجمع الأداب والحوادث الجامعة بالاضافة الى مآثره ابن الاثير من تصوير للغزو والنسو وابن العبري .

ومن أهم ما توصل اليه المؤلف .

١ - ان الياسا (كقوانين متقدمة تسبت الى جفكيزخان) ليست سوى العادات والتقاليد التي سادت المجتمع القبلي قبل ظهوره ، وفضله عليها فقط تنظيمها واعطائها قوة التنفيذ لحماية المجتمع من التفكك .

٢ — لم يكن الحكم المغولى الايلخانى اذ خضع العراق له مستقلا بحد ذاته وانما كان تابعا للدولة المغولية الأم التى كان مركزها فى قراقورم اوخان بالق على حدود الصين ، وكان الايلخان غازان أول من انفصل عن طاعته .

٣ — اعتنق غازان الاسلام وجعله الديانة الاسلامية الرسمية لحكمه ويبدو ان المصالح السياسية كان لها دخل كبير فى اسلامه واخيه اوجايتو اذ ان الاسلام ليس قولا فقط دون العمل وبعض اعمالهما لم تكن تتفق ومصلحة المسلمين .

٤ — لم يتخل المغول بعد اسلامهم عن التمسك باحكام « الياسا » كلما وجدوا فيها مصلحة لهم .

٥ — احتفظ المغول بشخصيتهم المغولية وانعزالهم عن المجتمع الاسلامى حتى بعد اسلامهم ولم يذوبوا فيه الا بعد ان اكلتهم المنازعات وفقدوا سلطانهم السياسى .

٦ — لم يحاولوا ممارسة العمل الفكرى واقتصروا على مهن الحرب فقط ، لذلك لم ينبغ بينهم عالما فى أى مجال علمى طيلة تسلطهم الى البلاد .

اسم صاحب الرسالة : السيد جمال مصطفى سالم
الأستاذ المشرف : الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم
عنوان الرسالة : الفتح العثماني الأول لليمن ، ١٥٣٨ - ١٦٣٥
الدرجة : الدكتوراه مع درجة الشرف الأولى

يعد موضوع « الفتح العثماني الأول لليمن ، ١٥٣٨ - ١٦٣٥ » من أهم الموضوعات في تاريخ اليمن الحديث والمعاصر لأنه يتناول فترة زمنية تضمنت الجذور الأساسية لهذا التاريخ ، كما تمخضت عن نتائج هامة أثرت في تاريخ البلاد حتى أيامنا هذه . كذلك احتاج هذا الموضوع الى معالجة خاصة ، نظرا لطبيعته من ناحية ، ولطبيعة مراجعه من ناحية أخرى . اذ أنه من الموضوعات التي تتصف بأنها موضوعات سياسية ، غير أنه في نفس الوقت من الموضوعات التي لا يمكن معالجتها دون اللجوء الى النواحي الاجتماعية والاقتصادية التي تساعد على تفسير الأحداث السياسية ، أو بالأحرى التي ترتبط بها في وحدة متكاملة . ونظرا لطول الفترة التي يعالجها هذا الموضوع من الناحية الزمنية ، فقد رأيت أن أقسمه الى مراحل زمنية قصيرة نسبيا تتضمن كل منها فترة محددة وموضوعا قائما بذاته ، لذلك لم تكن هذه المراحل متساوية من الناحية الزمنية . وترجع أهمية هذا التقسيم الى أنه أتاح الفرصة لتعميق دراسة كل مرحلة على حدة ، مع توضيح جميع نواحيها المختلفة ، وان كان هذا لم يتعارض مع ربط جميع هذه المراحل مع بعضها البعض . ومن ناحية المراجع ، فقد اتضح أثرها بشكل كبير على طبيعة الموضوع ، اذ تميزت هذه المراجع - وعلى رأسها مجموعة المخطوطات التي اعتمدت عليها صفة رئيسية - بغزارة مادتها في بعض النواحي ، وقالها المؤلف في النواحي الأخرى ، وذلك الى جانب تناقض مادتها مع بعضها البعض ، وتعدد وجهات نظرها ، مع تميز مواقفها . غير أن طبيعة مراجع الرسالة - وخاصة الأصلية منها - هي التي زادت من أهمية موضوع الدراسة ، وجعلته يتصف بالأصالة .

قسم المؤلف الرسالة الى تمهيد وتسعة فصول . وقد دعت الحاجة الى هذا التمهيد ، وهو بعنوان « اليمن عند بداية القرن السادس عشر الميلادي » حتى أركز به دراسة الطبيعة البشرية في اليمن ، وأثر هذه النواحي على الحياة

الاجتماعية ، وعلى التطور التاريخي به ، وذلك مع التركيز على دراسة الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية عند بداية القرن السادس عشر الميلادي حتى تتضح الأوضاع التي واجهت العثمانيين في اليمن عند مجيئهم اليه . وقد اتضح هنا كيف أثرت ظروف اليمن الطبيعية وخاصة من ناحية التضاريس التي يغلب عليها الطابع الجبلي ، ومن ناحية الموقع الاستراتيجي الهام ، على النواحي البشرية والاجتماعية والاقتصادية في اليمن ، وقد أكد المؤلف ذلك في العرض السريع لتطور تاريخ اليمن ، وذلك قبل أن أقف عند دراسة حكم أسرة الظاهريين به وهي التي عاصرت بداية ذلك القرن .

وقد درس المؤلف في الفصل الأول ، وهو بعنوان : « الغزو البرتغالي والجهود العربية المضادة ، ١٥١٧ - ١٥٣٨ » ، العوامل المختلفة التي أدت فيما بعد الى فتح العثمانيين لليمن . ولذلك اهتمت بدراسة حركة الكشف البحرية البرتغالية ونجاحها في الوصول الى الهند بحرا عن طريق رأس الرجاء الصالح ، ونجاح البرتغاليين بالتالي في تحويل التجارة الشرقية الى هذا الطريق الجديد ، وذلك بعد أن هاجموا السفن والسواحل العربية والاسلامية لتحطيم سيطرة العرب والمسلمين على هذه التجارة . ومن ناحية أخرى تنبعت جهود هؤلاء الآخرين بما في ذلك سلاطين اليمن لصد الغزو البرتغالي عن تجارتهم وسواحلهم ، وقد ظهر هنا أن المماليك في مصر هم الذين تحملوا العبء الأكبر في الوقوف أمام البرتغاليين ، غير أن جهودهم باءت بالفشل . وقد انتهى الصراع المملوكي البرتغالي الى استيلاء المماليك على ساحل تهامة اليمن لاتخاذها قاعدة أمامية للدفاع عن سواحل البحر الأحمر ، وللانطلاق منه لمحاربة البرتغاليين في الهند والمحيط الهندي . وقد انتهت الحرب بين المماليك والظاهريين في اليمن الى سقوط هذه الأسرة التي كانت آخر الأسر السنية الحاكمة في اليمن . وقد سقط الحكم المملوكي في مصر في نفس الوقت ، ودخلت مصر والشام والحجاز في حوزة العثمانيين ، فاضرت القوة المملوكية في اليمن الى الاعتراف بالسيادة العثمانية عليها .

وتناول المؤلف في الفصل الثاني تحول السيادة الاسمية للعثمانيين في اليمن الى سيادة فعلية ، ولذلك سميته « الفتح العثماني لسواحل اليمن » ، ١٥١٧ - ١٥٣٨ . وكان خضوع مصر وبالتالي سواحل البحر الأحمر لسيطرة

العثمانيين قد أدى الى اصطدامهم المباشر البرتغاليين ، والى قيام التسابق بينهما من أجل الاستيلاء على المواقع الاستراتيجية في البحر الأحمر وعلى السواحل العربية الجنوبية أو على ساحل أفريقية الشرقى . وقد أهتم العثمانيون في الحقيقة بالمعركة الدائرة مع البرتغاليين في البحار العربية الجنوبية ، وإن كان استعدادهم لهذه المعركة قد تأخر بعض الشيء لانشغالهم في جهات أخرى متعددة في أوروبا وضد فارس . وقد ظهر اهتمام العثمانيين بمحاربة البرتغاليين في اعداد حملة سليمان باشا الحادم التي ذهبت الى الهند في سنة ١٥٣٨ م للقضاء على نفوذهم هناك وعلى احتكارهم للتجارة الشرقية . وقد فشلت تلك الحملة البحرية في تحقيق غرضها في الهند ولكنها نجحت في فتح عدن ، وفي القضاء على قوة المماليك في زيب و تهامة ، وفي تدعيم السيطرة العثمانية في باقى أنحاء البحر الأحمر . وفي هذا الفصل اهتمت بدراسة نشاط البرتغاليين البحرى في هذه الفترة ، فأوضحت كيف تمكنوا من التوغل الى داخل البحر الأحمر حتى هاجموا جدة ، وكيف نجحوا ، اقامة العلاقات القوية مع الحبشة ، وذلك حتى تتضح حقيقة جهود العثمانيين للوقوف ضد الخطر البرتغالى .

وتناول المؤلف في الفصل الثالث ، وهو بعنوان « الفتح العثمانى الأول لليمن ، ١٥٣٨ — ١٥٥٥ م » ، خطوات العثمانيين لبسط سيطرتهم على أقاليم اليمن الداخلية ، ونجاحهم في ذلك في عهد أزدمر باشا رابع الولاة العثمانيين في اليمن . وكن من المتوقع أن يقع الصدام بين العثمانيين والزيدىين بزعامة الامام شرف الدين الذى كان قد نجح في بسط سيطرته على جميع أقاليم اليمن الداخلية ، وذلك أثناء الصدام الذى دار بينه وبين المماليك وبقايا الطاهريين قبل قدوم العثمانيين الى اليمن . ويرجع النجاح الذى حققه العثمانيون في اليمن حينذاك الى قوتهم العسكرية والى تفكك جبهة الزيدىين . وقد برز في أثناء هذا الصدام شخصية المطهر ابن الامام شرف الدين ، وخاصة بعد أن تمكن من الصمود امام قوات ازدمر باشا أثناء محاصرته لحصن ثلاء ، حتى أجبر العثمانيين على عقد الصلح معه ، واحتفظ بممتلكاته الخاصة مقابل اعترافه بالخضوع للسيطرة العثمانية .

ولم تستقر السيطرة العثمانية في اليمن طويلا بعد عزل ازدمر باشا ، اذ فقد العثمانيون ممتلكاتهم في اليمن بما في ذلك عدن ، ولم يبق بأيديهم سوى « زيب » وما حولها من الأراضى التهامية .

وقد عالج الفصل الرابع وهو بعنوان « تدهور السيطرة العثمانية ، ١٥٥٦ - ١٥٦٨ » ، العوامل المختلفة التي أدت الى انهيار هذه السيطرة ، والتي كان منها وصول بعض الولاة الضعفاء الفاسدين الى حكم اليمن نتيجة وجود بعض الاضطراب في نظم الدولة العثمانية وأجهزتها منذ أواخر عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦ م) . ومن ناحية أخرى ، كان وجود المطهر على رأس الزيديين من أهم العوامل التي أدت الى سرعة انهيار السيطرة العثمانية حينذاك ، فقد نجح بفضل حنكته السياسية ومهارته الحربية في جميع الفئات اليمنية حوله ، وفي احراز الانتصارات المتتالية ضد القوات العثمانية حتى توقفت قواته أخيرا أمام صمود العثمانيين في « زيد » . وفي هذا الفصل حرصت على ابراز العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية المختلفة التي كانت تؤدي الى تدمير اليمنيين من الحكم العثماني وثورتهم عليه .

أما الفصل الخامس فقد تناول فترة قصيرة نسبيا لأن المؤلف ركز الحديث فيه عن أعمال حملة سنان باشا لاستعادة ممتلكات العثمانيين في اليمن من أيدي الزيديين بزعامة المطهر . ونظرا لأهمية هذه الحملة في تاريخ اليمن الحديث وأهمية أعمالها ، فقد استعرت تعبير أحد المعاصرين وقتذاك عند حديثه عن هذه الحملة وجعلته عنوانا للفصل وهو « الفتح العثماني الثاني لليمن ، ١٥٦٩ - ١٥٧١ م » . وقد تتبع في هذا الفصل خطوات سنان باشا في اليمن بشيء من التفصيل حتى أبرز العوامل الطبيعية والبشرية التي تساعد اليمنيين على الثورة ، وعلى الوقوف دائما في وجه السلطة المركزية في البلاد ، والتي كانت تعوق في نفس الوقت تقدم الجيوش النظامية في المناطق اليمنية وخاصة المناطق الشمالية . وأخيرا ، فقد نجح سنان باشا الى حد كبير في اخضاع اليمن ثانية للسيطرة العثمانية ، رغم اضطرابه الى عقد الصلح مع المطهر ، وبقاء الأخير في ممتلكاته مع اعترافه بالخضوع للسيطرة العثمانية .

وفي الفصل السادس وهو بعنوان « عهد توطيد السيطرة العثمانية في اليمن ، ١٥٧١ - ١٦٠٧ م » عرض المؤلف أعمال الولاة السياسية والحربية لاكمال أعمال حملة سنان باشا في اليمن ، حتى تم للعثمانيين توطيد سيطرتهم الى حد كبير

(١٦)

به ، وخاصة في عهد آخر ولاية هذه الفترة حسن باشا الذي امتدت ولايته الى خمسة وعشرون عاما . وقد ظهر في هذا الفصل أهمية العامل السياسي في تثبيت أقدام العثمانيين في اليمن ، فالى جانب اعتماد العثمانيين على قوتهم العسكرية ، فقد لجأ هؤلاء الولاة الى الأساليب السياسية المختلفة لنشر العدل ولتقريب الأهالى اليهم . كذلك كانت وفاة المطهر الى جانب تنازع أبنائه فيما بينهم من أهم العوامل التي أدت الى نجاح العثمانيين في توطيد سيطرتهم في تلك الفترة . غير أن هذا النجاح لايعنى استقرار الأحوال تماما في اليمن حينذاك ، اذ استمر قيام الثورات في أقاليم اليمن المختلفة نظرا لضعف الأحوال الاقتصادية بها ، أو لشدة وطأة العثمانيين عليها ، مما كان يجبر العثمانيين على ارسال الحملات تلك الأقاليم لخماد الثورات بها .

وقد أشار المؤلف في نهاية هذا اشارة سريعة الى بداية ثورة القاسم ونجاح حسن باشا في اخمادها مؤقتا نظرا لقوة قبضة العثمانيين على زمام الأمور في اليمن ، وذلك لأننى فصلت الحديث عن هذه الثورة في فصل خاص هو الفصل السابع وعنوانه « ثورة امام القاسم وخروج العثمانيين من اليمن ، ١٥٩٧ - ١٦٣٥ م » . وقد تناولت في هذا الفصل اسباب ثورة الامام القاسم من حيث شدة وطأة الحكم العثماني على اليمنيين ، وفساد بعض الولاة والعمال والجنود ، وازدياد قوة الامامة الزيدية وقدرتها على جميع الأهالى حولها ، كما تناولت من ناحية أخرى ماحل هذه الثورة في أثناء حياة الامام القاسم ، ثم في حياة ابنه الامام المؤيد وذلك حتى تم خروج العثمانيين من اليمن في عام ١٦٣٥ م . وقد اتضح هنا كيف أدى اضطراب شئون الدولة العثمانية في ذلك الوقت الى انشغالها عن اليمن ، والى اهمال ارسال النجيدات الى ولايتهم به ، بل والى الانصراف عن استعادته حينذاك عندما خرج من أيديهم . كذلك اتضح هنا أيضا أن حروب الامام القاسم ضد العثمانيين هي التي أكدت سيطرة الزيديين في اليمن ، وأن هذا هو الذي ساعدهم على تولي زمام الأمور في البلاد بعد خروج العثمانيين منها ، وان كان هذا لاكان هذا لاينفى دور أسرة الامام شرف الدين - وعلى رأسهم المطهر - في توحيد السيطرة الزيدية في اليمن .

أما الفصل الثامن وهو بعنوان « النشاط العثماني في البحار العربية الجنوبية ، ١٥٣٨ - ١٦٣٥ م » فقد تحدث المؤلف عن جهود العثمانيين البحرية أثناء وجودهم

فى اليمن ضد البرتغاليين ، فأوضح كيف نجحوا فى حماية سواحل البحر الأحمر ، وفى منع البرتغاليين من التغول الى داخله . وكان البرتغاليون قد استطاعوا فى سنة ١٥٤١ م الوصول الى الطور استعداد المهاجمة الأسطول العثمانى فى السويس ، فدفع هذا العثمانيين على زيادة قوتهم البحرية فى البحر الأحمر ، وعلى تقوية سيطرتهم فى اليمن . وفى نفس الوقت حاول العثمانيون تطهير السواحل العربية الجنوبية من الخليج العربى من الجنوب البرتغالية المتناثرة بها ، فأرسلوا حملة بحرية الى هذه السواحل ولكنها لم تستطيع أن تحقق نجاحا هاما . غير أن نجاح العثمانيين البحرى كان قد تأكد فى جنوبى البحر الأحمر ، اذ منعوا البرتغاليين من دخوله ، كما قطعوا طرق الاتصال بين البرتغاليين وحلفائهم الأحباس مما قضى على آمالهم فى التعاون لغزو العالم العربى ومهاجمة الحرمين الشريفين . وقد اتضح ضعف السيطرة البحرية فى البحار العربية الجنوبية تبعا لضعف البرية العثمانية العامة فى البحر المتوسط ، فاقترص نشاطهم البحرى على مناطق محدودة أمام السواحل اليمنية والسواحل الأفريقية القريبة منها . ولقد كان ضعف البحرية البرتغالية آنذاك من العوامل الهامة التى ساعدت العثمانيين على عدم التمسك بالبقاء فى اليمن عندما أجبرهم اليمنيون على الخروج منه .

أما الفصل التاسع والأخير ، وهو بعنوان « اليمن تحت الحكم العثمانى ، ١٥٣٨ - ١٦٣٥ » فهو مخصص لدراسة الأوضاع الادارية والاقتصادية والاجتماعية فى اليمن أثناء الحكم العثمانى له . وقد تعرضت للنواحي الايجابية والنواحي السلبية فى حكم العثمانيين لليمن حتى تتضح الجوانب المختلفة للحياة هناك فى ذلك الوقت . وقد ربطت فى هذا الفصل بين نظم الحكم فى اليمن ونظم الحكم فى الدولة العثمانية العامة ، وذلك اعتبار أن اليمن كان ولاية عثمانية حينذاك ، فساعد هذا على ابراز الخصائص المحلية لليمن ، التى جعلته يتميز بوضعه الخاص فى داخل الامبراطورية العثمانية .

وأخيرا فقد حرصت على وضع ثلاثة ملاحق فى نهاية الرسالة ، أولها قائمة بأسماء السلاطين الذين عاصروا الفتح العثمانى الأول لليمن ، وثانيها قائمة بأسماء الولاة الذين حكموا اليمن فى تلك الفترة ومدد حكمهم ، وثالثها قائمة بأسماء أهم الأئمة الزيديين الذين ظهروا آنذاك . كذلك حرصت على كتابة بعض الملاحظات الخاصة بمراجع الرسالة حتى أشير الى بعض نواحي أهميتها .

الموضوع : سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربية ١٧٩٨ - ١٩١٨

اسم الباحث : جاد محمد طه محمود

اسم المشرف : الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

نوع الدرجة : الدكتوراه بمرتبة الشرف الثانية

تتناول هذه الرسالة تاريخ منطقة جنوب الجزيرة العربية منذ قدوم الحملة الفرنسية الى مصر سنة ١٧٩٨ الى انسحاب الأتراك من اليمن في عام ١٩١٨ .
ولهذه الفترة أهميتها البالغة في تاريخ منطقة جنوب اليمن بوجه عام .

فقد اتخذ الأمر في بدايته شكل تنافس دولي بين فرنسا وانجلترا ، فعندما رمى بوناپرت - أبان احتلاله لمصر - ببحره الى الهند ، قام الانجليز بالاستيلاء على جزيرة بريم في مدخل البحر الأحمر حتى يوقفوا تهديده المباشر للهند .

واذا كانت هزيمة الفرنسيين البحرية في أبي قير قد ابعدهم عن منافسة الانجليز في جنوب اليمن ، فقد بزغت منافسة أخرى شديدة هذه المرة ، فقد واجه الانجليز خطر التوسع المصري في تلك المنطقة ، مما أدى بهم الى الاستيلاء على عدن سنة ١٨٣٩ .

واتهزت بريطانيا فرصة الأزمة المصرية التركية ١٨٣٩/١٨٤١ واجبرت والى مصر على الانسحاب من جميع الأراضي التي استولى عليها . ثم بدأت بريطانيا تؤمن عدن - ذلك البناء الاستراتيجي بين الشرق والغرب - فعمدت معاهدات للصدقة مع سلاطين وامراء وشيوخ المنطقة .

وقد انطبع الربع الأخير من القرن التاسع عشر في جنوب اليمن بطامع المنافسة البريطانية العثمانية ، وقام الانجليز - في محاولة منهم لتدعيم نفوذهم - بعقد معاهدات الحماية مع امارات الجنوب وذلك لمواجهة تغليل الأتراك في المنطقة . وعندما اشتدت المنافسة التركية البريطانية ، حاول الطرفان وضع خط للحدود بين منطقتي النفوذ البريطانية والعثمانية ، الى أن تم عقد اتفاقية الحدود سنة ١٩١٤ .

وكان من نتائج الحرب العالمية الأولى هزيمة الأتراك وانسحابهم من اليمن . وبدأ أفراد الانجليز بالسيطرة على جنوب اليمن . الا أن هذه السيطرة البريطانية على جنوب اليمن تعرضت بعد اندلاع الثورة اليمنية في سنة ١٩٦٢ للمقاومة العربية المسلحة التي انفجرت في ردفان سنة ١٩٦٣ ، وقد أمكن لهذه الثورة الوطنية المسلحة أن تقيم جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية على انقاض استعمار دام نحو مائة وتسعة وعشرين عاما .